

للفيلسوف الألماني جيته



ترجمة

أحمد حسن الزيات

دار القلم

بيروت - لبنان

آلام ڤارتر

للفيلسوف الألماني جيته

ترجمة:

أحمد حسن الزيات



دار القلم
بيروت - لبنان

من حياة جيته

ولد جان ولفجنج جيته شاعر المانيا وفيلسوفها في «فرنكفورت سيرليمين» عام ١٧٤٩ ، ثم صبت نفسه الى درس الحقوق فدرسها في لبزج ثم في استرسبورج . ولما نال درجة الدكتوراه فيها سنة ١٧٧١ صدف عنها ورغب في الادب فكان مبعثا لحركته وروحا لنهضته . ثم استقر به المقام في «ويمر» لدى الغرندوق «شارل أوجست» سنة ١٧٧٥ .

وفي خلال ذلك نشر رواية «جوتز يرليشنجن» سنة ١٧٧٢ على طريقة شكسبير ، و«آلام فرتر» سنة ١٧٧٤ وهي تاريخ فترة من شبابه أجمل فيها آمال عصره ، وعبر بها عن منازع نفسه ، وخلق فيها نوعا طريفا من الادب. ثم كتب قصة «الكونت ديجمونت» سنة ١٧٧٥ ، و«وليم مستر» سنة ١٧٧٧ ، و«ايفجيني» سنة ٧٦ . ثم أزمع الرحلة الى ايطاليا فأقام بها ثلاثة أعوام كتب فيها «تركانوتاسو» . وفي سنة ١٧٩٤ اتصلت المودة بينه وبين «شلر» ونشر كثيرا من القصائد الرائقة والكتب الممتعة . ثم ألف الجزء الاول من رواية «فوست» عام ١٧٩٨ ، وزاره نابليون في

«أرفرت» وقلده «صليب جوقة الشرف» سنة ١٨٠٨ ، ثم اصبح وزيرا لحكومة دوق ساكس ويمر سنة ١٨١٥ ، وشغل فراغه بالكتابة فكتب مذكراته ورحلته الى ايطاليا ، وأكمل رواية «فوست» ثم قضى نحبه في ٢٢ مارس سنة ١٨٣٢ بويمر •

مقدمة

للدكتور طه حسين

لعل حاجتنا الى النقل والترجمة لم تبلغ قط من الشدة ما بلغته اليوم، فنحن في عصر انتقال من طور الى طور . وأخص ما يميز عصور الانتقال الظمأ الى العلم بكل شيء ، والرغبة في تعرف كل جديد .

يسأم الشعب في هذه العصور ما ألف قراءته من كتب ، وما تعود استماعه من مختلف النظريات العلمية ، والوقوف عليه من آثار الفن ، ويود لو استطاع ان يجد من الطريف المستحدث ما يشفي علته ، وينقع غلته ، ويخرجه من هذه البيئة التي طال بها عهده وثقل عليه فيها احتمال الحياة . وقد كان يحسب نفسه كل شيء فاذا هو يشعر بأن على الارض شعوبا اخرى تقاسمه الحياة وتشاطره ما اشتملت عليه من لذة وألم ، ومن سعادة وشقاء ، وأن هذه الشعوب قد اتخذت لنفسها من نظم السياسة والاجتماع ، ومن مناهج البحث والتفكير ، ما لم يألفه ولم يهتد اليه .

فما أشد ظمأه الى ان يعرف من امر هذه الشعوب ما جهل ، ويقف من حياتها الاجتماعية والعقلية على ما خفي عليه .

فكل من نقل اليه كتابا من كتب العلم ، او لخص له فصلا من فصول الفلسفة ، او ترجم له من الآثار الفنية والادبية ما يعرب عن شعور هذه الشعوب وعواطفها ، وعن ضروب احساسها للاشياء وتأثرها بها ، فقد صادف منه مكان الحاجة وأشرف به من البغية على ما يريد .

ليس هذا الامر من اليسر والسهولة بحيث يظن كثير من الذين يتصدرون للنقل والترجمة ؛ فان سأم الشعب من كل قديم ، وتهافته على كل جديد ، من غير ان يروّي في النفع والضر ، او الخير والشر ، يهيئه لقبول ما ينقل اليه من حسن ورديء . فخليق بالناقل ان يلاحظ استعداد الشعب وحاجته ، وألا ينقل الا ما يوافق استعداده ويلائم مزاجه ، ويكون من النفع والفائدة بحيث يصلح من حاله ، ويقوّم من عوجه ، ويعينه على التطور والانتقال ؛ وليس هذا بالهين ولا باليسير .

فاذا وفق الناقل الى اختيار ما ينقل فأمامه من الصعاب ما يعسر تذليله ، ومن العواقب ما يصعب تمهيده . أريد صعوبة النقل في نفسه ؛ فان الناقل ليس حريا ان يحسن اللغة العربية التي ينقل اليها ، واللغة الاجنبية التي ينقل عنها فحسب ، بل هو خليق ان يحسن الفن الذي ينقله احسانا تاما ، وأن يكون من اجادته بحيث يستطيع النقد والمناقشة اذا كان موضوعه علميا او فلسفيا ؛ فاذا كان فنيا او ادبيا فالصعوبة أثقل عبئا وأشق احتمالا ، لان الناقل ملزم حينئذ ان يكون من القدرة والكفاية بحيث يستطيع ان يقوم مقام المؤلف الاول فيشعر بقلبه ويحس بحسه ، ويرى الاشياء بتلك العين التي رأى بها المؤلف ، ويصفها بهذا اللسان الذي وصفها . فان الترجمة في الفن والادب ليست وضع لفظ عربي موضع لفظ اجنبي ، اذ الالفاظ شديدة القصور عن وصف الشعور في

اللغة الطبيعية ، فكيف بها في لغة اخرى ؟ انما الترجمة الفنية والادبية عبارة عن عملين مختلفين كلاهما صعب عسير : الاول ان يشعر المترجم بما شعر به المؤلف ، وأن تأخذ حواسه وملكاته من التأثير والانفعال نفس الصورة التي اخذتها حواس المؤلف وملكاته ان صح هـــذا التعبير . والثاني ان يحاول المترجم الاعراب عن هذه الصورة والافصاح عـــن دقائقها وخفاياها بأشد الالفاظ تمثيلا لها وأوضحها دلالة عليها .

وخلاصة القول ان المترجم يجب ان يجتهد ما استطاع لا في ان ينقل الينا معنى الالفاظ التي خطتها يد المؤلف بل في ان ينقل الينا نفس المؤلف جلية واضحة تتبين فيها من غير مشقة ولا عناء ما أثر فيهـــا من ضروب الاحساس والشعور .

***

لقد وفق صديقنا الزيات الى هذا كله حين نقل الى اللغة العربيـــة «آلام فرتر» للشاعر الفيلسوف «جوت» . وفق الى حسن الاختيار ، فما كان لشعب يجل نفسه ويريد ان يعد بين الامم الحية ان يجهل شاعرا فيلسوفا كجوت قد أثر نبوغه الفني والفلسفي في الحياة العلميـــــة والنفسية للعالم الحديث أشد تأثير . وما كان لهذا الشعب ان يجهل كتابا كآلام فرتر قد عرفه الناس جميعا في اوربا فأحبوه وكلفوا به ، حتى انك لا ترى فتى ولا فتاة في السادسة عشرة من العمر الا قرأه وقرأه وحاول ان يتفهم معانيه ويتأسى بما فيه ، وخيل اليه ان هذا الكتاب لا يصف ما جال في نفس خاصة من فكر ، وما ملكها من هوى ، وما أثر فيها من عاطفة ، انما هو يصف الحياة النفسية لكل شاب وشابة على اختـــلاف الازمنة والامكنة ، وعلى تباين الاحوال والظروف .

تلك خصلة تمتاز بها الكتب التي أنشئت لتبقى أبد الدهر وقضى

ان يكون الخلود لها نصيبا . تخلد لانها لا تصف الاشخاص التي تفنى وتزول ، وانما تصف النوع الذي يبقى ويدوم . وخصلة اخرى قضت لهذا الكتاب بالبقاء والخلود ، هي انه لم يقف عند تمثيل الحياة النفسية للشباب في طور من أطوارها، وانما وضع للانسانية مثالا من الفضيلة تحس كل نفس الميل اليه ، وتود له بلغته او دنت منه . فهو يمثل الايثار والتضحية احسن تمثيل ، ويصور الولاء للاصدقاء والوفاء للأحباء اجمل تصوير . كل ذلك من غير تكلف ولا تصنع ، ومن غير محاولة ولا عناء .

تبع المؤلف طبيعته ، وجرى مع فطرته ، فما كان الا ان تناول القلم وخط به فأخرج من ذلك احسن صورة حية خلابة يرى فيها كل امرىء نفسه ويشعر مع ذلك بأنه في حاجة الى شيء من الجد غير قليل ، والى مقدار من العناء غير يسير ، ليبلغ ما تصوره من الكمال .

وفق صديقنا الزيات الى حسن الاختيار ، فان الكتاب الذي ترجمه على ما له من شهرة تلزم كل ناشىء ان يقرأه ويتفهمه ، يمثل حياة الآداب الاوروبية في عصر هو أشد العصور شبها بهذا العصر الذي نسلكه ، فقد كانت أوربا حين كتب جوت «آلام فرتر» تعبر عصر انتقال كعصرنا الذي نعبره . سئمت مثلنا كل قديم ، وشغفت مثلنا بكل طريف ، وودت لو اراحها الكتّاب والشعراء من تلك الاساليب العتيقة التي ألفوها فيما يكتبون وينظمون ، ومن تلك الآراء البالية التي كانوا يرددونها في كل ما يقولون ، حتى كأن حياتهم العقلية والنفسية لم تكن الا صورة وفق الاصل لحياة من سبقهم من الكتّاب والشعراء مع تغيير الاحوال الاجتماعية والسياسية ، واستحالة النظريات العلمية والفنية . وليس على هذا السأم والملل من دليل يعدل ما كتبه «جوت» الى احد الشعراء : «دعني اشعر بشيء لم أحسه من قبل ، وأفكر في شيء لم اعهد التفكير فيه ، اشكر لك ذلك شكرا جميلا ، فأما وضع الضجيج والعجيج مكان

لتأثر والانفعال فلسنا في حاجة اليه الان» .

كذلك كان يفكر «جوت» في المانيا ، وكذلك كان يفكر غيره في فرنسا وانجلترا . كان الكتّاب الاوربيون يودون لو خلصوا من تلك الاعباء الثقيلة التي كانت تنوء بالفن الادبي ، ورجعوا في التعبير عن احساسهم وعواطفهم الى الطبيعة الحرة الطليقة . لذلك نشأت طريقة «روسو» في فرنسا ، وهي بعينها طريقة «جوت» في المانيا . كلا الرجلين يريد ان يترك لوجدانه وعواطفه الحرية في ان تظهر للناس واضحة جلية لا يشوبها شوائب الزخرف والتنميق ، ولا تشوهها معايب التصنع والتقليد .

لذلك كان «روسو» ينادي باقتفاء أثر الطبيعة في كل شيء ، في النظم والنثر ، بل في انظمة الحياة الاجتماعية والسياسية . وكان «جوت» ينادي بمثل هذا في الآداب والفنون الجميلة . كانت آثار هوميروس وشكسبير وبيرن رفاقه في وحدته ، ونموذجه في طريقته . وهو لم يكتف بمجاراتها وتقليدها ، بل كانت شخصيته أشد وأقوى من ان تقف عند المجاراة والتقليد فظهرت واضحة جلية في كل ما كتب .

كان «جوت» شديد الاعتراف بشخصيته والميل الى اظهارها ، فلم يستطع ان يسلك طريق غيره من الكتّاب فيتخذ لكتبه وقصائده موضوعات لا تمس شخصه ولا تتصل به ، بل كان في كل ما كتب انما يعبر قبل كل شيء عن عواطفه الخاصة وما لقي في دهره من خير وشر .

***

ليست «آلام فرتر» قصة منتحلة او بناء متكلفا استعيرت اجزاؤه المختلفة من الخارج ؛ انما هي قصة ما اصاب «جوت» نفسه ابان شبابه . ومن هنا بريء الكتاب مما يشوه غيره من آفة الكذب والاختراع .

هام «جوت» بينما كان في «وتسلار» يتدرب على المحاماة بفتاة يقال لها «شرلوت» وهامت به هذه الفتاة ، ولكنها كانت مخطوبة الى فتى يقال له «كستنر» فلم يستطع هذا الهيام الا ان يأخذ شكل الصداقة والاخاء الصحيحين . وقد حاول «جوت» ان يحفظ لهذه الصلة شكلها البريء فاتصل الاخاء بينه وبين كستنر ، وألف العاشقان والعشيقة جماعة تصل بين أفرادها صلة طاهرة نقية . ولكن الحب كان أشد قوة وبأسا من الشجاعة النفسية والحرص على المودة والوفاء .

أشفق «جوت» على نفسه وعلى صاحبيه فترك «وتسلار» ، وتم القران بين الخطيبة وخطيبها ، فأحدث ذلك في نفس شاعرنا ضروبا شتى من التأثر والانفعال ؛ فتارة يرضى ، وتارة يسخط ، وأحيانا يذعن ، وأخرى يثور . ونجد ذلك كله مصورا في «آلام فرتر» . ولكن الكتاب يخالف الواقع في شيء واحد هو ان «جوت» لم ينتحر كما انتحر فرتر ، ولم يكن بينه وبين صديقه «كستنر» من البغض والعداء ما كان بين «فرتر» و«ألبير» في آخر ايامه . انما اخذ «جوت» فكرة الانتحار من حادثة وقعت في «وتسلار» ؛ وهي ان شابا قد عرفه العاشقان سري الخلق رقيق الطبع انتحر لاخفاقه في قصة غرامية بينه وبين فتاة من فتيات المدينة . فأخذ «جوت» من هذه الحادثة ما ختم به حياة «فرتر» .

ألف «جوت» «آلام فرتر» سنة ١٧٧٤ فلم يمض على انتشاره اشهر حتى عرفته المانيا كلها ، وحتى كان مجد مؤلفه شاهقا متين الاساس . ولكن وقع هذا الكتاب الغريب في نفس صديقته شرلوت وكستنر كان شديدا . فاشتد اللوم والعتاب من جهة ، واشتد الاعذار والاستغفار من جهة اخرى ، ثم كان العفو والاعذار . ولعل من ألذ ما يقرأ القارىء ما كان بين هؤلاء النفر الثلاثة من الرسائل التي نشرها للناس رابع اولاد «شرلوت» و«كستنر» في منتصف القرن التاسع عشر .

لا يزال الكتّاب يختلفون ويتناقشون، فبعضهم يبيح للكاتب والشاعر وللناقش والمصور ان يتخذ الاشخاص الأحياء وحياتهم موضوعا لنظمه ونثره ، ولنقشه وتصويره ، لان ذلك ان آذى الاشخاص وأساء اليهم ففيه للجماعة خير واحسان . وبعضهم يحظر عليه ان يسلك هذا المسلك لان حياة الاشخاص وأسرارهم وشعورهم وعواطفهم مقدسة ليس لاحد ان يبيحها او يذيعها مهما كان ذلك نافعا ومهما اشتمل عليه من الخير . وسواء اخطأ اولئك ام هؤلاء فان «آلام فرتر» قد نشرت في أوربا فتهافت عليها الناس وأحدثت في نفوسهم من الاثر الحسن او السيء ما كانت خليقة باحداثه . وهي لا تزال الى الان وستبقى ابد الدهر موضع بحث العلماء وعناية الفنيين .

***

من الناس من يأخذ على هذا الكتاب انه يحمل الشباب على الانتحار ويرغبهم فيه ، ويستدل على ذلك بالعدد الوافر الذي انتحر من الشباب في المانيا وفرنسا وغيرهما من بلاد أوربا عند قراءته . ويخيل الي ان هؤلاء لم يوفقوا الى القصد ولم يهتدوا سواء السبيل . هب ان الكتاب قد ساء أثره حينا ما فان هناك حقيقة ليس لانكارها من سبيل : هي ان الكتاب قد بلغ من الجمال والروعة مبلغا يلزم كل محب للفن ان يقرأه ونزل من آثار الفن الحديث منزلة توجب على كل استاذ من اساتذة الاب ان يقف عليه . على اني أعتقد ان ما كان من سوء أثر الكتاب عند ظهوره قد بولغ فيه وأسرف الناس في وصفه ؛ فانما اساء بعض الشبان ذوي النفوس المريضة فهمه والاستفادة منه ، لان ظروف الحياة الاجتماعية كانت من الشدة والضيق في أوربا بحيث تجعل نفوس كثير من الناس ضعيفة رخوة ، وخانعة مستسلمة ، لا تستطيع مقاومة ولا احتمالا . وآية ذلك ان

الكتاب لا يزال يُقرأ ويدرس ، بل هو الان يمثل في الملاعب ويغنى في دور الموسيقى من غير ان يحدث من سوء الاثر وقبح العاقبة ما احدثه حينا ما .

ذلك لان الظروف الاجتماعية الخاصة التي ملأت نفوس الاوروبيين سأما ومللا في أوائل القرن التاسع عشر قد انقضت واستحالت ، وأصبح الناس وقد ملأهم الامل وملكتهم الرغبة في الحياة وما فيها من لذة ونعيم ، فلم يبق من هذا الكتاب الا أثره النافع وهو كما قدمنا عظيم جليل الخطر .

***

وفق صديقنا الزيات الى حسن الاختيار ، ووفق الى حسن الترجمة ايضا على ما كان يعترضه في سبيل ذلك من المصاعب والعقبات . فان «آلام فرتر» ليست من السهولة واليسر بحيث يستطيع القارىء ان يفهمها لاول مرة قراءة بله القدرة على نقلها وترجمتها . ذلك لانها صورة نفس كبيرة دقيقة الحس والعاطفة هي نفس «جوت» ، ولأن فيها من دقيق الوصف الحسي من جهة ، والآراء الفلسفية من جهة اخرى ، ما يعسر فهمه والوقوف عليه . اضف الى ذلك ان اللغة العربية لم تألف هذا النوع من الوصف والفلسفة لان ابناءها لم يسلكوا بها هذا الطريق . فاذا لاحظنا ان الاستاذ الزيات لم ينقل هذا الكتاب من لغته الاولى ، وانما نقله عن الفرنسية [1] ، وانه قد استطاع مع هذا كله ان يخرج لنا منه صورة صحيحة رائعة ، عرفنا مقدار ما عانى في سبيل ذلك من مشقة

---

١ ــ ترجم عن طبعة فلامريون وترجمة «سفلنج» و«بيتوب» وقوبل على ترجمتين آخريين .

وما كابد من صعوبة . ولكنني اخشى اذا أطلت في مدح صديقي وقدمت اليه من الشكر والثناء ما هو خليق به ان أسيء اليه او ان أؤذيه ؛ فقد عودني وعودته ان نتقارض النقد لا ان نتقارض الثناء .

فالى الشباب العربي أقدم باسم صديقي هذا الكتاب وأنا واثق انه سيجد من عنايتهم به ، وانكبابهم على قراءته وتفهمه ، اجمل شكر على ما بذل من جهد ، وأحسن تشجيع على ما هو باذل في خدمة الادب منذ اليوم ان شاء الله .

طه حسين

اهداء المترجم

صديقي أ. ز. نزيل نوتنجهام

لو سألتني وأنا أعلم الناس بك أن أصف خطرات نفسك، وأصور نزعات وجدانك وحسك ، لما كنت الا فرتر !

فيك دقة شعوره ورقة قلبه . فيك قوة اخلاصه وشدة حبه . فيك حدة ذكائه وتصوره . فيك سرعة بكائه وتأثره . فيك حدبه على المستضعفين ، وسخطه على المستكبرين . فيك خياله الوثاب وروحه الجذاب وخلقه المصفى و . . غرامه اليائس !

قرأت فرتر ليالي ناءت بقلبك الغض عاطفة أليمة فأقضت مضجعك ، وأسالت مدمعك ، وتركتك كالملاك روحا من غير جسم ، وهوى من غير اثم ، ونبعا يجيش بالوجدان الحي والشعور الصادق والحب البريء ، فكانت حالتك تمثيلا لحالته ، وآهتك تفسيرا لعبارته ثم ترجمته وقد سافرت كما سافر ، فكان شخصك في ناظري ، ووحيك في خاطري ، ولفظك على لساني ، ويراعك في يدي .

أنتما المثل الاعلى للشبيبة الحساسة العاملة . وما رجوت من نقل هذه النفحات السماوية الا ايقاظ العواطف السامية في صدور الشباب ، فان مبعث النهضات الاجتماعية انما هو العواطف المتقدة ، والخواطر الملتهبة ، والنفوس المضطربة ؛ أما العقول الرزينة الهادئة ، والاذهان المنطقية الساكنة ، فهي خمود ثورة القلوب ، وقعود في نهضة الشعوب ! فاليك يا صديق النفس ومهوى الفؤاد أقدم هذا الكتاب ، لانك أعلم الناس بواجبه ، وأفهم القارئين لكاتبه ، وليكون تحية على البعد خالدة ، وآية على الاخلاص والود شاهدة .

اول مارس سنة ١٩٢٠
« أ. الزيات »

تقدمة المؤلف

عنيت بجمع ما تيسر لي جمعه من نبأ البائس فرتز . واني أقدمه اليك واعلم انك ستحمد ما صنعت ، وتشكر لي ما جمعت . انك لن تستطيع وأنت تقرأه ان تحبس نفسك عن الاعجاب بفكره وقوة حسه ، ولا قلبك عن الولوع بخلقه وشرف نفسه ، ولا عينيك عن البكاء لعثار جده وبؤسه .

وأنت ايتها النفس اللطيفة الشاعرة ! اذا أشجاك ما أشجاه من غصة الهم وحرقة الجوى فاستمدي الصبر والعزاء من آلامه ، وتلمسي البرء والشفاء في أسقامه ، واتخذي هذا الكتاب صاحبا وصديقا اذا ابى عليك دهرك او خطؤك ان تجدي من الاصدقاء من هو أقرب اليك ، وأحنى عليك .

((جيته))

الجزء الاول

٤ مايو سنة ١٧٧١

لشد ما أبهج نفسي وأثلج فؤادي انني سافرت ! وتلك عجيبة من عجائب القلب يا صديقي ! كيف أسرّ وقد روعنا البين (١) وصدعنا الفراق ، وأنت الذي أشربت (٢) محبته وما كنت أطيق الصبر عنه ؟! على انني واثق منك بالصفح والمغفرة .

ان صلاتي بغيرك كانت على ما رأيت وسيلة من وسائل القدر لتعذيب قلب شديد الحساسية كقلبي . وارحمة لك يا لينور ! لقد تألمتِ في رضاي ، وشقيت في هواي ، ولكنني مما لقيتِ بريء . ما ذنبي اذا كان الهوى ينبت سرا في قلبها البائس على حين كانت اختها تبتغي الوسيلة

١ ــ البين : البعد .
٢ ــ أشربت محبته : خالط حبه قلبي .

الى قلبي بملاهيها الجميلة ورشاقتها الفاتنة ؟ على انني لا أبريء نفسي كل البراءة . ألم اناقلها احاديث الهوى والصبابة ؟ ألم أله بلهجتها الساذجة الصادقة في شرح وجدانها وشعورها ؟ ولطالما اضحكني ذلك منها وان لم يكن في الامر ما يضحك ! ألم ... أواه ! ما الانسان حتى يجرؤ على شكاية نفسه ؟

لقد وعدتك يا صديقي ان أصلح نفسي ، فلا اريد ان ألح كما كنت اصنع في اكتناه (٣) الاشجان اليسيرة التي ترشقنا بها يد القدر . اريد ان أنعم بالحاضر وأعد الماضي نسيا منسيا .

لقد أصبت ، فان الناس لو لم يروضوا (٤) مخيلاتهم ويريدوها على ان تذكر هموم الماضي لكانوا أخف حزنا وأقل ألما . والله يعلم لمَ جُبلوا كذلك وقد كانوا أحرياء ان يعملوا على ان يجعلوا كفاف حاضرهم محتملا مقبولا . قل لأمي ــ ولك الفضل ــ انني سأعنى بقضيتها وسأطالعها بخبرها عما قليل ..

لقد قابلت خالتي فوجدتها ليست من الخبث في المنزلة التي أحللناها اياها . أجل ، انها حديدة الطبع قصيرة الاناة (★) ، ولكنها طيبة القلب نبيلة النفس .. بسطت لها ما تشكوه أمي من أمر تراثها (٥) المغصوب فوقفتني على اسباب تلك الشكوى وقالت : انها مستعدة ان تنزل لنا عن اكثر مما ندعيه على شروط ذكرتها . وقصاراي اليوم ان اقف في هذا الموضوع عندما كتبت . فقل لوالدتي ان الامر سينتهي على ما تحب .

---

٣ ــ اكتنه الشيء : بلغ كنهه أي حقيقته وغايته .
٤ ــ يروضونها : يذللونها ويعودونها .
(★) الأناة : الحلم والوقار .
٥ ــ التراث : الميراث .

زادتني هذه المفاوضة القصيرة علما بأن سوء التفاهم والاهمال ربما أحدثا من الشقاق والخلاف مما يحدثه الخب [٦] والخبث ؛ فان تساويا في الاسباب فهذان أندر وجودا .

اصبحت في هذا المكان رافها وادعا . اجد في مناظره بهجة الفردوس وزهرة النعيم ، وفي الخلوة به دواء القلب وشفاء النفس ؛ واقبس فؤادي المقرور [٧] من هذه الحرارة الفائضة والحياة النابضة في ذلك الربيع الطلق .

عملت فيه يد الطبيعة فجعلت كل شجرة وكل سياج لفيفا من الازهار . فمن رآه تمنى لو يصير فراشة فيطير فوق هذا المحيط المائج بالعطر والطيب يتلمس فيه غذاءه الوحيد .

المدينة قليلة الرواء والجمال ؛ ولكن الله عاضها من ذلك بهجة حواشيها ونضرة ضواحيها ، فان جمال الطبيعة فيهن لا يدركه وصف ، ولا يسأمه طرف . وذلك ما حدا بالكنت «م» ان يخط حديقته على ربوة من تلك الربى الجميلة التي تتلاقى فتكوّن الاودية الانيقة الرائعة .

هذه الحديقة ساذجة النظام والزخرف ، يتمثل في خاطر من يدخلها لاول وهلة ان رسومها لم تخطها يد جنّان [٨] صنّاع [٩] ، بل دبجها قلب حساس ليتمتع فيها بنفسه ، وليذهب مع خياله وحسه .

وقفت بالجوسق [١٠] البالي الذي شاده صاحب الحديقة بها ليكون مثوى لنفسه ، وملاذا لها من همه ، فأرسلت عيناي عبرتين على ذكرى

---

٦ ــ الخب : المكر .
٧ ــ المقرور : البارد .
٨ ــ الجنان : البستان .
٩ ــ الصناع : الحاذق .
١٠ ــ الجوسق : الكشك بلغة العامة .

هذا الراحل ، واتخذت هذا المكان من بعده حمى ومستقرا .

سأصبح عما قليل رب الحديقة ، فقد توثقت بيني وبين البستاني عرى المودة . ولن يجد مني بحمد الله ما يعقبه على تلك الصداقة ندما .

١ مايو

اصبحت نفسي طليقة من عقال الهموم عريقة في صفاء الهدوء ، مشابهة للربيع الطلق في سكون صاحبه الضاحك ، وجمال ضحاه الزاهر ، متمتعة بما تشاهد من جلاله وروائه . وغدوتُ في هذا البلد الملائم لقلبي وحيدا مرسل النفس مطلق العنان في متع الحياة ومسراتها . انا يا صديقي رخي البال سعيد النفس ، وان قواي وملكاتي لفانية مستغرقة في سكرة هذه الحياة الراضية المطمئنة ؛ وذلك ما يسخط الفن ولا يرضي القلم ؛ فان من المجال في مثل هذه الحال ان أرسل خطا او أخط رسما . على انني لم اكن كاليوم اقوى شعورا بالكون ولا أتم استعدادا للرسم . اقلب النظر حولي فأرى ذلك الوادي الحبيب وقد غشيه من البخار سحاب مركوم (١١) ، وأبصر الشمس في متوع (١٢) النهار تبدد بلألائها ظلام الغابة الحالك ، وتتسرب أشعتها الى جوف محرابي المقدس ، وأتبين ضروبا شتى من النبات وأنا انظر في أديم الارض مفترشا بساط الاعشاب الطويلة على مقربة من هدير الجدول ؛ وأتأمل ذلك العالم الصغير يموج بعضه في بعض تحت وريقة من اوراق الكلأ (١٣) ، وتلك الحشرات والهوام ذوات الاشكال العديدة والالوان

---

١١ ــ مركوم : مجتمع بعضه فوق بعض .

١٢ ــ متوع النهار : غاية ارتفاعه قبل الزوال .

١٣ ــ الكلأ : العشب .

المختلفة التي تتحدى الناظر وتعاجز المراقب ؛ وأحس في نفسي حضور القوي القادر الذي برأنا [١٤] على صورته ، وأمدنا بروحه [١٥] وقوته ، وقادنا الى النعيم المقيم بفضله ومنته . ارى كل ذلك يا صديقي وأشعر به فترتفع عن ناظري أغشية الحجب ، وتنطبع في خاطري صورة هذا العالم الكبير كما تنطبع في القلب صورة المحبوب ، فتستخفني نزيّة [١٦] من الشوق الى تصويره ، وأقول لنفسي : «آه ! ليتني استطيع ان اشرح كل هذا ! وليت يدي تقدر على ابراز ما أثر في نفسي من هذه المناظر والمظاهر على القرطاس جليا نقيا ، فتكون هذه الصورة مرآة نفسي كما ان نفسي مرآة الله» ؛ ولكن بهاء هذه الصور ، وسناء تلك الرؤى [١٧] يملكان عليّ طريق العمل فأقف ازاءها وضيعا ، وأخرّ امامها صريعا !

١٢ مايو

لعمرك ما ادري أأرواح ساحرة تجول في هذا الوادي ، ام خيال سماوي تملّك فؤادي وخلع على ما حولي من الاشياء وضاءة الحسن ونضارة الفردوس ؟ على مقربة من هذا المكان ينبجس ينبوع عذب بتّ به مفتونا وبقربه مسحورا كأنني ميلوزين [١٨] وأخواتها . يهبط الذاهب

---

١٤ ــ برأنا : خلقنا .
١٥ ــ الروح : الرحمة والمساعدة .
١٦ ــ نزية : حدة .
١٧ ــ الرؤى : جمع رؤيا وهي ما يوحيه الله في الخواطر او في النواظر من الاشباح والصور .
١٨ ــ ميلوزين : جنية خرافية نصفها امرأة ونصفها الآخر أفعى . يزعمون أنها بانية قصر لوزينيان وحاميته . ومن عادتها ألا تظهر على برجه الاكبر الا اذا حانت منية احد من اهله .

اليه من رابية صغيرة فيجد بناء معقودا ذا عشرين دركة (١٩) تنزل به الى ذلك الماء النمير الذي يساقط من خلال الرخام قطرة فقطرة • اقف بهذه المغارة فأشاهد الحائط القصير الذي يكنفها ، والاشجار الباسقة التي تكللها ، وطراءة الهواء المنعشة التي تملؤها ، فتفيض جوانب نفسي جلالا ورهبة • وهيهات ان ينقضي يوم دون ان اقضي في هذه المغارة ساعة من نهار • كذلك فتيات المدينة يردنها كل يوم فيملأن جرارهن ، وذلك عمل نافع بريء ما كانت بنات الملوك قديما يخجلن من مزاولته ، ولا يأنفن من مباشرته •

لا اكاد أجلس في هذا المكان حتى تتمثل في خاطري ذكرى العهود الاولى عهود الحياة الأبوية (٢٠)، فيخيل الي اني ارى اولئك الآباء الكهول وهم على الماء يتعارفون ويتصافقون (٢١) ويزوجون بنيهم من بناتهم بدالا (٢٢) ، وتتراءى لعيني ارواح خيرة تطوف حول آبار وعيون •

من لم ينل يا صاح نصيبه من هذا الشعور ، ويدرك قسطه من هذا التأثر ، لم يذق قط حلاوة النسيم الرقيب ، على شفير المنهل العذب ، بعد مسير يوم قائظ تتوقد هواجره ، وتتحرق سمائمه •

١٣ مايو

بعثت الي تسألني هل ترسل كتبي الي ؟ نشدتك الله ألا تفعل ! دعني

---

١٦ ــ الدركة : المنزلة من السلم اذا اعتبرت النزول ، ويقابلها الدرجة للصاعد .

٢٠ ــ يريد العهود الابوية حين كان للأب سلطان واسع على أفراد الاسرة الراشدين منهم والقاصرين •

٢١ ــ يتصافقون : يتبايعون •

٢٢ ــ اي كل ابن يأخذ اخت الابن الآخر •

أستنشق نسيم الراحة . لا أريد ان أقاد ولا ان أهاج ولا ان أحرّض . ان قلبي كالسيل المتدفق الهادر ، فهو أحوج الى ان يهدهد [٢٣] بالغناء حتى يقر ويسكن . وان في شعر هوميروس لبلاغا وغنية . لشد ما وجدت في هذه الاشعار مسكّنا لدمي الفائر ، ومهدئا لقلبي الثائر ! فانك لا ترى في القلوب أشد تغيرا ولا اكثر اضطرابا من قلبي . وهل انا في حاجة الى ان ابوح لك بهذا القول وأنت الذي طالما ابتأست اذ تراني أتحول فجأة من شدة الوصب الى هزة الطرب ، ومن سكون الحشمة الى حدة الهوى ؟ انا أعامل قلبي معاملة الطفل المريض : اسير على حكمه ، وأقف عند ارادته . لا تجهر لاحد بهذا ، فان من الناس من يراه جريمة .

١٥ مايو

سرعان ما عرفني اهل القرية وأحبني كبارها ، وأنس الي صغارها . وقد كنت في بادىء الامر كلما دانيتهم برفق ، او ساءلتهم بلطف ، نفروا مني وأعرضوا عني كأنهم يظنون اني أهزأ بهم وأسخر منهم ! ما كنت أكترث لهذا ولا أعوج [٢٤] به ، الا انه زادني يقينا بما لاحظته غير مرة : لاحظت ان بعض الخاصة يعتزلون الشعب ويترفعون عنه ترفعا ثقيلا ، كأنهم يخشون ان يطأطيء ذلك من عزتهم ، ويغض من قيمتهم ! وآخرون منهم طائشون لا يقتربون من الدهماء [٢٥] الا ليؤلموهم بالنظرات المزرية ، ويخزّهم بالكلمات المندية [٢٦] .

---

٢٣ ــ هدهدت الصبي أمه : حرّكته لينام .
٢٤ ــ لا أعوج : لا أحفل .
٢٥ ــ الدهماء : العامة .
٢٦ ــ المندية : المخجلة .

أعلم علم اليقين ان الناس ليسوا جميعا سواء ، وأن من المحال ان يكونوا كذلك ؛ ولكني ارى ان من يجد نفسه في حاجة الى ان يقف على مرحلة مما يسمونه الشعب ، ليعظم قدره في النفوس وترسخ مهابته في الصدور ، ليس أقل خطأ من ذلك الجبان الذي يختبيء من قرنه خشاة ان يهوي صريعا ليديه امامه •

ذهبت الى الينبوع بالامس فبصرت عنده بفتاة قد وضعت جرتها على الدركة السفلى ، ثم تلفتت يمنة ويسرة لعلها تجد من صواحبها من تعينها على حمل الجرة ؛ فهبطت اليها وقلت لها بعد ان تأملتها : «أتقبلين يا بنيتي العزيزة ان أساعدك على حمل جرتك ؟» فضرّج الخجل وجنتيها وأجابت بلهجة الصاغر [٢٧] المشدوه : «أوه ! عفوا يا مولاي !» فقلت لها: «هلمي فلا بأس من ذلك ولا كلفة» • فأصلحت حويتها واستقلت جرتها ، ثم صعدت السلم ممتنة شاكرة •

١٧ مايو

عرفت الناس آحادا من كل نمط ، ولم أوفق الى اختيار صحابة منهم بعد • ولا ادري اي شيء فيّ يعطف الناس عليّ ويجذبهم الي ، فان كثيرا منهم يعجبون بخصالي ، ويصلون حبالهم بحبالي • وقد أحس من قلبي الاصغاء [٢٨] اليهم بالمودة حتى ليحزنني وأنا أماشيهم ان يقف بنا الطريق فلا نواصل السير جميعا •

اذا سألتَ ما حال الرجال في هذا البلد فاعلم ان الناس هم الناس

---

٢٧ ــ الصاغر : الذليل ، والمشدوه : الدهش المتحير •
٢٨ ــ الاصغاء : الميل •

في كل مكان ، وان بني آدم على غرار (٢٩) واحد • تجد سوادهم ينفق معظم اوقاته في الكدح لحياته ، فاذا بقيت لهم ساعة من فراغ كانت على كواهلهم عبئا لا يألون جهدا في الخلاص منه • يا للانسان ما أنكـــد حظه ! وهم ما عدا ذلك على شيء من الشهامة والكرامة •

يحدث احيانا ان انسى نفسي فأشاطرهم ما بقي للانسان من متع العيش ، كالالتفاف حول مائدة يحفها الاخلاص والوفاء ، والخروج في مركبة الى نزهة خلوية والاجتماع في مرقص يقام لمناسبة داعية ، فأجد بتلك الملاهي روحا (٣٠) ومسرة ما دمت في ذهول عن نفسي ، فلا أذكر ان لي قوى متعطلة اصدأها الاخلاد الى التبطل والاستنامة الى الراحة ، وأصبح سترها عن الناس واجبا مرعيا • أواه ! لشد ما ينقبض لذلك صدري ويلتاع فؤادي ! على ان حظي وحظ امثالي ان نعيش في هذه الحياة مجهولين غير مفهومين •

واويلتاه ! لمَ فجعني الموت ، في صديقة صباي ولماذا عرفتها ؟ لقد كنت اقول لنفسي وهي ترتاد لها حبيبا : «يا حمقاء ! انك تطلبين محالا وتتبعين خيالا» فلما لقيتها وجدت ذلك الحبيب وعرفته ، وشعرت ان بقربي قلبا كريما ونفسا نقية كنت وأنا معها اجدني اطيب عنصرا وأخلص جوهرا من ذي قبل ، لاني كنت كل ما استطيع ان اكون • يا لله ! وهل كانت قوة من قوى نفسي وحسي لا تجد اذ ذاك عملها ؟ ألم اكن أمامها استطيع ان ابسط تلك الحاسة العجيبة التي أستوعب الطبيعة بها وأفهمها ؟ ألم تتساقط (٣١) أعذب الاحاديث الجامعة بين العواطف الرقيقة

---

٢٩ ــ على غرار واحد : على طريقة واحدة ومجرى واحد .
٣٠ ــ روحا : فرحا .
٣١ ــ تتساقط : تتناقل .

والأفكار الدقيقة ؟ تلك الاحاديث المصرّفة [٣٢] المطبوعة بطابع الذكـاء والعبقرية حتى في سفهها ومجونها ؟ أما الان فواحرباه ! ان السنين التي تزيدها عليّ في العمر عجلت بها الى القبر ! فهيهات ان أسلو تلك الفتاة الوقورة الصبورة ! ومحال ان انسى تلك النفس المحتسبة السمحة !

لقيت منذ ايام فتى أصحر [٣٣] القلب وضّاح المحيا يدعى «ن» لا يزال حديث عهد بالجامعة . وهو وان لم يعد نفسه في العلماء يعتقد انه أعلم من غيره . وقد لاحظت مرارا انه يحسن الانتفاع بوقته ، وأنه على حظ من العلم والادب غير قليل .

لم يكد يعلم اني أحسن التصوير وأجيد اليونانية (وهذان شيئان غريبان هنا) حتى سعى الى معرفتي وأخذ ينفض الي جملة علمه ويخرج دفائن صدره : من «باتو» الى «وود» ، ومن «بيلس» الى «ونكلمان» . وأكد لي انه استوعب الجزء الاول من «نظرية الفنون الجميلة» لمولزر ، وأن تحت يده مؤلفا مخطوطا في موضوع الفن القديم «لهين» ، فتركته يعب عبابه دون مراجعة ولا مقاطعة .

كذلك عرفت نائب الامير وحاكم البلد وهو رجل طاهر القلب سري الخلق حر الضمير . وقد يقال ان منظره بين اطفاله التسعة ليملك القلب ويستهوي الخاطر . والناس يهتفون [٣٤] بأبنائه ، ولكنهم يخصون بنته البكر بالثناء والاعجاب . دعاني الى زيارته فلبيت . وسأزوره بكـرة الغد . انه يقطن منزل صيد للامير على فرسخ ونصف من المدينة استأذن المالك ان يلجأ اليه عقب وفاة امرأته فرارا من الاقامة في بيت فجع فيه

---

٣٢ ـ المصرفة : المشتق بعضها من بعض .
٣٣ ـ أصحر القلب : طاهر السريرة مكشوف الضمير .
٣٤ ـ هتف بفلان : مدحه .

بشريكة حياته ومسكن نفسه .

لقيت عدا من ذكرت أنماطا غريبة من الناس كل ما فيهم غير محتمل ، ولاسيما تلك الجمل الجوف التي يزوّرونها (٣٥) بين يديّ تأكيدا لصداقتهم ، وتأييدا لمودتهم !

تلك يا صديقي رسالة قصصية ستعجبك وتطربك . واني أستودعك الله .

٢٢ مايو

يرى بعض الناس ان الحياة حلم . وذلك ما اراه وأسمع صداه في كل مكان . كلما رأيت ان قوى الانسان العاملة العاقلة محصورة في حدود ضيقة ، وان جهدنا الجاهد لا نصرفه الا في قضاء حاجاتنا وامضاء رغباتنا ، وما لهذه الحاجات ولا لتلك الرغبات غاية غير تطويل هذه الحياة الحقيرة ، وكلما تحققت اننا لا نستطيع ان نريح افكارنا ونرضيها بالاطمئنان الى الحق الصراح في مسألة من المسائل ، بل نرفه عنها بتسليم واذعان مصحوبين بأحلام وأوهام ، كالسجين يحصره الظلام والقيد فينقش على جدران سجنه صورا زاهية وأشكالا زاهرة ، كلما خطرت لي هذه الخواطر اقف امامها مشتركا مشدوها (٣٦) لا أحير جوابا ولا أعرف صوابا !

ثم أرجع الى نفسي فأجدني منطويا على عالم آخر اشبه بهذا

---

٣٥ ــ يزوّرونها : يهيئونها ويزينونها .

٣٦ ــ المشترك : من يحدث نفسه كالمهموم الموسوس . والمشدوه من دهش وتحير .

العالم الخارجي ، يقوم على المشاعر المتوقعة المبهمة ، والرغائب المشتبهة الغامضة ، دون الصور البينة والحقائق الواضحة . حينئذ تمر الاشياء امامي خفاقة طافية تكسوها اغطية كثيفة من السحب ، فأواصل السير خلال هذا العالم باسما حالما .

أطبق [٣٧] علماء التربية على ان الاطفال لا يعلمون لما يريدون سببا ، ولكنك اذا قلت لهم ان الرجال كالاطفال يسيرون في هذه الارض خبط عشواء بأقدام زلقة ، وأحلام قلقة ، لا يعرفون لوجودهم وردا ولا صدرا ، ولا يدرون لعلمهم غاية ولا غرضا ، وأنهم كالاطفال يساسون تارة بالحلوى وتارة بالعصا ، أكبروا هذا القول وجعلوه دبر [٣٨] آذانهم ، مع ان الواقع يؤيده ، والحواس تدركه !

أوافقك — لاني أعلم ماذا سيكون ردك — على ان أسعد الناس اولئك الذين هم كالاطفال يذهلون عن الماضي ويغفلون عن المستقبل ولا يفكرون الا في الحاضر . يهدهدون [٣٩] عرائسهم الخشبية ويلبسونهن حللهن مرة وينضونها عنهن اخرى ، ويطوفون حول خزانة الحلوى باجلال وهيبة ، حتى اذا نفحتهم أمهاتهم ما يرغبون التهموه ملء أفواههم ثم صاحوا قائلين : «نريد ايضا» . هؤلاء سعداء بلا ريب . ومثلهم اولئك الذين ينحلون [٤٠] أعمالهم الحقيرة وآمالهم الباطلة العناوين الضخمة والمظاهر الفخمة ، ويقنعون الناس بذلك التمويه والتلبيس انها اعمال جسيمة تكفل للانسان سعادة النفس ورغادة العيش وزينة الحياة . طوبى لمن استطاع ان يكون كذلك ! ولكن الرجل الذي ينظر ساكنا خاشعا

---

٣٧ — اطبقوا : أجمعوا رأيهم .
٣٨ — جعلوه دبر آذانهم أي وراء اسماعهم فلم يحفلوا به .
٣٩ — هدهدت الأم الصبي : حركته لينام .
٤٠ — نحلوها : نسبوا اليها ما ليس لها .

الى عقبى هذه الاشياء ، ويرى باحدى مقلتيه ذلك الحضري المترف يجعل من جنينته الصغيرة جنة كبيرة وهو مبتهج جذل ، ويلحظ بالاخرى ذلك البائس الفقير يمشي دائبا تحت عبء الشقاء ، متساقطا مـن الأين [٤١] والاعياء وهو مستسلم صابر ، وكلاهما يطمح الى ان يرى نور الشمس ولو دقيقة فوق عمره ؛ ذلك الرجل يعيش رخي البال سابحا في عالم قد خلقه من نفسه لنفسه بنفسه . وهو ايضا سعيد لانه رجل . ومهما تكن الحوائل التي تتصداه وتعوقه ، فلا ينفك حافظا في قلبه اعذب الشعور بأنه طليق ، وأنه يستطيع متى شاء ان يخرج من هذا السجن العميق .

٢٦ مايـو

انت تعلم منذ بعيد مذهبي في السكنى اذا طابت لي الاقامة واطمأن بي المنزل : اتنبذ مكانا خليا فأخيم به ، ثم اعيش عيشة قانعة متواضعة . ولقد وجدت هنا محلة صغيرة سحرني جمالها ، وسرني انعزالها .

على نحو فرسخ من المدينة تقوم على احدى الربى الجميلة دسكرة[٤٢] تدعى وَلهيم [٤٣] لا تقع العين على مثلها في جمال الموقع وطيب الموضع . واذا صعدت في الطريق الذاهب اليها اخذت عينك منظر الوادي بنظرة واحدة . في هذه القرية حانوت صغير لامرأة ذات مروءة ونشاط تبيع فيه النبيذ والبيرة والقهوة . وأجمل ما تراه هناك شجرتان من شجـــر

---

٤١ ــ الأين : التعب .
٤٢ ــ الدسكرة : القرية العظيمة .
٤٣ ــ لا يتعب القارىء نفسه في البحث عن الامكنة المسماة هنا ، فقد اضطررنا ان نغير أسماءها ونخفي معالمها . «جوت»

الزيزفون تغطيان بأفنانهما المتهدلة الساحة الصغيرة الواقعة امام الكنيسة، وقد احاطت بهما اكواخ القرويين وأهراء (٤٤) الغلال من كل جانب •

تحت هاتين الشجرتين وجدت ذلك المكان المنعزل الخالي ، فنقلت اليه من الحانوت كرسيا ومنضدة وأقمت به اشرب القهوة على أشعـــار هوميروس •

قادتني المصادفة الى هاتين الشجرتين في عصر يوم جميل ، وكـــان الحي خاوا من اهله ، والفلاحون يعملون في الحقول ، فلم أرَ الا غلاما في عامه الرابع قد أجلس رضيعا في شهره السادس بين ركبتيه ، وضمه الى صدره بذراعيه ، وهو ساكن الحركة مطمئن الجلسة على حــــدّة نظراته وسرعة لفتاته • راقني هذا المنظر القروي ، وسرني هذا المظهـــر الاخوي ، فجلست تلقاءه على محراث وأخذت أرسمه •

اضفت اليه السياج الملاصق ، وباب مخزن من المخازن ، وبعـــض العجلات المحطمة ، كلا على حاله ؛ ثم نظرت بعد ساعة فيما صنعت فاذا بي قد رسمت صورة رائعة دون ان ازيد عليها شيئا من عندي • فوطد ذلك عزمي على ان اقف عند الطبيعة لا أجاوز سيرها ، ولا أستمد غيرها، فهي المنجم الذي لا ينفـــذ ، والمنبع الذي لا ينضب • وهي التي تخلق نوابغ الفن وتلهمهم اسرارها •

ان لقواعد الفن محاسن يعرفها لها كل الناس كما يعرفونها لقوانين المجتمع • فالفنان (٤٥) الذي يأخذ نفسه بتلك القواعد لا يأتي عملا محالا فعله ولا رديئا كله • كذلك الرجل الذي يجري على منهاج الادب ويسير على انظمة المجتمع لا يكون جارا ثقيلا ولا شقيا شريرا • ولكن مهمـــا

---

٤٤ ــ الأهراء : جمع هرى : مخازن الغلال •

٤٥ ــ فنان : كلمة اشتققتها لصاحب الفن •

يثقل فان القواعد تجني على الطبيعة : تفسد عاطفتها الصالحة ، وتبهم عباراتها الواضحة . سترميني بالجور والمبالغة وتقول ، ان القواعد تضع الحدود المناسبة ، وتشذب الغصون الزائدة ، وهلم جرا : ولكنني أقرب الامر اليك بالتشبيه : الفن والحب سبيلهما واحدة وأمرهما متفق . فلو ان شابا فتي القلب تيمه حب غادة فأنفق على حديثها ساعاته ، وقصر عليها ملكاته [٤٦] وممتلكاته ، ليدلها على انه وهبها فؤاده ، وملكها قياده ، ثم جاءه مدني متحذلق [٤٧] وقال له: : «سيدي ! ان الحب توجبه الانسانية ، وتقتضيه الطبيعة البشرية ؛ ولكن اجمل بك ان توفق في الحب بين عقلك وقلبك . قسم زمانك ، فاجعل ساعات العمل نصيبك ، وخص بساعات الفراغ حبيبك . ثم احسب دخلك وخرجك ، فاذا فضل بعد نفقتك شيء فلا أمنعك ان تطرف غادتك ببعض التحف على شرط ان تقصد في ذلك وتقصره على ذكرى مبلادها او يوم عيدها» .

لو ان هذا الشاب القي سمعه الى هذا الناصح وأخذ برأيه لاصبح نابغا خطيرا ، ولاخترته ان يكون لاحد الامراء مديرا ، ولكنه يقتل حبه ان كان عاشقا ويفسد قريحته ان كان فنانا .

قفوا أسائلكم يا أخلائي وصحبي ! ما لسيل القرائح لا يفيض الا قليلا ؟ ولم لا ترونه يندفع فيبهر النفوس الدهشة الحائرة باصطخاب أمواجه وجرجرة أواذيه ؟ أليس ذلك لان سادتنا أولي [٤٨] الاذهان الساكنة الفاترة قد عرسوا [٤٩] بشاطئيه ووقفوا يرصدون له الأهبة ، حتى

---

٤٦ ــ ملكاته : مواهبه .

٤٧ ــ المتحذلق : الذي يدعي اكثر مما عنده .

٤٨ ــ «جوت» من مبتدعي الطريقة الابداعية «رومانتيك» فلعله يعرض في هذا القول برجال الطريقة الاتباعية «كلاسيك» المتشبثين بالقواعد الموضوعية . (المترجم)

٤٩ ــ عرسوا : نزلوا واقاموا .

اذا خشوا منه ان يفيض فيدمر المساكن ويحطم أعواد السوسن ويخرب البساتين ، عاجلوه بالحواجز وعالجوه بالثقوب ليهدئوا ثائرته ويأمنوا غائلته ؟

٢٧ مايو

اراني قد استرسلت في حميا الاستعارة واستغرقت في سورة (٥٠) الخطابة حتى نسيت ان أقص عليك خاتمة أمري مع الطفلين . وذلك اني لبثت ساعتين جالسا على المحراث وقد استولى علي انفعال غريب يعرفه الشاعر والمصور ، وحاولت ان اصفه لك في رسالة الامس فجاء الوصف مهلهلا سقيما . فلما كادت الشمس تؤوب اقبلت الى الطفلين امرأة في رونق الشباب على ذراعها سلة ــ وكان الصبيان لا يزالان على حالهما من السكون والدعة ــ فهتفت بالكبير «فيليب» وأثنت على شهامته ورزانته ، ثم حيتني فرددت التحية ، ونهضت فدنوت منها وسألتها أهي أم هذين الغلامين الجميلين ؟ فقالت : نعم . وناولت الاكبر نصف رغيف وحملت الاصغر بين ذراعيها وقبلته قبلة لا تخرج الا من بين شفتي أم . ثم قالت : «تركت الوليد في رعاية فيليب وذهبت مع ولدي البكر الى المدينة نبتاع خبزا وسكرا ومقلاة من الخزف ــ وكان كل ذلك في السلة رأيته حين سقط غطاؤها ــ وسأصنع الليلة حساء لذيذا ليحيي (اسم الوليد) ، اما المقلاة فهي بدل من التي كسرها بالامس ولدي البكر الطائش عقب شجار بينه وبين فيليب المسكين على قديح (٥١)

---

٥٠ ــ السورة : الحمية .
٥١ ــ القديح : ما يبقى في أسفل القدر من الطبيخ فيغرف بجهد .

المرق» • فسألتها اين غادرت ولدها البكر ؟ فلم تكد تقول انه كـــان يركض وراء الأوز في المرج حتى رأيته مقبلا يعدو وفي يده قضيب من شجر البندق اتى به الى اخيه الاصغر •

مضيت في الحديث مع هذه المرأة فعلمت انها بنت معلم القرية ، وأن زوجها سافر الى سويسرا ليحصل على نصيبه من تركة ابن عم له قالت : «ان بعض الناس حاولوا ان يخرجوه من الميراث وقد راسلهم فما اجابوه، فآثر ان يشخص اليهم بنفسه • وقد انقطع علم ما بيني وبينه • فعسى ان يكون خيرا ما حبس عني رسائله !» •

تركت هذه الفتاة البرة على أسف من فراقها بعد ان ناولت كلا من بنيها «كرتزر» (٥٢) وأعطيتها نصيب الوليد لتشتري له خبزة متى ذهبت الى المدينة •

لا اكذبك يا صديقي ، فلقد اكون وعقلي مسبوه وفكـــري مشرد ونفسي مبلبلة ، فما ينفس عني غير أمثال هذه المرأة التي تضطرب فـــي دائرة حياتها الضيقة هادئة القلب سعيدة النفس ، وتعيش في يومها غير عابئة بغدها ، وترى اوراق الشجر تتساقط وتتناثر فلا تفهم من ذلك غير دنو الشتاء !

ومنذ ذلك اليوم كثر اختلافي الى هذا المكان فاسترسل الاطفـــال بأنسهم الي ، ورحت اعطيهم من السكر عندما اشرب القهوة وأقاسمهم في المساء الخبز والقشدة ، فاذا جاء يوم الاحد اخذ كل منهم (كرتزره) ، واذا لم اكن وقت الصلاة هناك قام بذلك التوزيع ربة الحانون علـــى أمر مني •

أحبب الى نفسي بذلك الأنس والعطف مع تلك القلوب الطاهـــرة

---

٥٢ ــ كرتزر : عملة المانية تساوي ملليمين تقريبا .

الكريمة ! وما أسعدني بما اسمع من أقاصيصهم المختلفة وبما ارى من غيرتهم المحبوبة التي تتجلى خلال أهوائهم الطفلية وسذاجتهم الفطرية متى رأوا صغار القرية يجتمعون حولي !

ولشد ما أعاني في تهدئة بال الأم كلما خشيت ان يضايق اطفالهـا السيد !

٣٠ مايـو

ما قلته لك آنفا عن التصوير يقال ولا شك عن الشعر ايضا ، فـــان موضوعهما تعرّف الجمال والقدرة على تعريفه . ذلك وهو الحق لفظ قليل فيه معنى كثير .

شاهدت اليوم منظرا من رواية الحياة لو نقل عن حاله ، ومثل على جماله ، لكان اجمل منظر غزلي في العالم . ولكن ما نفع كلمات الشعر والغزل والمنظر في هذا الموضع ؟ أمن الضروري ان نعمد الى جمـــال الصناعة وزخرف القول كلما اردنا ان نشرح منظرا من مناظر الطبيعة ؟

اذا رجوت ان تعلم بعد هذه المقدمة شيئا عظيما فخما فقد خدعتك نفسك وكذبك حدسك . فانه لم يملك عليّ نفسي ، ولم يثر كامن حسي، غير فلاح قروي ساذج ! سأقص عليك الامر على عادتي بالقصور والعي، وسترميني انت على عادتك بالاسهاب والغلو . انها ولهم ايضا ، ومـــا برحت ولهم مصدر ذلك الجمال ومنبع هذا السحر !

تفيأت جماعة ظلال الزيزفون ليشربوا القهوة فثقل خلاطهم علـــى طبعي ، فتذرعت بحيلة واتنبذت عنهم ناحية ، فرأيت فتى قرويا قد خرج من احد البيوت المجاورة الى المحراث الذي كنت أرسم فوقه منذ قليل وأخذ يصلح شيئا فيه .

راقتني صباحة وجهه فدانيته وبدأته الحديث مستفهما عن حالـــه

وشأنه . فلم يكن غير قليل حتى تم التعارف وزالت الكلفة واستفاض الحديث ، كدأبي من اهل هذه الطبقة الكريمة . حدثني انه في خدمة ارملة حدبة (٥٣) عليه رفيقة به . ثم افاض في الحديث عنها معلنا مفاخرها معددا مآثرها ، حتى ما شككت في اخلاصه لها قلبا وقالبا . وكان من قوله انها ليست شابة ، وان ما لاقته في زواجها الأول من نكد العيش ومضض الخلاف صرفها عن الزواج ثانية . ولقد تبينت من خلال حديثه انه يراها بارعة الجمال فتانة المحاسن ، وأنه يود لو تختاره زوجا ليبسط من جبينها غضون الشقاء الأول .

ما أحوجني الى انْ أعيد عليك ما قاله كلمة كلمة لتشعر بولائه ووفائه! وما أفقرني الى مواهب الشاعر الملهم لأصور لك صورة حية من اشارة حركاته ، ورخامة نغماته ، وتوقد نظراته ! هيهات ! ليس في مقدور اللغة ان تعبر عن هذا الحنان الذي تنم عليه سحنته وهيئته . ومهما أحاول فلن آتي الا بكلام غليظ على الطبع ، ثقيل على السمع . وأشد ما أثر في خوفه ان أسيء الظن بتصرف هذه المرأة او أشك في علاقته بها . الله ما اجمل ان تسمعه يتكلم عن ملامح وجهها ، ومقاطع جسمها ، ذلك الجسم الذي تبله (٥٤) وذلله وان فقد مع الزمن وفرة شبابه وبضاضة اهابه (٥٥) ! لا استطيع ان أعيد ذلك الا على نفسي ، ولا أردده الا في أعماق صدري ، فاني لم أر قبل اليوم هوى محرقا وشوقا مبرحا يحدوهما العفاف ويكتنهما الطهر . بل ما كنت أتصور اجتماع ذلك حتى في الحلم !

---

٥٣ ـ حدبة : مشفقة .

٥٤ ـ تبله : ذهب بعقله .

٥٥ ـ الاهاب : الجلد .

لا تلمني اذا قلت لك اني ما ذكرت هذه العاطفة الخالصة البريئة الا شعرت بنار تتسعر في أحشائي ، وتتمشى في اعضائي . ان صورة هذا الحنان الصادق لا تزايل بصري ولا تترك أثري . وكأني اصبحت فريسة لمثل تلك النار الكامنة ، فأنا أذوي وأموت . سأحاول ما استطعت زيارة هذه المرأة . ولكن لا . ان خيرا من ذلك ان أجتنب زيارتها وألا اراها الا بعين حبيبها . فلعلها تكون في ناظري أقل منها في خاطري ! وما أربي [٥٦] ان أعمد الى صورة جميلة تنازعني اليها نفسي فأعبث بها وأشوهها ؟

١٦ يونيو

تسألني ما بالي لا اكتب اليك ؟ وقد كنت تقدر وأنت في عداد العلماء ان تحزر اني سعيد ، واني ... بالاختصار عرفت فتاة اخذت بمجامع قلبي ، واستأثرت بخالص حبي .

سأكلف نفسي خطة شديدة اذا التزمت ان أقص عليك امر اتصالي بهذه الفتاة على اطراد وتساوق .

انا مثلوج الصدر سعيد ، الا انني مؤرخ غير مجيد . انها ملاك كريم ... أف ! ما غناء [٥٧] هذا القول ؟ كل يقول ذلك عن حبيبه . انه لا سبيل الى ان اصف لك مقدار جمالها ، ولا ان اذكر سبب كمالها . وقصاراي ان اقول لك انها ملكت مشاعري وذهبت بفؤادي كل مذهب.

قل ما شئت فيها من سذاجة في رجاحة عقل ، وشفقة في قوة حزم ،

---

٥٦ ـ أربي : حاجتي .
٥٧ ـ ما غناء : نفع .

نفس صافية فاضلة ، في عيشة راضية عاملة .

كل ما اقوله لك عنها ليس الا هراء مملا او ايجازا مخلا ، لا يؤدي الى ذهنك معنى من ذاتيتها ولا هويتها . في مرة اخرى .. ولكن لا . مالي وللمرة الاخرى ؟ سأقص عليك حديثها الان ، فانه ان لم يكن اليوم فلن يكون ابدا . ذلك لاني ـ ولا أكذبك ـ منذ بدأت الكتابة هممت ثلاث مرات ان اضع القلم وأسرج الجواد لاذهب اليها . مع انني آليت لألزمن بيتي سحابة هذا اليوم . وهأنذا أطلع من النافذة كل لحظة لأرى الشمس على أي ارتفاع في الافق ...!

لم استطع البر بيميني ، فقد كانت زيارتها امرا لا محيد عنه ! وهأنذا بعد العودة اكتب اليك .

أي شيء أبهج للنفس وأملك للوجدان من رؤيتها شمسا لدارة (٥٨) اخوتها الثمانية من بنات وبنين يتألق في جباههم ضوء البشر ، وتقرأ في وجوههم آية اللطف ؟ اذا مضيت في الحكاية على هذا النحو خرجت منها ونهايتها في ذهنك كبدايتها . ولكن لا بأس ! سألزم نفسي ان أجيئك بالحديث على سرده .

كتبت اليك منذ زمن اني تعرفت الى الحاكم «س» ، وانه دعاني الى زيارته في صومعته ، او بالحري في مملكته . فشغلتني الشواغل عن هذه الزيارة . وما كنت لأفكر فيها لولا ان المصادفة كشفت لي عن الكنز المدفون في هذا المكان المنعزل . وذلك ان شبابنا اقاموا مرقصا في الريف فطابت نفسي الى حضوره ، ورضيت ان اكون مراقصا لفتاة من فتيات المدينة ظريفة الطبع كريمة الخلق ، الا انها غير جذابة ولا خلابة . وكان اتفاقنا على ان أحتال مركبة تقلني انا ومراقصتي وابنة عمها الى

---

٥٨ ـ الدارة للشمس كالهالة للقمر .

الحفل ؛ ثم نعرج في طريقنا على الآنسة شرلوت س. فنحملها معنا .

انطلقت بنا المركبة تؤم بيت الصيد حيث يسكن الحاكم . وبينما هي تسير في غابة مظلمة قالت لي رفيقتي : انك ستتعرف الان الى فتاة فتانة. وقالت ابنة عمها : لا تمن نفسك بها ، ولا تطع قلبك في حبها . فقلت لها : ولماذا ؟ قالت : انها مخطوبة لفتى كريم اضطره موت ابيه الى ان يسافر فينظم أموره ويلتمس له وظيفة سامية . فسمعت هذه الاشيـــاء وعلمتها دون ان أحفل بها او أكترث لها . ثم واصلنا المسير حتى وقفت العربة على باب الفناء . وقد كادت الشمس تتوارى خلف الجبل ، وكان الحر يقطع الانفاس ويزهق النفوس ، والسحاب المتراكـــم المربد (٥٩) يطرز حواشي الأفق ؛ فهفا (٦٠) قلب السيدتين فزعا من دنو العاصفة . فادعيت علم الظواهر الجوية لأحل عن قلبيهما عقدة الخوف . ولا أكذب الله فقد تنازعتني الشكوك وقام في نفسي ان لهونـــا سيقصر ، وأن صفونا سيكدر .

نزلنا من المركبة وجاءت خادمة الى الباب ترجو منا أن ننتظر الآنسة شرلوت هنيهة فانها لا تلبث ان تجيء . أجزت (*) الفناء وصعـــدت السلم الخارجي ووضعت قدمي على وصيد (٦١) الباب فاذا منظر ساحر لم يقع طرفي على أتم منه جلالا وروعة ! رأيت في الدهليز ستة اطفـــال تتراوح أعمارهم من سنتين الى احدى عشرة وقد اسرعوا الى الغرفة الاولى وتجمعوا حول فتاة لطيفة التكوين مربوعة القامة عليها ثوب ساذج أبيض

---

٥٩ ـ المربد : الاسود المنقط بحمرة .

٦٠ ـ هفا القلب : أسرع خفقاته .

(*) أجزته : اجتزته .

٦١ ـ وصيد الباب : عتبته .



شرلوت توزع الخبز على اخوتها «رسم كلباخ»

تجمله عقد وردية على ردنيه (٦٢) ومنطقته . وكان في يدها رغيف أسمر تقطعه دوائر لكل طفل قطعة تناسب سنه وقابليته ، ثم تعطيه اياها بوجه منطلق وصدر منشرح ، فيأخذها بيده الصغيرة وقد مدها طويلا قبل ان يقطع الخبز ــ ويصيح بملء فمه : «شكرا شكرا !» ثم انصرفوا فرحين بما اوتوا ، بعضهم يطفر (٦٣) فرحا ، وبعضهم يمشي سجحا (٦٤) وكلهم متجهون الى باب الفناء ليروا الاجانب ، ولينظروا المركبة التي ستنقـــل عزيزتهم شرلوت .

اقبلت الفتاة ، وكان اول ما قالت : عفوا يا سيدي عن تحميلك مؤونة النزول ، وتكليف السيدتين مشقة الانتظار ، فقد انساني هندمة لباسي وبعض اوامر منزلية تقتضيها غيبتي ان أعصّر (٦٥) الاطفال ، وهم يأبون الا ان يتناولوا عصورهم من يدي .

فحييتها تحية عادية لا روح فيها ولا معنى . فان نفسي بأسرها كانت مأخوذة بسحر محياها ورخامة صوتها وجمال هيئتها . ولم اكد اخرج من دهشتي وأصحو من سكرتي حتى رأيتها ذاهبة الى غرفتها لتأتي بقفازها ومروحتها . ورأيت الاطفال على بعد ينظرون الي مـــن طرف خفي ، فدنوت من اصغرهم سنا وأبلجهم غرة فنكص على عقبيه ، وكانت اخته اذ ذاك خارجة من المنزل فقالت له : لويس ! مد يدك الى ابن عمك . فمد الصغير يده الي فلم تمنعني وساخة وجهه وقذارة انفه من ان أقبله بقلبي وشفتي . ثم قلت لشرلوت وقد مددت يدي اليها : ابن عمه ؟ أتحسبينني

---

٦٢ ــ مفرده ردن وهو الكم .
٦٣ ــ يطفر : يثب .
٦٤ ــ سجحا : متئدا مترفقا .
٦٥ ــ نستسمح رجال اللغة في وضع هذه الكلمة للوجبة الخفيفة التي تؤكل وقت العصر .

اهلا لان أعد من اقربائك ؟ فقالت وقد افتر ثغرها عن ابتسامة خبيثة : ان لنا كثيرا من ابناء العم فرقتهم عدواء الدار (٦٦) ، ومن الصعب علي ان أظنك شرا من هؤلاء جميعا ! .

ولما همت بالخروج أوصت أختها صوفيا وهي طريدتها (٦٧) في العمر ان تكلأ (٦٨) اخوتها وتقرأ على ابيها السلام لدى عودته من نزهته. ثم أمرت الاطفال ان يلقوا الى اختهم بالطاعة فينقادوا لها ويحلوها منهم محلها . فكلهم صدع بالامر الا بنية شقراء في السادسة من عمرها قالت لشرلوت بلهجة المتعاظم : «انها مع ذلك ستكون سواك ، وان حبنا لك لأشد» .

خرجت بها الى المركبة فاذا أخواها الأكبران قد تسلقاها ، فرجوت من شرلوت ان تسمح لهما ان يصحبانا حتى مدخل الغابة فقبلت بعد ان وعداها الوقار والسكون . ولم يكن الا ريثما اخذنا مجالسنا من المركبة وتبادل السيدات جمل المجاملة ، ولاحظن بعض الشيء على مناديلهن وقبعاتهن ، وتناولن بالنقد جميع المدعوات في الحفل حتى وقفت شرلوت الحوذي وأنزلت أخويها . فرجوا منها ان تعطيهما يدها ليقبلاها ، فقبلها الاول قبلة الشاب الحنون الرشيد ، وقبلها الآخر قبلة الصبي الأهوج الغرير ، وحملتهما عبارات اللطف والحنان الى من تخلف في البيت من اخوتها . ثم استأنفنا المسير وأخذنا بأطراف الاحاديث ، فقالت ابنة العم لشرلوت : «هل قرأت الكتاب الذي بعثت به اليك ؟ فقالت : كلا . انه كسابقه لا يروقني ، واذا شئت رددته اليك» فسألتها ما شأن هذين

---

٦٦ — عدواء الدار : بعدها .
٦٧ — طريدتها : المولودة بعدها .
٦٨ — تكلأ : ترعى .

الكتابين ؟ فأدهشني جوابها انهما من تأليف [٦٩] ... ووجدت في كل ما قالت غرابة وشذوذا .

كنت ألمح في كل كلمة من كلماتها معنى طريفا من معاني السحر ، وفي كل سرار من اسارير وجهها شعاعا جديدا من أشعة الذكاء . وكان البشر يتهلل في غرتها كلما علمت ان كلامها لم يند عني منه حرف . قالت : كنت وأنا صغيرة لا يلذ لي غير القصص . والله يعلم كم كنت أسر حينما أجلس وحدي يوم الاحد فأشارك «مس جاني» وأمثالها في النعمى والبؤسى . لا أنكر ان لهذا الضرب من الكتب لذة وجمالا ، ولكني أوثر ان يكون ما أطالعه مفيدا رشيدا ما دمت لا اجد للقراءة من الفراغ الا يسيرا . يعجبني المؤلف الذي اجد فيه عالمي الذي ألفته ، على شرط ان يشعرني كتابه بما في حياتي العادية الخاصة من تأثير واخلاص وصداقة ، ويحملني على ان ارى فيها اسباب السعادة ومنبع الغبطة دون ان يرفعها خياله الى مستوى الفردوس .

حاولت ان اخفي ما أثارته في قلبي تلك الكلمات الاخيرة ، ولكنني لم أقو على كتمه طويلا ، فانني حين سمعتها تتكلـــــم عرضا عن «نائب وكفبيلد» تأليف [٧٠] .. بلسان صادق وفكر صائب لم أتمالك ان بحت لها بما في نفسي .

وجهت شرلوت الحديث الى السيدتين بعد ان استأثرنا به حينا وقد

---

٦٩ ـــ سترنا مضطرين في هذا الموضع اسماء الأعلام حتى لا يتألم لهذا القول احد . على ان الواجب الا يعبأ مؤلف بحكم فتاة واحدة ولا برأي فتى طائش .

٧٠ ـــ كذلك اضطررنا هنا ان نحذف اسماء كثير من الكتاب والمؤلفين في هذا البلد . فأما الذين نالوا اعجاب شرلوت وثناءها فسيعلمهم القارىء بالحدس والتخمين ، وأما الآخرون فلا يعني احدا منهم احد . «جوت»

لبثتا اثناء المناظرة صامتتين ، عيونهما شاخصة وثغراهما مفغوران . ولطالما نظرت ابنة العم الي نظرة الهازىء الساخر فلم أشغل بذلك فكري . ترامى بنا الحديث الى لذة الرقص فقالت شرلوت : اذا كان الرقص نقيصة فاشهد الله اني له محبة وفيه راغبة . واذا نزت في الرأس نزوة الهم لا يسليها الا ان أعمد الى بياني (٧١) المصدوع فأعزف عليه لحن «الكنتردنس» .

بينما كانت تتكلم كنت أنعم بالنظر الى عينيها الدعجاوين ، وأشعر ان نفسي تترامى على شفتيها القرمزيتين وخدها الأسيل النضر . وأعجب الاشياء اني كنت ثملا بسلافة (٧٢) حديثها ، معجبا بنبالة معانيها ، دون ان أسمع ألفاظها التي تؤديها . تستطيع ان تتصور ذلك انت لأنك تعرفني . وجملة القول اننا بلغنا منزل الرقص ونزلت من المركبة كأني صحوت من حلم . وقد كنت تائها في عالم الخيال غريقا في بحار الفكر فلم افطن الى نغمات الموسيقى وهي خارجة الى أسماعنا من قاعة متلألئة الاضواء ، بديعة الرونق والبهاء !

جاء يستقبلنا لدى الباب الاكبر فتيان يدي احدهما أدران وأما الآخر فلا أذكره ، وكانا مراقصي ابنة العم وشرلوت ، فأخذا بذراعيهما وصعدت خلفهما بمراقصتي .

ثم اخذنا في الرقص ، فرقصنا بادىء ذي بدء رقصة «المينويت» مرارا ، ودعوت السيدات واحدة فواحدة فما نقض (٧٣) مرة صبري غير تلكؤ القبيحات الكالحات في مد أيديهن الي حتى نفرغ من هذه الرقصة .

---

٧١ ــ فضلنا ان نبقي لفظة البيانو ونعرّفه بحذف الواو على أن نستعمل فيه «المضراب» او نضع له كلمة جديدة .

٧٢ ــ السلافة : الخمر .

٧٣ ــ نقض مرة صبري : قوته .

اخذت شرلوت ومراقصها يرقصان رقصة انجليزية وليس يدري الا الله مقدار سروري حينما جاءت نوبتنا فدخلت في الرقص معها !

يجب ان تراها وهي راقصة : انها تقبل بقلبها ونفسها على الرقص ، وتترك جسمها يموج ويميد في انسجام وانتظام ، وترى حركاتها حرة طليقة ، ولفتاتها سريعة رشيقة ، فلا تشك في ان الرقص خلق لها فلا تفكر الا فيه ولا تشعر الا به ، وان كل شيء في هذه اللحظة قد فني في خاطرها وناظرها . دعوتها للرقصة الثانية فأبت الا الثالثة ، وصارحتني بكلمات هن أندى على الافئدة من زلال الماء ، قالت : «اني احب الرقصة الالمانية ، وقد جرت عادة قومنا ألا ترقصها السيدة الا مع مراقصها ، وقد علمت ان مراقصي لا يحسنها ، وسيشكر صنيعي اذا اعفيته منها . كذلك حال مراقصتك لا تجيدها ولا تريدها . اما انت فقد راقبتك حين رقصت الانجليزية فوجدتك رشيق الحركة ماهر اللفتة . فاذهب ان رأيت الى مراقصي فاطلب اذنه ، وسأذهب الى مراقصتك فاستنزلها عنك» .

قبلت في مثل ارتداد الطرف . وقد كان مفهوما ان يلازم صاحبها صاحبتي اثناء رقصنا فيجالسها ويؤانسها .

بدىء الرقص فمهدنا له بحركات الأذرع المختلفة ، وشاهدت من لباقتها ورشاقتها ما ملأ القلب دهشة وعجبا . فلما تغير اللحن اخذ بعضنا يدور حول بعض دوران القمر حول الارض ، فنجم في اول الرقص عن ندرة الماهرين في الراقصين اضطراب وفوضى ، فقابلنا ذلك بالحكمة والحزم ، وتربصنا [٧٤] بالقوم حتى انكسرت سورتهم [٧٥] وقرت فورتهم ، وخرج جمهور العاجزين عن الحلقة فلم يبق غيرنا وغير زوج

---

٧٤ ــ تربصنا : انتظرنا .

٧٥ ــ سورتهم : حدتهم .

آخر هو أدران ومراقصته •

لم ألكْ في حياتي أنشط جسما ولا أخف حركة مني اليوم ، حتى ما كنت أحسبني انسانا ! آخذ بين ذراعي اجمل مخلوقة في الناس ، وأدور بها في مثل لمح البرق ، وأرى كل شيء مما يحيـــــط بنا يزول ويفنى ! وأشعر ••• اقول لك بصراحة يا وليم اني أوثر ان اموت على ان ترقص الفتاة التي اهواها وأرعاها هذه الرقصة مع غيري •

رقصنا رقصات خفيفة ونحن ماشيان في القاعة لنرفه عن نفوسنا • ثم عدنا فجلست ، وذهبت انا الى برتقالتين كنت ادخرتهما وليس فـــي المقصف غيرهما فقطعتهما أرباعا ثم ناولتها اياهما فزاد ذلك في سرورها غير اني كنت أحس خنجرا يخترق فؤادي كلما رأيتها مضطرة الـى ان تعطي بعض الحمقى من جاراتها قطعة منهما •

وفي الرقصة الانجليزية الثالثة كنا ثاني زوج ، فمضينا في أثـــر الراقصين نرسم خطوطا مختلفة ، وجسمي معلق بذراعيها وقلبي مفتون بعينيها الفائضتين بالبشر الخالص والعفاف المحض ، حتى حاذينا امـرأة نصفا تستهوي الابصار ملاحة وحسنا فنظرت الي شرلوت باسمة وأشارت اليها مهددة ، ولفظت مرتين اسم ألبير بهيئة ذات معنى وهي مارة بنا على عجل • فقلت لشرلوت : هل أنت مخبرتي من ألبير هذا اذا لم يكن في الاخبار عنه ما تكرهين ؟ فهمت بالجواب لولا ان انفصلنا مجبرين لننتظم في السلسلة الكبيرة • ولما تقابلنا وجدتها ساهمة مفكرة ، فأخذت بيدي وخرجنا نستروح النسيم ثم قالت : «لماذا أكتم الامر عنك ؟ ان ألبير فتى ظريف قد وعدوه ان اكون له خطيبة» •

لم يكن هذا الخبر جديدا على سمعي ، فان المرأتين حدثتاني به في الطريق ، ولكنه الان وقع مني موقع الخبر الجديد ، لاني ما فكرت حين سمعته انه يتصل بتلك التي اصبحت في وقت قصير أحب الناس الـــي

وأعزهم علي • لا أطيل عليك فقد ذاب قلبي كما يذوب الثلج في الحر، ودار رأسي حتى كدت أخر الى الارض ، فأخللت نظام الرقص وهوشت ترتيب الصف ، وكاد الامر يسوء لولا ان شرلوت لحضور ذهنها وذكاء فهمها جذبتني جذبا فعاد النظام كما كان بسرعة •

اخذ البرق يشتد وميضه ويتتابع قبل نهاية هذه الرقصة ، وقد رأينا سناه (٧٦) منذ طويل يلمع في سواد الافق فما كنت أشك في انه بـرق خلب (٧٧) • وزاد قصف الرعد حتـــى حجب عنا صوت الموسيقى • فاضطربت الحواس ورهبت القلوب وخرج ثلاث نسوة من الصف هاربات وتبعهن مراقصوهن • ولم يك غير قليل حتى عمت الفوضى وكـــف العازفون •

من طبيعة الانسان اذا بغته حزن او خوف في خلال مسرته ان يكون تأثيره فيه أشد منه في كل وقت • ذلك لشدة شعوره بالضد ، او لأن مشاعره وهي هائجة ثائرة تكون اقوى تأثرا وأشد انفعالا •

لهذين السببين اعزو ذلك التقطيب الغريب الذي بدا فجأة على أوجه كثير من اولئك النسوة •

جلست أعقلهن في احدى زوايا القاعة وأدارت ظهرها الى النافــذة وأسدلت على أذنيها حجابا • وجاءت اخرى فجثت بين يديها وخبأت رأسها بين ركبتيها • وأقبلت ثالثة فدخلت بين اختيها وقبلتهما ثم انهلت دموعها انهلال القطر (٧٨) •

بلغ الرعب بالسيدات ان اراد بعضهن العودة الى ديارهن ، وانخلعت

---

٧٦ ــ سنا البرق : ضوءه .
٧٧ ــ البرق الخلب: المطمع المخلف، وأصله السحاب الذي لا مطر فيه.
٧٨ ــ القطر : المطر .

قلوب الأخريات فما استطعن ان يذدن (٧٩) عن انفسهن جرأة الشبـاب وعدوان الصبا حين أقبل بعض الفتية يقطفون من شفاه اولئك الحسان المروعات تلك الدعوات المرفوعات الى الله !

اما الرجال فقد نزل بعضهم يدخنون أعوادهم (٨٠) في أمن ودعة . وقبل الباقون دعوة المضيفة الى غرفة ذات سدول وستائر . وما كدنا ندخل هذه الغرفة حتى اخذت شرلوت تصف الكراسي على شكل دائرة. وأجلست الجماعة كلا في مكانه . ثم اقترحت عليهم لعبـة يلعبونها ، فرأيت كثيرا من الناس قد نفخوا أشداقهم وعضوا شفاههم وجلسـوا جلسة الآمل رجاء ان ينالهم بعض الفائدة مـن رهان مكتسب . قالت شرلوت : انا سنلعب لعبة العد . تعدون من واحد الى ألف ، فيلفظ كل منكم العدد الذي يقع عليه بسرعة . وسأدور حول الحلقة من اليمين الى الشمال ، فمن وجدته منكم تلكأ او اخطأ لطمته مرة . قالت ذلك وابتدأ اللعب فقال الاول : واحد . والثاني : اثنان . والثالث: ثلاثة ، وهلم جرا وهي تدور حولنا مرفوعة اليد . فكان من ذلك منظر ينفس عن المكروب ويجلو صدأ القلوب ، ثم اخذت تضاعف خطاها رويدا حتى كبا احـد العادين فلطمته لطمة . وضحك جاره فأذهله الضحك عن عدده فلطمته اخرى . كل ذلك وهي تسرع في الخطو فنسرع في العد . وقد نالني منها لطمتان كانتا كما لاحظت أشد من لطمات الآخرين ، فطبت بذلـك نفسا ونعمت عينا . ثم انفجر القوم جميعا بالضحك فوقفت اللعبة دون تمام الالف . وخرج من الحلقة بعض الاصدقاء الاخصاء فجلسوا شراذم على حدة . وتبعت شرلوت الى قاعة الرقص وكانت العاصفة قد هدأت.

---

٧٩ ــ يذدن : يدفعن .
٨٠ ــ جمع عود والمراد به الشيك او الغليون .

فقالت لي ونحن سائران : ان اللطمات قد أنست القوم هول العاصفة . فلم اجد ما اجيبها به ، فمضت في الحديث قائلة : انا من أشد النـــاس خوفا وجزعا ، ولكنني اصطنعت الشجاعة والثبات لأطمئن قلـــوب الآخرين فشجعت . اقتربنا من النافذة وكان الرعد لا يزال يقصف علــى بعد ، والمطر ينهمر على الأرض فيسيل حلو الخرير في الحقول والاودية، والهواء الفاتر تهب نفحاته عابقة بالعرف الزكي والأرج المنعش ، فوقفت شرلوت متكئة على مرفقها وسرحت طرفها في الحقول ثم تطلعت الـــى السماء وردت بصرها الي وهو مغرورق بالدمع ، ووضعت يدها فــوق يدي وقالت : واكلوبستك [81] !

فسرعان ما جرى على خاطري ذكر تلك القصيدة البليغة التــــي قصدتها . وهيهات ان أصف لك ما أحدثته في نفسي تلك الكلمة مــن شدة التأثر وقوة الانفعال . بهظني الأمر فلم استطع حمل نفسي فملت على يدها فغسلتها بدمعي ومسحتها بلثمي . وما كان اروح ذلك لقلبي ! ثم اخذت عيناي تبحثان ثانية عن عينيها .

ايها الشاعر الكريم والعبقري النابغ ! ما كان أجدرك ان ترى تمجيدك وتعظيمك في هذه النظرات ! عسى ألا اسمع بعد الان اسمك الا مقرونا بالتنزيه والتجلة !

١٩ يونيو

لا ادري اين وقف بنا الحديث آخر مرة . وكل ما اعلمه ان الساعة

---

٨١ ــ كلوبستك شاعر الماني يؤثره الالمان ١٧٢٤ ــ ١٨٠٣ . ذكرتــه شرلوت بالاكبار والاعجاب حين ذكرها جمال المنظر الذي تشاهده باحدى قصائده الرائعة في وصف منظر يشبهه .

كانت الثانية بعد منتصف الليل حين أويت الى مخدعي • ولعلني لو كنت حدثتك بدل ان كتبت اليك لأسهرت جفنك حتى الصباح • لم أقص عليك ما جرى في العودة من المرقص ولا اظن الوقت يتسع اليوم لتفصيله • تنفس الصبح ونحن في الطريق فكان الشروق زاهيا صافيا ، والطـــل يساقط من الشجر قطرة فقطرة ، والروض يسيل عليه رضاب النـــدى فيخضل ويرطب ، وكل ما في الطبيعة حولنا ينتعش ويحيا الا رفيقتينا فقد بدت في أجفانهما فترة الكرى • فقالت لي حينئذ شرلوت : اذا شئت ان تأخذ حظك من الرقاد فافعل ، فاني لا احب ان تتعب لأجلي • فقلت لها وقد حدقت في عينيها : هيهات ان يخالط النوم جفني ما دمت ارى هذه العين ساهرة ! ولبثنا كذلك يقظانين حتى بلغنا بيتها • فجاءت الخادم وفتحت الباب رويدا ، فسألتها شرلوت عن ابيها واخوتها ، فقالت : انهم على خير حال وأحسنه ، ولا يزالون في سكرة النوم فــوق الأسرّة • استأذنتها في الانصراف بعد ان رجوت منها ان تسمح لي بزورتها فـــي اليوم نفسه ، فقبلت •

زرتها • وأقسم اني منذ ذلك الحين ارى الشمس تشرق وتغرب ، والقمر يبزغ ويأفل ، والكواكب تطلع وتغيب ، دون ان اعرف لها تقلبا ولا مدارا ، ولا أعلم الوقت ان كان ليلا ام نهارا • فالعالم بأسره زال وانمحى من حولي فلا اجد له عينا ولا اثرا •

٢١ يونيو

مثل الايام التي تمضي علي هنا كمثل الايام السعيدة التي ادخرها الله لعباده المصطفين • فمهما يصبني من مخبوء القدر فلن اقول اني لم أذق حلاوة العيشة الخالصة وسعادة الحياة المطمئنة •

لقد اتخذت ملجأي الذي تعرفه في ولهم مسكنا ومستقرا • ذلك لانه

يبعد مقدار نصف ساعة عن بيت شرلوت ، ولاني أتمتع فيه بنفسي ، وأتذوق من السعادة ما قدر الله لبشر ان يتذوقه . من كان يدربني ان ولهم التي اخترتها لرياضتي ادنى الى الجنة وأقرب الى السماء ؟ كم مرة رأيت في جولاتي البعيدة هذا البيت بيت الصيد الذي تجمعت فيه اليوم كل رغائبي وجميع أمانيّ ، تارة من فوق الجبل ، وتارة من جدَد (٨٢) الارض المنبسط وراء النهر !

عزيزي وليم ! فكرت طويلا في امر الانسان فوجدته يتطلع الى تقطيع وثاقه (٨٣) وتوسيع نطاقه ، ويتشوق الى كشف اشياء جديدة واختراق آفاق بعيدة ، ثم هو مع ذلك تدفعه قوة باطنة الى ان يكتفي بوجود محدود ، ويقتفي آثار العادة غير ملتفت الى ما يوجد عن يمينه او عن شماله .

لدى حلولي هذا المكان كنت كلما أجلت النظر في هذا الوادي الجميل من اعلى الربوة أشعر ان نفسي نزاعة الى كل جهة من جهاته : ارى الغابة الصغيرة هناك فأشتهي ان اتفيأ ظلها الوارف ، وألمح قمة الجبل فأتمنى لو علوتها فأكتشف مساحة هذه البلاد ، وأبصر الهضاب المتسلسلة والوديان المنعزلة فأود لو أضل في شعابها وأجول في رباها ؛ فاذا ما ذهبت اليها طائرا عدت أدراجي غير واجد ما كنت ارجوه وآمله .

هكذا أمر الغد : ظلام متكاثف منتشر امام النفس يخوض في أحشائه القلب ، ويضل فيه ضلال البصر في المنظر البعيد ، ويذيبنا الشوق الى الانتقال بأسرنا اليه لنحظى بالشعور الفرد والسرور المحض والعيش

---

٨٢ ـ الجدد : الارض الغليظة المستوية . ومنه المثل : من سلك الجَدد أمن العثار .

٨٣ ـ الوثاق : ما يشد به من قيد او حبل ونحوه .

الرفيع [٨٤] ، فنركب الى الوصول اليه كل صعب وذلول ؛ حتى اذا تمثل الغد وتحقق المرجو واقترب البعيد وجدنا كل شيء على حاله الاولى : حياة سيئة ، ومعيشة ضنك ، ومستراد حرج [٨٥] ؛ ورأينا انفسنا الصادية تحن عبثا الى الشراب البارد العذب الذي فاتها ، ثم يعاودها الامل فتأمل !

كذلك الأفّاق ذو النفس القلقة والطبع الشرود : ينتهي به الامر الى ان يتمنى العودة الى وطنه ، فيجد في كسر كوخه ، وبين أحضان زوجه، وفي وسط اطفاله ، وفي الكدح لعياله ، تلك السعادة المرجوة التي نقب عنها في معالم الارض ومجاهلها فأخفق .

أخرج في الغالب والشمس في خدرها الى ولهم فأجني البسلى بيدي من بستان الفندق ، وأجلس فأنزع القشور عنها وأنا أقرأ هوميروس ، ثم أتخير قدرا من قدور المطبخ فألقي فيها البسلى مع شيء قليل من الزبد وأغطيها ثم اضعها على النار وأقعد بجانبها أحركها من حين الى حين ، فيتمثل في خاطري اذ ذاك كيف كان عشاق بنيلوب [٨٦] الصلفون وخطابها الوقحون ينحرون الثيران والخنازير ويقطعونها ثم يشوونها بأيديهم !

لا شيء أملأ للنفس وأملك للحس من تلك الحياة الابوية البدوية التي استطيع بحمد الله ان أخلطها بحياتي اليومية دون مراءاة ولا تظاهر .

---

٨٤ — العيش الرفيع : الواسع الطيب .

٨٥ — المستراد الحرج : المجال الضيق .

٨٦ — بنيلوب Pénelope امرأة أوليس Ulysse وأم تليماك غاب عنها زوجها عشرين سنة فتقدم اليها الخاطبون وألحوا . فدعاها الوفاء لبعلها أن تمكرهم فوعدتهم ان تختار منهم من تشاء اذا فرغت من نسيجها ، ثم كانت تفتق بالليل ما نسجته بالنهار ، وظلت كذلك تراوغهم وهم على بابها حتى عاد زوجها .

ما أسعدني بذلك القلب الذي يقدر على ادراك هذا السرور الساذج البريء ، سرور الرجل الذي يأكل على خوانه كرنبة من غرس يديه ! أتحسب انه يتمتع بأكلها فحسب ، انما يتمتع في وقت واحد بذكرى تلك الايام السعيدة التي قضاها في زرعها ! فيذكر الصباح الجميل الـــذي غرسها فيه ، والليالي العِذاب التي أمضاها في سقيها ، وما كان يشعر به من غبطة ورضا حين كان يراها مباركة نامية .

٢٩ يونيو

في امس البارحة جاء طبيب المدينة يزور الحاكم فوجدني جالسا على الارض بين اطفال شرلوت ، بعضهم يحبو عليّ ، وبعضهم يمتد بالقرص الي وأنا أدغدغ (★) هؤلاء وهـــؤلاء فنحدث ضوضاء وجلبـــة . الدكتور — وهو رجل نظريات وقواعد — تراه مخشوشب الجسم كأنه عروس من الخشب ذات زمبلك ، يكلمك ويده تبسط ما تغضّن من كمه، وترفع رباط رقبته الى طرف — يرى (كما يتبين من أنفه) في تلك المداعبة منقصة لا يفعلها ذو نهية (٨٧) ، فلم أحفل بذلك وتركته يخوض في مسائل مختلفة من العلم وأقبلت على قصر من الورق قد هدمه الصبيان فأعدت بناءه . ومشى صاحبنا في المدينة يرفع عقيرته (٨٨) بالشكوى الى الناس لان فرتر قد زاد اولاد الحاكم فسادا وسوء ادب .

(★) الدغدغة : تخميش في بعض الجسم يحدث عنه انفعال يضطـــر الضحك «زغزغة» .

٨٧ — ذو نهية : صاحب عقل .

٨٨ — العقيرة : صوت المغني والباكي والقارىء . يقال رفع عقيرتـــه أي صوته .

أجل يا عزيزي وليم ! ليس على وجه الارض شيء قلبي أشد ميلا اليه وأكثر عطفا عليه من الاطفال • أتأملهم فأرى في جبلتهم [٨٩] أصول الفضائل والملكات التي يضطرون اليها بعد ، وألمح في لجاجهم وعنادهم اليوم صدق عزيمتهم ورصانة خليقتهم غدا ، وفي طيشهم ونزقهم سهولة الطبع وبهجة النفس التي ستنير لهم وجوه الغير [٩٠] ، وتجلو امامهم ظلم الخطوب • كل ذلك اراه خالصا غير مشوب ، وكاملا غير منقوص ، فلا أفتر عن ترديد هذه الجملة الذهبية التي قالها معلم [٩١] الانسانية : «اذا لم تصبحوا كهؤلاء !» فانظر ماذا نفعل يا صاح • نعامل اطفالنا وهم أمثالنا في الخَلق وقدوتنا في الخلق معاملة الأتباع والخدم • نريد ألا تكون لهم ارادة ، فهل نحن خالون منها ؟ علام اعتمدنا في ادعاء هذه الخصائص ؟ أعلى اننا اعلى منهم سنا وأحكم عقلا ؟ سبحانك اللهم انك لا تنظر من عليا سمائك الا الى اطفال كبار وأطفال صغار ليس غير • وقد علمنا المسيح منذ طويل اي الفريقين عندك خير مقاما وأجمل ذكرا • ولكنهم وأسفاه يؤمنون به ولا يسمعون اليه ، وتلك مصيبة قديمة ثابتة • انهم يحملون اولادهم على خصالهم ، ويحذونهم على مثالهم ، و ••• وداعا يا وليم ! فحسبك ما هذيت في هذا الموضوع •

اول يوليو

ان قلبي — وهو اسوأ حالا من قلب شفّه المرض وأذواه — يشعر بما

٨٩ — جبلتهم : طبيعتهم .
٩٠ — الغير : الحوادث .
٩١ — معلم الانسانية ، السيد المسيح عليه السلام .

لشرلوت من جميل الاثر للمريض العميد.[92] •

تبلغت العلة بسيدة كبيرة في المدينة ولم يبق منها كما حدث الاطباء غير رمق ضعيف • فتمنت ان ترى شرلوت بجانب سريرها وهي في نزاع الموت فذهبت اليها ، وستلبث لديها بضعة ايام •

وفي الاسبوع الماضي زرت معها قسيس قرية ••• وهي قرية صغيرة في منعزل بين الجبل على فرسخ من هنا • فبلغناها زهاء الساعة الرابعة وكان مع شرلوت اختها الصغرى • فلما دخلنا فناء بيت القسيس المظلل بشجرتين من شجر الجوز وجدناه جالسا على مقعد امام الباب ، فلم يكد يرى شرلوت حتى عراه نشاط وهزة ، فخاطر بالنهوض الى لقائها ناسيا عصاه العقداء [93] • فهرولت اليه وأجلسته ثم جلست الى جانبه تقرأ عليه تحيات ابيها وتلاطف ولده الاصغر وهو دميم الخلقة قذر الثوب تقذى به النواظر ، وتتقزز منه النفس • لو كنت رأيتها وهي تحادث هـــذا الشيخ الساذج وترفع صوتها بالحديث لتبلغه الى أذنه الموقورة (★) ، وتذكر أنباء الشباب الاقوياء وقد اخذهم الموت على حين بغتة ، وتثني على ماء كرلسباد وتزين له الاصطياف بها من قابل [94] ، وتؤكد له انه في حاضره أنضر وجها وأنشط قلبا منه في غابره !

اما انا ففي تلك الفترة كنت اقوم بواجب الادب والمجاملة لزوجـــة القسيس • وقد راقني جمال الشجرتين وشرح صدري ما أضفتاه علينا من وارف الظل فلم أتمالك ان جهرت بالاعجاب بهما والارتياح لهما •

فطفق الشيخ وقد اخذته اريحية السرور يقص علينا حديثهما قائلا :

---

٩٢ ـ العميد من عمده المرض • أضناه وأوجعه وفدحه •
٩٣ ـ العقداء : ذات العقد •
(★) الموقورة : الثقيلة السمع •
٩٤ ـ القابل : اسم للعام بعد العام الحاضر •

«اما الشجرة العتيقة فلا يدري الا الله من غرسها • بعض الناس يقول انه القسيس فلان ، وبعضهم يقول انه غيره • اما الحديثـة فهي رِئد [٩٥] امرأتي ، غرسها ابوها في صباح يوم وُلدت هي في مسائه • وسيكون لهما خمسون عاما في شهر اكتوبر •

لقد كان ابوها سلفي في هذه البيعة [٩٦] • وكان يعز هذه الشجرة اعزازا لا استطيع لك وصفه • وقد ظفرت من قلبي بهذه المكانة ايضا ، لان امرأتي كانت جالسة تنسج على خشبة في ظلها حين دخلت هذا الفناء لاول مرة وأنا تلميذ بائس منذ سبعة وعشرين عاما •

ثم سألت شرلوت عن حال ابنته وأين هي ، فقال لها : انها خرجت مع السيد سميث الى بعض المروج ترى العمال كيف ينجلون [٩٧] المرعى • ثم عاد الى حديثه فذكر ما كان له عند سلفه وابنته من الود المصفّق والولاء الشديد ، وكيف صار له مساعدا ثم خلفا •

لم يكد يفرغ من حكايته حتى رأينا ابنته مقبلة مع صاحبهـا بين اشجار الحديقة ، فاستقبلت شرلوت بالترحيب والعناق • ولا أكذبك فقد خفقت على قلبي • انها سمراء اللون حركة الجسم سوية الخَلق • وقد يثلج النفس ان تقضي معها تلك الساعات بين الحقول • اما حبيبها (كما تنطق بذلك هيئته) فرجل مهذب النفس حسن الحلية الا انه صموت ، فلم يشأ ان يطارحنا الحديث على الرغم من محاولة شرلوت ان تجره اليه• وشر ما آلمني ما علمت من سحنته ان سكوته يرجع الى انقباض النفس اكثر مما يرجع الى تخلف الذهن • وذلك ما انكشف عنه قناع الشك بعد

---

٩٥ ــ رئدها : قرينتها في السن .
٩٦ ــ البيعة : الكنيسة .
٩٧ ــ ينجلون المرعى : يحشونها .

قليل • خرجنا تتنزه فسارت فريدريك بجانب شرلوت • واتفق ان سارت بجانبي مرة او مرتين فرأيت الرجل وقد اكفهر وجهه الاسمر واربد ، فجذبتني شرلوت من كمي وأشارت الي اني اسرفت في مؤانسة فريدريك والتظرف اليها •

ما حزنت نفسي لشيء حزنها لاولئك الذين لا ينفكـــون متألمين مكتئبين ولاسيما اذا كانوا في ربيع العمر ومقتبل الشبيبة ، حين تكون صدورهم مشروحة وقلوبهم مفتوحة لمسرات الحياة وملذات العيش ، ويكدرون صفو ايامهم الجميلة القليلة بانقباض النفس وتقطيب الوجه ، ثم يدركون بعد ان قضي الامر انهم فرطوا في خير لن يرجع ، وبذروا في ثروة لن تعود •

ولما رجعنا في المساء الى بيت القس وجلسنا الى منضدة في فناء الدار نشرب اللبن ونتحدث ، افضى بنا الحديث الى مسرات الحيـــاة وهمومها ، فكرهت ان تمر هذه الفرصة دون ان احمل على ذوي النفس المنقبضة والقلب الحزين • فقلت : انا معشر الرجال لا نفتأ نزعم ان الدنيا تسوء اكثر مما تسر ، وتنفع قليلا ثم تضر ، والله يعلم انا كاذبون في هذا الزعم ، ومسرفون في هذا الوهم ، وان نفوسنا لو كانت مهيأة على الدوام للتمتع بما يسوقه الله اليها كل يوم من طيبات الرزق وغفـلات العيش لتلقينا محن الدهر متى اقبلت بصدر واسع وخلق وادع وصبر جميل • فقالت زوجة القسيس : ولكن نفوسنا ليست طوع امرنا ، ولا نازلة على حكمنا ، بل هي تابعة لجسومنا في اكثر حالاتها ، تمرض بمرضها وتصح بصحتها • فقلت لها : انا مقتنع بذلك ويجب ان نعد الانقباض مرضا ، ونرى ان كان في مقدورنا ان نطب له ونشفيه • فقالت شرلوت : اصبت الحق فيما تقول ، فاني أعتقد فينا القدرة على ذلك كما خبرته بنفسي ، فكنت اذا حضرني الهم وساورني القلق امشي في الحديقة مغنية لحنين او

ثلاثة من ألحان الرقص فتنسلي [٩٨] هموم صدري، وتنجلي كُرب نفسي. فقلت لها ذلك ما أريد ان اقول ؛ فان مثل المزاج المنقبض كمثل الكسل سواء بسواء : نجد في طباعنا ميلا الى الفراغ واخلادا الى الراحة ، ولو انا شجعنا مرة على طرح الكسل ، وحسرنا عن يدنا للعمل ، لوجدنا في الجد لذة لا تعدلها لذة .

كانت فريدريك مصغية بسمعها الي مقبلة بذهنها علي ، فهاج ذلك في الفتى حب الكلام فقال معترضا : ولكن المرء عاجز عن كبح نفسه وضبط عواطفه . فقلت ان بحثنا يدور حول عاطفة مرذولة يود كل منا ان يتخلى عنها ويتخلص منها . ولا يدري امرؤ الى أي غاية تقف قواه اذا هو لم يبلها [٩٩] . فالمريض الذي تشتد رغبته في نيل العافية لا يني في استشارة الاطباء طبيبا طبيبا ، ولا يرفض الاستسلام للحمية الشديدة المستمرة ، ولا الصبر على مضض العقاقير المرة . ثم لاحظت الشيخ الصالح يرهف أذنه لما نقول ويجمع باله لما نذكر ، فرفعت صوتي بالحديث وملت به اليه قائلا : «درج الواعظون على ان يحذروا الناس كثيرا شر الرذائل ولم نسمع واحدا منهم يحذرهم شر النفس المنقبضة» [١٠٠] . فقال القسيس : ذلك شأن وعاظ المدن . اما القرويون فلا يعلمون عن انقباض النفس شيئا . على ان عظة من هذا النوع قد تفيد الحين بعد الحين لتكون على الاقل درسا لامرأتي ولسيدي الحاكم . فضحك الجماعة وقهقه هو حتى اخذته نوبة سعال شديدة قطعت حديثنا زمنا . ثم عاد الفتى الى الحديث فقال : انك دعوت انقباض النفس رذيلة ، وفي

---

٩٨ ــ انسلى الهم : انكشف .

٩٩ ــ يبلها : يختبرها .

١٠٠ ــ بين أيدينا الان عظة نفيسة في هذا الموضوع للاثار من بين ما كتبه عن سفر يونس ــ عليه السلام ــ . «جيته»

ذلك على ما ارى غلو او مبالغة . فقلت له : ليس في الامر شيء من ذلك ما دمنا نطلق هذا الاسم على كل ضار بنا وبأهلنا . أما كفى ألا نستطيع ان يسعد بعضنا بعضا حتى يسعى كل منا في اختلاس ما يجد اخوه من المسرة في قلبه ، وما يشعر به من الغبطة في نفسه ؟! أروني رجلا سوداويا قدر على كظم انقباضه ليحمل ثقله بنفسه دون ان يكدر صفاء من حوله؟ ما أولى انقباض النفس ان يكون غيظا كمينا من نقص كفايتنا وسقوط قدرتنا ، وسخطا على انفسنا مصحوبا برذيلة الحسد التي تهيج فينا الزهو الشديد والعجب المفرط ؟ اذا رأينا قوما سعداء لم نكن نحن مصدر سعادتهم كان ذلك علينا شديدا غير محتمل .

فلما رأتني شرلوت أتكلم هكذا وأنا ثائر مضطرب نظرت الي وابتسمت . اما فريدريك فرأيت في مآقيها دمعة تترقرق ، فحملني ذلك على الاستمرار فقلت : بؤسا لاولئك الذين يتخذون من سلطانهم على بعض القلوب سبيلا الى حرمانها تلك المسرات البسيطة التي تنبعث فيها من تلقاء نفسها ! فلا التحف والهدايا ، ولا الظرف والملاطفة ، بمعوضة عن تلك اللحظة التي سعدنا فيها بأنفسنا فسممها ذلك الخائن بحقده وغيرته .

في تلك الساعة فاض قلبي بالخواطر وانثالت (١٠١) على نفسي الذكر، فأجهشت عيني بالبكاء وصحت قائلا : آه !حبذا لو كان كل منا يقول لنفسه كل يوم : ان اول الواجبات عليك لمن تحب ان تحفظ له مسرته ، وأن تزيد سعادته وغبطته ، وأن تشاطره فرحه وبهجته . وانك لا تستطيع ان تأسو (١٠٢) كلوم قلبه اذا صدعه الهم وأمضه الجوى . واذا ما غشيته

---

١٠١ ـ انثالت : تتابعت وكثرت .
١٠٢ ـ تأسو كلومه : تداوي جروحه .

سكرة الموت تلك التي أذويت حياتها وهي ناضرة مزهرة ، ورأيتها معمودة (١٠٣) قد دكها المرض وأضنتها العلة وعيناها السادرتان (١٠٤) شاخصتان الى السماء ، وجبينها الشاحب من عرق الموت في جزر ومد ، عرفت بعد ان حم القضاء — وأنت واقف حيال سريرها وقفة المجرم المقضى عليه — انك لا تملك لها نفعا ، ولا تستطيع لمكروهها دفعا ، فتذهب نفسك حسرات على انك لم تنفق ما تملك لتبعث في هذا الجسم الضارع المنحل (١٠٥) بقية من العزاء واثارة من الحياة !

لم أكد أنطق بهذه الكلمات حتى قام في خاطري ذكرى موقف كهذا الموقف فغلبني على نفسي واستمطر شؤون (١٠٦) عيني ، فسترت وجهي بمنديل وانتبذت ناحية ، فما عدت الى رشدي الا على صوت شرلوت تدعوني الى الرحيل . فلما انفرد بنا الطريق اخذت شرلوت تؤنبني على شدة اهتمامي بكل شيء وتنصح لي ان ابقي على نفسي وأهاونها ، فان مغبة ذلك وخيمة عليّ .

ايها الملاك الكريم ! اني اذا حييت فلأجلك ، واذا سعدت فبفضلك !

٦ يوليو

لا تزال قائمة على سرير صاحبتها المحتضرة ، ولا تزال كما هي

---

١٠٣ — عمده المرض : أضناه واوجعه وفدحه .
١٠٤ — السادرتان : المتحيرتان من شدة الحمى .
١٠٥ — المنحل : الواهن النحيل .
١٠٦ — شؤون العين : مجاري الدمع .

حاضرة الذهن رقيقة الطبع ترسل من نظراتها العزاء للمنكوبين والسعادة للمنكودين •

خرجت تتنزه مساء امس مع أختيها مريان وأميلي الصغيرة ، وكان عندي بهذه النزهة علم ، فوافيتهن اليها ، ومشينا معا ساعة ونصفا • ثم ارتددنا الى المدينة فمال بنا الطريق الى المنبع الذي آثره قلبي باعزازه ، وأصبح منذ اليوم أعز عليّ أضعافا مضاعفة • جلست شرلوت على حائطه الصغير ولبثنا امامها وقوفا • ثم ألقيت نظرة على ما حولي فلمحت في صحيفة الماضي تلك الفترة التي قضيتها في هذا المكان منعزلا وحيداً، فقلت : «ايها المنبع العزيز ! مضى زمن لم أرفه فيه عن نفسي بنسيمك الرطب ونميرك العذب • ولطالما مررت بك وشيكا من غير ان انظر اليك، او أقبل عليك» • ثم نظرت الى أسفل فرأيت اميلي صاعدة وفي يدها قدح من الماء قد ربكها حمله • وكنت اذ ذاك اتأمل شرلوت وأشعر بأثرها في ومكانتها لدي • فلما اقبلت اميلي بالماء رغبت مريان في شربه ، فأبته عليها الطفلة وصاحت بعبارة رقيقة عذبة : «لأنت يا شرلوت اول من يشرب من هذا الماء !» فاستخفني ما سمعت في جملة البنيّة من صدق اللهجة ورقة القلب ، فلم اجد طريقة أعبر بها عن شعوري وسروري سوى ان رفعتها بين يديّ وقبلتها بحنان وقوة • فهبت الطفلة من فورها تصرخ وتعول ؛ فوقفت دهشا مبهوتا ! وجاءت شرلوت فقالت : «لقد اسأت الى البنية !» وأخذت تلاطفها وتسري عنها بقولها : «اليّ الي يا ليلى ! لا بأس عليك منه !» ثم امسكت بيدها وهبطت بها الى المنبع وقالت لها : «اغسلي وجهك سريعا بهذا الماء البارد يذهب عنك ما يضرك» • اما انا فلبثت في مكاني انظر الى البنية وهي تحك خديها بيديها الصغيرتين المبتلتين على اعتقاد راسخ بأن هذا الماء سيذهب عنها الرجس ويقيها شر الخجل من

لحية (١٠٧) قبيحة كثيفة تنبت في ذقنها وعارضيها • وكلما صاحت بها شرلوت : «كفى ! كفى !» ضاعفت الابنة همها واستفرغت جهدها ، كأنها تعتقد ان الغسل الكثير انقى من القليل وأبلغ •

اؤكد لك يا وليم اني لم أر فيما عشت تعميدا افضل من هذا ولا أكمل • ولقد حدثت نفسي عندما صعدت شرلوت ان أسجد لها كما أسجد لنبي كفّر عن خطيئات شعبه !

اخذتني هزة السرور بهذا الحادث فما تمالكت ان أذعته في مساء ذلك اليوم الى رجل كنت اظن ان له قلبا كما ان له رأسا فيقدر هذه السذاجة الانسانية حق قدرها • ولكني كنت واهما في زعمي ومخطئا في حكمي ؛ فقد قال ان شرلوت ضلت ضلالا بعيدا ، وان من الخطل ان نحق الباطل ونزين العاطل للاطفال ، وان أمثال هذه الاساطير يفسح مجالا لأباطيل وترهات كان أولى بالمربي ان يقتلع جذورها من قلوبهم وهي غضة ••• تذكرت حينئذ ان هذا الرجل قد عمّد (١٠٨) منذ ثمانية ايام ولدا من اولاده ؛ فضربت عن ذلك صفحا وبقيت مؤمن القلب بهذه الحقيقة ، وهي ان نعامل اطفالنا معاملة الله لنا ، فانا لا نكون أسعد نفسا ولا أرغد عيشا الا اذا تركنا نهيم في أودية الاحلام الواسعة ، ونعيش في سكرة الاوهام الخادعة •

٨ يوليو.

لا جرم اني طفل ! ما بال قلبي يهفو في اثر نظرة ؟! لحق اني طفل !

---

١٠٧ ــ من أساطير الاولين ان البنت اذا قبلها رجل اجنبي نبت في وجهها لحية كثيفة .

١٠٨ ــ التعميد اول اسرار الدين المسيحي ، وهو غسل الصبي بالماء باسم الاب والابن وروح القدس . وفي ذكر هذا تهكم بالرجل كما لا يخفى.

كنا ذاهبين الى ولهم ، وكان السيدات قد خرجن في مركبة . ففي اثناء هذه النزهة رأيت يقينا في طرف شرلوت الأدعج الساجي (١٠٩) ... عفوا يا اخي وصفحا ! فاني رجل احمق . كنت اريد ان ترى بعينيك عينيها.. لا أطيل القول فقد دب في جفني الكرى . صعد النساء المركبة ووقف على بابها الفتى «و» وسلستاد وأدران ثم انا . وأقبل النسوة على هؤلاء الفتية الهوج الرقعاء يحادثنهم ، وطلبت نظرات شرلوت فوجدتها تنتقل من واحد الى آخر . اما انا ! انا الذي لم أشغل الا بها ، ولم أفكر الا فيها ، فلم تتجه الي ولم تقع علي . ولقد كرر قلبي لها الوداع الف مرة ، وهي لم تنظر الي مرة !

انطلقت المركبة فتغرغرت عيناي بالدمع وتبعها بصري فرأيت رأس شرلوت بارزا من باب المركبة . رأيتها تلتفت لتنظر . فليت شعري الى من تنظر ؟ ألي تلتفت واياي تنظر ؟ عزيزي وليم ! انا في هذا الشك مضطرب متردد ، ولا عزاء لنفسي الا ان اقول لها : ربماتكون قد التفتت الي ! ربما .. ليهنك النوم يا عزيزي ! آه ! ما أجدرني ان أعد طفلا ..

١٠ يوليو

كنت أريد ان ترى وجهي كيف يغيره الحمق ويصوره اذا ما تكلم احد عنها في ملأ ، ولاسيما اذا سألني انسان هل تعجبني ؟ تعجبني ! ما أثقل هذه الكلمة على سمعي ! كيف يكون رجلا من تعجبه شرلوت دون ان تمتلىء بها قواه ومشاعره ؟ تعجبني ! لقد سألني بعضهم منذ قليل هل في «أشيان» ما يعجبني !

---

١٠٩ ــ الساجي : الساكن .

١١ يوليو

لا تزال زوجة السيد «م» تكابد غصص المرض وتقاسي لهاث (١١٠) الموت • وأنا ادعو الله ان يمسح عليها بيد العافية ، فاني اتألم مما يؤلم شرلوت • اصبحت لا ارى الحبيبة الا نادرا عند احدى صواحبها • ولقد قصت علي اليوم هذه الحادثة الغريبة : وهي ان زوج المحتضرة رجل دنيء الحرص جماد الكف (١١١) ، وقد جعل حياة امرأته بشحه وتقتيره سلسلة آلام ومجمع هموم • غير انها لم تعدم مع ذلك وسيلة تعيش بها وادعة قانعة • فلما أعضل (١١٢) الداء ونكل (١١٣) الاطباء وزحفت (١١٤) الى الموت نادت زوجها على محضر من شرلوت وقالت له : «يجب ان ابوح لك بسر لو دفنته معي لأحدث بعد موتي ضررا وبيلا وشقاقا طويلا • انني دبرت منزلك منذ وليته الى الان بما استطعت من ترتيب وتوفير وحكمة• بيد اني أستميحك العفو عن خداعي لك وغشي اياك ثلاثين عاما • انك لم تخصص في العهد الاول من زواجنا الا مبلغا زهيدا من المال نفقة لطعامنا وقضاء لحاجنا • فلما اتسع نطاقنا وكثرت نفقاتنا عجزت عن اقناعك بزيادة النفقة الاسبوعية • وجملة القول انك طلبت مني ان اقيم أودك وأسد عوزك ، على ازدياد نفقاتك وكثرة طلباتك ، بسبع فلورينات (١١٥) في الاسبوع • كنت ارضى بذلك القدر مكرهة اجابة لطلبك واجتنابا لغضبك ؛ ولكن ما يعوزني من نفقة الاسبوع كنت آخذه

---

١١٠ — لهاث الموت : شدته وكربه .
١١١ — جماد الكف : بخيل .
١١٢ — اعضل : استعصى .
١١٣ — نكل الاطباء : عجزوا .
١١٤ — زحفت الى الموت : دنت منه .
١١٥ — الفلورينة : نقد نمساوي يساوي فرنكين وعشرة سنتيمات .

بيدي من كيسك معتقدة ان ذلك لا يدخل في باب السرقة .
انا ما بذرت ولا اسرفت . وقد اعترفت لك بهذا الامر لا لانه جريمة اخشى لقاء الله بها وعقابه عليها ، فاني راضية عن نفسي ، مستريحة لعملي ؛ ولكني خشيت ان تقول المرأة التي ستخلفني على تدبيرك اذا فدحها الامر وأعيتها الحيلة : ان امرأتك الاولى كانت راضية بذلك القدر قانعة به » .

حادثت شرلوت مليا في امر الانسان وعمايته المفرطة . يرى سبع فلورينات تقضي حاجة بيت جاوزت نفقاته الضعف ولا يجد في الامر شيئا يستريبه وينكره ! على ان في الناس من يعتقد ان معجزة بعض الانبياء في جرة الزيت التي تنزح ولا تنفد قد انتقلت اليهم ، وتجددت لديهم !

١٣ يوليو

كلا ، لم أك مخدوعا ، فقد قرأت في عينيها الدعجاوين عطفا علي وعنايتها بأمري . أجل ! اني اشعر ــ وقلبي لا يُتهم في ذلك ولا يمين (١١٦) ــ انها ... أأجرؤ على النطق بهذه الكلمة التي تضمنت نعيم الحياة وسعادة الجنة ؟ انها تحبني ! أذلك ما يتوهمه قلبي ويدعيه ، ام هو الشعور الحق لا ريب فيه ؟ انا لا أعلم رجلا يستطيع ان يغلبني على حبها ، او يعبث بي في قلبها . على انها اذا حدثتني عن ألبير بما تضمر له من حب اكيد وشوق شديد . اخذني ما يأخذ القائد الرغيب العين (١١٧)

---

١١٦ ــ ولا يمين : لا يكذب .
١١٧ ــ الرغيب العين : الطامع .

الطموح النفس اذا حُط من مقامه ، وجرد من وسامه ، وأرغم على تسليم حسامه !

١٦ يوليو

آه ! ما هذه النار التي تتمشى في اعضائي كلما اتفق ان مست يدي يدها او لمست قدمي قدمها تحت المائدة ؟ اني أجتذب يدي منها سريعا كأنما لذعتها جمرة متقدة ، ثم لا تلبث قوة خفية ان تدفعني ثانية اليها . ما اعظم الدوار الذي استقل مشاعري واستولى علي ! ولكن نفسها البريئة النقية تجهل ما تجر علي هذه المداعبات القليلة من الاذى والمضرة . اذا تحدثت الي وضعت يدها على يدي ، فاذا ما استمر الحديث اقتربت مني حتى اجد نفحات أنفاسها السماوية على شفتي ... هناك يخيل الي ان جسمي يتصدع ويذوب كانما صعقته صاعقة .

هل أفكر يوما يا وليم ان أدنس تلك العفة وأخون هذه الثقة ؟ حاشاي ان أفعل ! فلست خبيث الدخلة فاسد القلب الى هذا الحد . نعم ان قلبي ضعيف جد ضعيف ... ولكن ليت شعري لم لا يكون ضعفه من فساده ؟

اني أجلها وأقدسها . فاذا كنت معها سكنت رغباتي وفنيت نزعاتي . ثم لا ادري في اية حال اكون اذا دانيتها : تكون نفسي حائرة مضطربة، وأعصابي هائجة قلقة .

انها تعرف لحنا من ألحان الموسيقى تعزفه على البيان بما شاء الله من قدرة وسذاجة وتأثير . ذلك لحنها المختار اذا ما اخذت تعزفه سكنت آلامي ، وتبددت وساوسي وأوهامي .

ليس شيء بعد ذلك فيما ذكره القدماء عن تأثير الموسيقى وفعلها الساحر بمنهم عندي ولا مدخول . ما أفعل هذا اللحن بقلبي ! وما اقدره

على اختيار الوقت المناسب لعزفه ! انها تعزفه ساعة لا ارجو الراحة والسكون الا في الموت ، فتنجلي ظلمات قلبي ، وتذهب ضلالات فكري، وأردد أنفاسي وادعا طليقا .

١٨ يوليو

وليم ! ما قيمة العالم بأسره في نظر القلب ، اذا ما خلا من نعمة الحب ؟ انه يكون اشبه بالفانوس السحري من غير ضوء . فاذا ما أدخلت فيه المصباح لا تلبث ان ترى صورا جمة الالوان على الحائط الابيض . وترانا وان لم نجد غير تلك الاشباح الزائلة والأخيلة الباطلة ، نسعد بالوقوف والنظر اليها ، كالاطفال ذوي القلوب الفتية الغضة تبهرهم تلك الرؤى العجيبة والصور الغريبة .

لم أستطع الذهاب هذا اليوم الى شرلوت ، لان جماعة ضربوا الي موعدا لا قبل لي باخلافه ، فأرسلت اليها خادمي لا لشيء سوى ان يكون بجانبي من دنا منها ونظر اليها هذا اليوم . لبثت أنتظره على أحر من الجمر فلما رأيته عائدا استطارني الفرح وهممت ان أعانقه لولا ان قعد بي الحياء ومنعني الخجل .

لقد كان فيما زعم الناس ان حجر بولونيا اذا عرض للشمس اقتبس من انوارها واختلس من أشعتها حتى ليبقى هزيعا من الليل مضيئا . وتلك كانت حال هذا الخادم معي ، فان شعوري بأن عينيها وقعتا على وجهه ووجنتيه وأزرار ثوبه وطوق عباءته ، جعل هذه الاشياء في عيني ثمينة مقدسة ، وأنزله من قلبي منزلة سامية حتى لتأبى نفسي في تلك اللحظة ان ابيعه بألف دينار . يا الله ! كم كنت سعيد النفس بحضوره !

ربأ الله بك يا وليم عن الضحك من هذه الاشياء ، وأعاذك من نقيصة السخر والاستهزاء ، وهل تنكر ان ما يسعد نفوسنا ويذهب برؤوسنا ،

ليس الا أخيلة طائفة ، وأشباحا هاتفة ؟

١٩ يوليو

اول ما أهتف به في الصباح هذه الجملة : «سأذهب لأراها» ومنذ أنهض من منامي وتستقبل عيناي أشعة الشمس الجميلة لا اجد لي طول النهار مبتغى غير ان اراها . تجمع ما أتمناه في هذه الامنية ، وتحقق ما أبغيه في هذا الرجاء ، فلم يبق لي ما آمله ولا ما ارجوه .

٢٠ يوليو

ترى لي ان أصحب السفير الى فيينا ، وعزيز علي ان اصير الى مـــا ترى . لا احب ان اكون تابعا . وفوق ذلك فكلنا يعلم ان ذلك الرجل كريه بغيض . تقول ان امي تريد ان تراني مشغولا ... أمر مضحك ! وهل انا خلي يا صديقي ؟ ألم اكن الان مشغولا ؟ وأي فرق في الواقع بين ان أقشر بسلى او باقلى ؟ كل ما في العالم يؤدي الى غاية دنيـــا حقيرة . فمن ينهك نفسه بالعمل في اكتساب المال او الجاه ابتغاء مرضاة الناس لا اتباعا لأهوائه ورغائبه ، ولا قضاء لاغراضه ومآربه ، فقد ضل ضلالا بعيدا وخسر خسرانا مبينا .

٢٤ يوليو

أراك تحرص على ان أرهف للتصوير عزمي وأحسر له عن يدي ، وذلك ما يحدوني الى طي الحديث عنه حتى لا أعترف لك اني ما احدثت

منذ بعيد شيئا يذكر .

ما رأيتني كاليوم أسعد بالحياة نفسا ، ولا أتم بالوجود علما ، ولا أصح للطبيعة فهما . تغلغل فكري في أعماق الكون ، من الجبل الى الحصاة ، ومن الدوحة الى المشبة ، وأراني مع ذلك اذا حاولت الشرح والبيان التاث [118] الامر علي ووجدت القول فيه وراء الطاقة وفوق الامكان .. ذلك لان ملكة التعبير ادركها الوهن والعجز حتى لتمر الاشياء بنفسي مرور الطيف خفاقة مضطربة لا استطيع انأقتنص منها حرفا، ولا ان اعرف لها وصفا . ويخيل الي اني لو أوتيت صلصالا [119] او شمعا لصورت بيدي ما يجول بخاطري وتحسه مشاعري . ولو استمر ما بي على حاله لاتخذت الطين ثم صورته .. ولو لم اصنع منه الا كرات وفرازق [120] !

حاولت ثلاث مرات ان أصور شرلوت فأخفق ويضرج وجهي الخجل ، ثم يعتريني فضلا عن ذلك هم وكآبة ، لاني كنت قبل اليوم أرسم التشابه بحذق وتوفيق وسهولة . فلما أعياني الامر رسمت وجهها رسما تقريبيا واضطررت ان أقنع به .

٢٥ يوليو

نعم يا شرلوت ونعام عين ! سأصدقك السعي فيما كلفتني ، وأكفيك من حاجتك ما استكفيتني . فلا تخشي ان تحمليني من أمورك غير هذا فاني خفيف الى مبتغاك سريع الى رضاك . ولا اسألك على ذلك شيئا الا

---

١١٨ ـ التاث الامر : صعب .
١١٩ ـ الصلصال : الطين .
١٢٠ ـ الفرازق : جمع فرزق ، وهو قرص العجين .

ان تعفي رسائلك الي من تجفيفها بالرمل فان رسالة اليوم رفعتها بقوة الى شفتي فانجرس الرمل تحت اسناني ، ودهاني من ضرسها مـــا دهاني !

٢٦ يوليو

كثيرا ما عاهدت نفسي ألا أزداد منها قربا ، وألا ازورها الا غبا . ولكن من يستطيع ان يفي بهذا العهد ، ويصدق في ذلك الوعد ؟ لقد يحدث كل يوم ان اقع في المحظور فأذهب اليها مقيما جهد اليمين ألا ابرح المنزل غدا . فاذا جاء الغد لا أعدم سببا قاهرا يسوغ زيارتها ويستدعي لقاءها ، فأجد نفسي بجانبها قبل ان أفكر في السبب . او يحدث انها تقول لي في المساء : «أما اراك غدا ؟» ومن ذا الذي بعد ذلك يطيق دفاعا او يستطيع امتناعا ! او تحملني رسالة فأرى الانسب ان احمل اليها الجواب بنفسي ، او اجد السماء صحوا والهواء رخوا فآخذ الطريق الى ولهم ، فاذا ما كنت هناك لا يكون بيني وبينها الا نصف فرسخ . اني اذن اكون شديد الاقتراب من جوها ومدارها فتجذبني فأرى نفسي فجأة بين يديها .

لقد كانت جدتي تحدثني عن جبل المغناطيس ان السفن اذا اشتـــد دنوها منه طارت اليه دسرها [١٢١] وحدائدها وخلفت الملاحين في يـــد الموت صرعى بين الامواج المترامية والالواح المتداعية .

---

١٢١ ـ دسرها : جمع دسار وهو المسمار .

٣٠ يوليو

عاد ألبير فليس لي الا الرحيل . فان وراء احتمالي ان اراه امام عيني يملك هذا الجمال الفاتن والكمال الرائع مهما يكن اعظم الناس خطرا في عيني ، وأجلهم موقعا من قلبي ، وأجدرهم باجلالي وحبي . أجل يملكها يا وليم ، وحسبك ذلك ! انه خطيبها وقد أقبل . وهو رجل سري الاخلاق طيب القلب قد خلا مما يصرف القلوب عنه ، وينفر الطباع منه . والحمد لله على اني لم أشهد ساعة استقباله ، فقد كان ذلك يورثني حزنا يذيب لفائف القلب . على ان الرجل بلغت به سراوة الخلق ألا يقبّل شرلوت على محضر مني ، وتلك يد لا يستقل بثوابها غير فضل الله . ان ما يبديه الى شرلوت من مظاهر الاعظام والتجلة ليدفعني الى حبه واكرامه . اما ما يظهره من العطف علي والميل الي فنيس على ما اظن صادرا عن قلبه ولا ناقلا عن شعوره ؛ وانما ذلك عمل من آعمال شرلوت . والنساء في مثل هذه الامور أنفذ بصائر وأبعد مدارك . ولهن الحق في ذلك ، فانهن متى استطعن ان يجمعن رجلين من صرعى غرامهن بأواصر المودة كانت ألفتهما أنفع لهن وأعود عليهن ، وان كان ذلك لا يقع الا في الندرة .

لا يسعني احيانا الا ان أجل هذا الرجل وأكبره ؛ فاني واياه في الطبع على طرفي نقيض . هو واسع الخلق رحب الاناة ، وأنا نزق الطبع طائش الحلم ، لا أملك من نفسي ما يملك من نفسه . هو رقيق الشعور لطيف الوجدان يعرف قيمة شرلوت ويقدرها قدرها . ويظهر انه قليل الخضوع لسلطان ذلك العيب الذي لا أغفره دون سائر العيوب وهو انقباض النفس .

انه يعتقد فيّ ذكاء القلب وصفاء الذوق ؛ فلما رآني احب شرلوت وأطرب لكل ما تفعله زهاه النصر ولج به الفخر وازداد لها حبا وبها ولوعا .

انا لا ابحث ان كان يؤلمها احيانا بسخافة الغيرة او لا يؤلمها ، فاني لو كنت مكانه لما سلمت من نزغات هذا الشيطان ، ولما نجوت من شر هذا الخلق •

ومهما يكن من شيء فان سعادتي بقربها قد استرجعتها الايام فلم تعد الا ذكرى • قل لي بربك ماذا أسمي ذلك ؟ أجنونا أسميه ام عمى ؟ وماذا تفيد الاسماء او تنفع الالقاب والشيء دال على نفسه بنفسه ؟ كنت أعلم قبل قدوم ألبير كل ما اعلمه اليوم • كنت اعلم ان ليس فيها ولن تكون لي فيها رجية ولا امل •• وكنت أحبس رغبات نفسي ما استطعت كلما أثارتها رؤية هذا الحسن الرائع والجمال الفاتن •• وتراني الان انظر نظر الابله ، وأعجب عجب الاحمق ، لان ألبير جاء بالفعل يسترد أمانته ويسترجع غادته ! لقد بت احرق الأرم (١٢٢) على جدي العاثـــر وحظي المنكود ، وأحنق أضعاف ذلك على الذين يريدونني على ان اذعن لأحكام القدر ما دمت لا املك لدفعها حيلة ، ولا اعرف لتغييرها وسيلة • ألا بعدا لاولئك الخاطئين وسحقا !

أرود مسارح الوادي ، وأجوس خلال الغاب ، حتى اذا دانيت عريش البستان ووجدت شرلوت والى جانبها ألبير خذلتني قواي ، وثقلت علي رجلاي ، وأخذني من الطرب ما يأخذ الملموم (١٢٣) وأصابني من الهذيان ما يصيب المحموم ، فآتي من سفساف القول وسخف الفعل فنونـــا وضروبا • حتى قالت لي الغداة شرلوت : «نشدتك الله الا ما اقلعت عن مثل ما فعلت بالامس ! انك بمثل هذا المرح البالغ تملأ قلبي رعبا» ، ولكني أصارحك — والامر بيني وبينك — اني أرتقب ساعة يخرج ألبير

---

١٢٢ — أحرق الأرم : اي تغيظ فحط أضراسه بعضها ببعض .
١٢٣ — الملموم : من اصابه اللمم ، وهو طرف من الجنون .

الى عمله فأسرع اليها . ولا تسل عما اجد من برد السرور ولذة السعادة اذا وجدتها في المنزل وحيدة .

٨ اغسطس

عفوا يا وليم وصفحا ! ما كان يدور في خلدي حين قلت ما قلت في اولئك الذين يريدوننا على ان نذعن لاحكام القدر انك تتابعهم على هذا الرأي . وحقيقة الامر انك مصيب بيد ان لي عليك اعتراضا ، وهو ان من النادر ان تجد الحوادث والاشياء في هذا العالـــم محدودة الفروق خاضعة لقانون «نعم» او «لا» على اطلاقه . فان الفرق بين العواطف وطرائق العمل كالفرق بين الانف الأقنى والانف الافطس (١٢٤) . لعلك لا تنقم مني وقد قبلت مبدأك ـ ان أحاول التخلص من برهانك القاطع ذي الحدين المتباينين : «نعم» او «لا» .

تقول اما ان اكون على امل من شرلوت او على يأس . فان تكـــن الاولى فأولى بي ان اسير في طريقها وأسعى الى تحقيقها . وان تكـن الاخرى فخير لي ان امضي العزم على الافلات من ربقة هذه العاطفـــة المشئومة التي ستنهك قواي وتطفىء سراج حياتي .

هذا كلام يستخفه اللسان وتسيغه الآذان ، ولكن بينه وبين العمل مسافة بعيدة . هل تستطيع ان تحمل عليلا يذويه الداء ويضويه في دؤوب وبطء على ان يضع في الحال حدا لاسقامه وآلامه بطعنة خنجر ؟ ان ذلك

---

١٢٤ ــ الأنف الاقنى ما ارتفع أعلاه واحدودب وسطه وضاق منخراه . والافطس ما تطامنت قصبته وانتشرت في الوجه .

الداء الذي أوضعه وأضرعه قد سلبه فيما سلب قوة العزيمة على الخلاص منه .

تستطيع ان ترد علي بتشبيه منطبق على هذه الحال ، وهو انا لا نعرف رجلا تبلغ به الغفلة ان يتردد في بتر ذراعه اذا كان بقاؤها يشفي به على الخطر ويهجم به على الموت . انا كذلك لا اعرف هذا الرجل ، ولكنا لا تتقارع بالتشابيه ولا تتجادل بالامثال ، وحسبك ذلك .

نعم يا وليم ! لقد تمر بي لحظات أشعر فيها بالقدرة على وضع ذلك العبء الذي انقض ظهري وناء به (١٢٥) . ولو كنت ادري ايـن اذهب لذهبت ، ولكني لا أعلم لي مغدى ولا مراحا .

في مساء اليوم نفسه

وقعت اليوم في يدي مذكرتي اليومية بعد ان اهملتها زمنا ، فأدهشني ان اراني أتقدم في هذه الطريق خطوة خطوة على بصيرة وادراك ! وأعجب العجب ان ارى حاضر امري وحرج موقفي ، ثم لا أسلك الا مسلك الصبية الاغرار ! وهأنذا اليوم ابصر حالي وأعرف مآلي ثم لا اجد في ظواهري ما يدل على تحسن واصلاح !

١٠ اغسطس

كان من الميسور لو لم اكن محمّقا مأفونا ان اعيش عيشة رغيدة ،

---

١٢٥ ـ انقض العبء ظهري : اثقله حتى جعله نقضا اي مهزولا .

وأن أحيا حياة سعيدة . ذلك لان من النادر ان يجتمع لامرىء ما اجتمع لي الان من اسباب المسرة ووسائل الأنس . ولكن واأسفاه ! ان سعادة القلب لا تتعلق الا به ، ولا تطلب الا منه ، ولا توجد الا فيه . فأنا عضو في اسرة من كرائم الاسر ، يحنو علي الوالد حنوه على ولده ، ويجلني الابناء اجلالهم لوالدهم ، وتحبني شرلوت ... ويودني ألبير ، ذلك الرجل العظيم الذي خالصني الود وصادقني الاخاء فلا يكدر صفوي بادلاله ، ولا يؤلم نفسي باغفاله ، ولا يختص بحبه بعد شرلوت سواي. غير انني مع كل هذا اري بيني وبين سعادة النفس امدا بعيدا .

وليم ! انه ليسرك وايم الله ان تسمع الي والى ألبير ونحن نتحدث عن شرلوت اثناء النزهة ، فلا يتصور متصور موقفا هو أبعث على الضحك من موقفنا ، ولكنه على ذلك طالما استوكف دموعي .

حدثني عن أم شرلوت وقص علي نبأها وهي في سياق الموت تلقي زمام البيت ومقاليد الاطفال الى ابنتها ، وتجعلها هي في ذمة ألبير وعهده. وذكر كيف خُلقت شرلوت منذ يومئذ خلقا جديدا ، وأصبحت بفضل عنايتها بتدبير بيتها واهتمامها بتربية اخوتها أماً حقيقية لا تنفق دقيقة واحدة من حياتها في غير ملاطفة اطفالها ، او مزاولة عمل من اعمالها ، من دون ان تفقد شيئا من بشاشتها واسجاح خليقتها . كان يحدثني بكل ذلك وأنا اسير الى جانبيه أقطف الازهار من حفافي الطريق وأؤلف منها طاقة جميلة .. ثم أطرحها في النهر الذي يتدفق امامنا فتذهب مع التيار راقصة مرجحنة ...

لا ادري أقلت لك ان ألبير باق هنا ام نسيت . انه حصل بفضل زلفاه لدى بلاط الامير على عمل مربح في ولهم . والحق ان ألبير تميز على نظرائه في اجادة العمل ورعاية النظام وحب المثابرة .

من الحق ان ليس فيمن تحمل الارض اطيب قلبا ولا أنبل نفسا من ألبير . لقد كان بيني وبينه بالامس مشهد غريب . وذلك ان نفسي حببت الي ان اجول جولة على ظهر الجواد في الجبل (حيث أكتب اليك الآن) فذهبت الى ألبير أستأذنه وأودعه . وبينما اصعد النظر في غرفته وأصوبه اذ لمحت عيناي على الحائط غدارتين ، فطلبت اليه ان يعيرني اياهما لأتسلح بهما في جولتي . فقال لي : هما بين يديك ، غير انهما فارغتان . فاذا شئت ان تحشوهما ، فاني لا أقتنيهما الا صورة فحسب . فتناولت احداهما . واستمر ألبير يقول : «اخذت على نفسي ألا ادع غدارتي محشوة منذ وقع لي من جراء ذلك ما وقع» .

فاستشرفت نفسي الى ان يقص علي ذلك الحادث فقال : «قضيت ثلاثة اشهر في اسرة صديق لي في الريف ، وكان في حوزتي غدارتان تركتهما فارغتين لعدم الحاجة اليهما . ففي عصر يوم من الايام مطير تمثل في خاطري لسبب لا اعلمه ان داهما سيدهمنا الليلة ، وانا سنحتاج الى الغدارتين . فدفعتهما الى الغلام ليجلوهما ويحشوهما . فلما فرغ من عمله صوب الغدارة الى فتاة خادم يريد ان يخيفها مزاحا ودعابة . فقضى الله ان تنطلق الغدارة وتصيب يمنى الفتاة فتذهب بابهامها . فلقيت ما لقيت من عويل الفتاة وشكواها ، ثم غرمت ثمن العلاج للجرّاح فكان ضغثا على ابّالة (١٢٦) . فعاهدت الله ألا أدع في بيتي سلاحا محشوا بعد الساعة ... ولكن ماذا تنفع الحيطة او يدفع الحذر والله قد حجب

---

١٢٦ ــ بلية على بلية . والضغث قبضة من الحشيش او قضبان صغار . والابالة : الحزمة الكبيرة من الحطب .

عنا علمه فما تدري نفس ما يخبىء لها الغيب من مقدور الخطر؟ ولكن ..»

ستعلم اني احب هذا الرجل وأجله الا اذا اخذ يكرر لاكنّاته (١٢٧) ويكثر من استدراكاته واستثناءاته . لا أنكر ان لكل قاعدة شواذ ، ولكنه رجل صدوق عدل يضن بالحق ان يمسخ او يشوه ، فاذا ما ظن انه هجم بالكلام من غير تريث ، او القى الخبر على رسيلاته (١٢٨) من غير تثبت ، أقبل يحدده ويحوره ، فيحذف منه ويضيف اليه حتى لا يكاد يدع من الفكرة الاولى شيئا .

وجد الفرصة سانحة ومجال القول واسعا فدقق البحث وعمق الموضوع على عادته . فتركته يقول وأسلمت نفسي لبلابل الصدر وهواجس الهم ، ثم انتبهت مذعورا فصوبت الغدارة الى ما فوق عيني اليمنى من الجبهة .

لفتت هذه الحركة الباغتة نظر ألبير الي فوضع الغدارة من يدي وقال ممتعضا : ما معنى هذا ؟ فقلت له : انها غير محشوة . فقال لي : ولو كانت كذلك فما معنى هذا ! انا لا استطيع ان أتخيل انسانا يبلغ به الحمق ان يمزق رأسه برصاصة . ان هذه الفكرة وحدها تشعر قلبي خشية وفزعا .

فصحت به قائلا : ما بالكم ايها الناس لا تكادون تذكرون شيئا الا اذا قلتم : هذا حمق وذاك عقل ، وهذا طيب وذلك خبيث ؟ ما نفع هذه الكلمات وما أثرها ؟ هل استنبطتم دخائل النفوس واستخرجتم مخبآت الامور ؟ ام هل استجليتم غوامض الاسباب التي انتجت هذه الاعمال وجعلتها قضاء لا مرد له ولا محيص منه ؟ انكم لو فعلتم ذلك لما تسرعتم

---

١٢٧ ـ لاكناته : جمع لكن توسعا .
١٢٨ ـ ألقى القبر على رسيلاته : تهاون به .

في الحكم ولا تعرضتم للخطأ .

فقال ألبير : لعلك توافقني على ان من الاعمال ما يعد جناية مهما تكن الاسباب التي بعثت عليه ودفعت اليه . فلمت اليه قوله اقتناعا به ، ولكنني عقبت عليه قائلا : اني لاجد كذلك لهذه القاعدة شواذ . فالسرقة جريمة ، ولكن الرجل الذي وجد اهله وبنيه يتضاغون [129] من الجوع ، ويترامون في أحضان المنية من السغوب [130] فدفعته الرغبة في انقاذهم الى السرقة ، يستحق الرحمة ولا يستوجب العقوبة . من ذا الذي يتندر بالوقيعة رجلا رأى بعينه المنكر على فراشه فملكته سورة الغضب وازدهته نشوة الحمية فقتل الزوجة الخائنة والمغوي الدنيء ؟ ومن ذا يكون اول الراجمين فتاة استسلمت لمحظور الغرام ومقدوره وهي في عماية اللذة وسكرة الحب ؟! ان قوانيننا نفسها وهي المتحذلقة المتصلبة تدركها الرحمة في مثل هذه الاحوال فتقف التنفيذ وتغمد سيف العدل .

فقال ألبير : هذا شيء آخر يختلف كل الاختلاف عما نقول . فان الرجل الذي يتملك هواه قياده ، يسلبه عقله ورشاده . واذن لا ننظر اليه الا كما ننظر الى سكران او مجنون .

فصحت به باسما : لله انتم ايها العقلاء والاخلاقيون ! تظلون هادئين جامدين امام الهوى والسكر والجنون . تؤنبون السكير بلسان السخرية ، وتدعون [131] المجنون بيد المقت ، وتتحامون جانبه وتصدون عن سبيله فعل الكاهن ، وتحمدون الله حمد الفريسي [132] على ان خلقكم على غير

---

١٢٩ ــ يتضاغون : يتضورون ويصيحون .

١٣٠ ــ السغوب : شدة الجوع .

١٣١ ــ وتدعون المجنون : تدفعونه بعنف .

١٣٢ ــ الفريسيون : فرقة من بني اسرائيل كانوا زمن المسيح يتشددون في الدين ويتظاهرون بالورع رياء ومخادعة ، فكشف سترهم واعلن نفاقهم .

شاكلة هؤلاء الناس .

لقد سكرت غير مرة ؛ وكانت أهوائي في كل سكرة تمت الى الجنون بسبب ، ولم يعقبني ما فعلت خجلا ولا ندما . بل استطعت ان أفهم الى حد محدود كيف اضطر بعض الناس في كل زمان ان يرموا الافذاذ والنابغين بالسكر والجنون اذا قاموا بأعمال عظيمة كان من المظنون ألا تصل اليها قدرة وألا يعلق بها سبب .

كذلك في الحياة العادية لا تجد أثقل على الاسماع ولا أشق على النفوس من ان يقول الناس كلما رأوا رجلا قام بعمل خطير او نبيل او مفاجيء : هذا سكران ! هذا مجنون !

الا ان أولى الناس بالخجل لاولئك الذين صاموا عن العمل ولم ينظروا ، وسموا العجز عقلا حين هموا ولم يقدروا !

فقال ألبير : تلك احدى ترهاتك ، وصورة باطلة من تصوراتك . انك تبالغ في كل شيء . ولقد اخطأت هذه المرة على الاقل في موازنتك الانتحار وهو موضوع الحديث بالاعمال العظيمة ؛ وهيهات ان يعده الناس الا خورا وضعفا ، فان أسهل على المرء ان يذوق الموت مرة ، من ان يتحمل طويلا آلام الحياة المرة .

هممت ان اقطع سلسلة الحديث لولا ان ملكت نفسي ورددتها على ما تكره . فانه لا شيء أملأ لجوفي غيظا من ان يبادرني المخاطب برأي مستعار لا يسفر عن معنى ولا يجلى عن غرض ، على حين ينبعث كلامي اليه من سويداء قلبي وأعماق ضميري ! على ان ذلك ليس بدعا من الامر ، فلقد سمعت كثيرا وغضبت كثيرا فما نفع السكوت ولا أجدى الغضب .

رددت على ألبير في شيء من الحدة قلت له : أتدعو ذلك خورا وضعفا ؟ اني أعيذك بالله ان يخدعك ظاهر الامر . هل تستطيع ان تتهم بالضعف شعبا يرسف في قيود الاستبداد ، ويئن تحت نير الاستعباد ،

اذا انفجر في وجه المستبد فكسر أغلاله وقطع سلاسله ؟ ام هل تجرؤ على ان تصم بالوهن رجلا راعه ان يرى بيته طعمة للنار فاستجمع قواه وحمل من الاثقال ما يعجز عن تحريكه وهو آمن هادىء ؟ بل كيف يكون خوارا ضعيفا من أهين في نفسه ، فعصفت النخوة في رأسه ، وأخرجه الغضب عن طوره ، فحمل على ستة أقران فنشرهم على الارض نثرا ؟ فاذا كان من يؤتر القوس يدعى قويا ، فلم يسمى ضعيفا من يقطعها ؟ واذا كان الجهد العظيم دليلا على القوة ، فكيف يكون الجهد المضطرم الحاد دليلا على الضعف ؟

فرشقني ألبير بنظرة ثم قال : خفض عليك فليس في الامر ما يغضب . ان المثل التي سردتها ليست على اني أبرهن الاشياء بطريقة اقرب الى الهراء والهذر . فلننظر بعد اذا كنا نستطيع ان نخبر بطريقة اخرى سر ما يهجس في خاطر المنتحر حينما يعقد النية على ان يلقي عبء الحياة عنه وهو على الجملة مقبول الحمل محمول الثقل : فان من الصعب ان نتكلم بعدل ودقة عن عواطف لا نجيد فهمها ولا نستبطن كنهها .

ان الطبيعة البشرية محدودة ، فلا تتحمل السرور والحزن والالم الا بقدر . فاذا كلفت فوق ما تطيق وحمّلت اكثر مما تستطيع ، فدحها الحمل وأدركها الاعياء فترزح (١٣٣) . فليس الغرض اذن ان نعرف الرجل أقوي هو أم ضعيف ، وانما سبيلنا ان نعرف هل يقوى على ان يتحمل مقدار الالم ، وسواء عندنا أكان ذلك الالم ماديا ام ادبيا .

وقصارى القول اني اجد من الغريب ان يسمى جبانا من قتل نفسه ، ولا يسمى كذلك من قتلته حمى خبيثة !

---

١٣٣ — فترزح : تسقط اعياء .

وكان حالهما في الحكم واحدة

لو احتكما من الدنيا الى حكم

فصاح ألبير قائلا : لقد رأيت رأيا بديعا [١٣٤] ، وخالفت فيه الناس جميعا • فقلت له : ليس الخلاف على قدر ما تظن ، فانا متفقان ولا ريب على انهم اطلقوا الداء الثبات [١٣٥] على كل مرض ينهك الجسم ويهد القوى ويحل العزيمة ويدع المريض وقيذا [١٣٦] لا يثوب اليه جسمه ، ولا يعود بأية حال عزمه • فلنطبق حال الجسم على حال الفكر ، ولننظر الى الرجل وقد ضاقت حدود فكره ، وحصرت قوى عقله ، كيف تؤثر في ذهنه الانفعالات ، وتستقر به الافكار ، وتتصرف به العواطف ، حتى ينبعث من قلبه هوى لا يزال يعظم ويقوى حتى يحرمه نعمة الهدوء ويسلبه قوة الفكر ويفضي به الى الموت •

ان من العبث ان يحاول العقل الهادىء شرح هذه الحال او ارشاد هذا البائس ، فان الصحيح المعافى لا يستطيع ان يمد العليل الضارع بنفحة من صحته وقوته •

رأى ألبير اني أعمم الكلام ولا أخصصه ، فذكرته بحادث فتاة وجدت بالامس غريقة وقصصت عليه نبأها :

«فتاة طيبة النفس ، عذبة الخلق ، دبت في مدارج الخدمة وشبَّت ، تقضي الاسبوع بعد الاسبوع في اعمال واحدة وحركات متشابهة ، ولا تعرف متع الحياة ولهو العيش الا ان تخرج مع أترابها في بعض ايام الآحاد الى ضاحية المدينة ، وعليها ما اقتنته بتدبيرها من حلي وزينة ، ترفه

---

١٣٤ ـ بديعا : مبتكرا يخالف ما عليه الناس •

١٣٥ ـ الداء الثبات : المعجز عن الحركة •

١٣٦ ـ وقيذا : مشفيا على الموت •

عن النفس احيانا بالرقص في ايام الاعياد الكبرى ، وما بقي من أوقات الفراغ تقتله بالحديث الى جاراتها في اسباب مشاجرة ، او في اغتياب امرأة . ولكن طبيعتها الحادة ، ونفسها الهائجة ، وملاطفة الرجال لها ، أشعرتها بالحاجة الى لذة أخص وسرور أتم . فأصبح لهوها السابق في نفسها تفه المذاق عديم اللذة ، حتى واجهها القدر برجل من رجال اللهو ، فاندفعت اليه مرغمة بعاطفة خفية لا تغالب ، ووصلت به مذ عرفته اسباب رجائها ، ونسيت العالم بأسره ، فلا تسمع غيره ، ولا ترى سواه ، ولا تحس الا اياه ، فهو وحده الموجود والمعبود والمشتهى .

لم يفسد طباعها عبث الدلال ولا سخف الاعجاب ، فمضت الى الغاية المرجوة لا تلوي على شيء . طمعت ان تملكه ، وأن تجد في الاقتران به ما يعوزها من اسباب السعادة ، وأن تذوق ما تبغي من لذائذ الحيـــاة مجموعة في وقت واحد . وعود متكررة طبعت امانيها بطابع اليقين ، ومداعبات جريئة هاجت رغائبها ، وملكت على نفسها مذاهبها ، فغرقت في بحر من الذهول ، وسبحت في جو من السعادة .

انتظرت حتى لم يعد للانتظار موضع ، وصبرت حتى لم يبق في قوس الصبر منزع . فلما فتحت ذراعيها ونهضت تعانق الامل ، وتضم السعادة، وتقبل الفوز ، اذا بالحب قد ذوى وبالحبيب قد رحل !

ها هي ذي مسلوبة العاطفة مفقودة الرشد واقفة على شفا اللجـــة يكتنفها الظلام من كل جانب ، وليس لها في حاضرها عزاء ولا مــــن مستقبلها رجية ! غادرها من تحب وهو الذي كانت تعيش لاجله ، وتتعلق من اسباب الحياة بحبله ، فأعماها اليأس وأضلها القنوط فلم تر ذلــك العالم الفسيح الممتد ، ولم تفكر ان في الناس عوضا عمن هجر ، وخلفاً ممن غدر ، بل شعرت انها وحيدة العالم ، وطريدة الدهر ، فدلهها الحزن، وجاش في صدرها الهم ، فألقت بنفسها في اللجة ليدفن الموت آلامها ،

كما دفنت الحياة آمالها» •

تلك يا ألبير حال هذه البائسة وهي حال كثير من الناس ! أفلا تجد ان ما حدث فيها هو بعينه ما يحدث في حال المرض ؟ لا مخرج للطبيعة من ذلك التيه الذي تتصارع فيه القوى وتتنازع فيه الطبائع • لذلك كان الموت امرا محتوما لا دافع له ولا وعي منه •

يا بؤس لمن يقول حين يرى هذه البائسة في وسط اللجة : «يا لها من حمقاء ! كان خيرا لها ان تنتظر ؛ فان الزمن بلسم القلوب الدامية • ولو صبرت لهذا الخطب لتبدد يأسها ، وتجدد أنسها ، ووجدت في الناس المخلص الامين !» ذلك ولا ريب أشبه بقول القائل : «ما أشد حماقة من يموت بالحمى ! لو انتظر حتى ثابت [١٣٧] اليه قواه ، وطهرت أخلاط جسمه ، وسكن فوران دمه ، لكان اليوم حيا يرزق !» •

لم ير ألبير تشبيهي واضحا جليا ، فوجه الي بعض اعتراضات منها انني لم أتكلم الا عن فتاة ساذجة جاهلة ، وانه لا يستطيع ان يفهم كيف يعذر في مثل هذه الحال رجل ذو عقل وبصيرة يعيش في دائرة اوسع ، ويدرك بثاقب رأيه وبعد نظره حقائق الاشياء وعلائقها •

فقلت له : يا صاح ! ان الانسان هو الانسان في كل زمان ومكان، وان قليل الذكاء الذي أوتيه لا يغني عنه فتيلا اذا ما تحكم هواه وهاجت ميوله ورأى نفسه محصورا في حدود الانسانية ومآزقها • وأكثر من ذلك ان ••• لندع بقية الكلام الى مرة اخرى • ثم اخذت قبعتي ونهضت والقلب مفعم زاخر • ثم افترقنا وكلانا لا يفهم صاحبه • وكذلك الناس في هذا العالم قلما يفهم بعضهم بعضا !

---

١٣٧ ــ ثابت قواه : رجعت .

١٥ أغسطس

ليس في العالم ما يجعل الانسان ضروريا لأخيه الانسان الا المودة . أشعر الشعور كله ان شرلوت كان يحزنها فقدي ، وأن اطفالها ما كانوا يفكرون الا في عودتي اليهم بعد الغد .

ذهبت اليوم الى شرلوت أصلح بيانها فلم استطع ان أتم العمل ، لان الاطفال ارادوا ان أقص عليهم حكاية من حكايات الجان ، وشرلوت نفسها طلبت الي ان أسرهم وأرضيهم ، فقطعت لهم خبز عصورهم (وقد اصبحوا يفضلون تناوله من يدي على تناوله من يد شرلوت) ثم قصصت عليهم حكاية «الاميرة المخدومة بيد مسحورة» وهي من أحسن القصص وأغرب الانباء . وأؤكد لك يا صديقي اني تعلمت من ذلك القصص شيئا كثيرا ، وقد أدهشني وأثار عجبي ما اري من تأثير ذلك فيهم وسلطانه عليهم ، حتى اذا ما اضطرني النسيان الى الاختلاق او التزيد فحكيت الحادثة على غير وجهها الاول قالوا : لقد رويتها من قبل على غير هذا الوجه . فأنا أروض نفسي الان على ان أسرد الحكاية سردا دون تغيير ولا تحوير كما تسرد حبات السبحة . دلني ذلك على ان المؤلف الذي يتناول قصته في طبعتها الثانية بالتصحيح والتنقيح انما يضر عمله ولا ينفعه ، فان الطبعة الاولى صادفت نفوسنا وهي طيعة مستعدة ، والناس جبلوا على ان يصدقوا ما لا يصدق ، ويعتقدوا ما لا يحقق ، فاذا رسخت هذه المعتقدات في أذهانهم ، وبلغت حظها من ايمانهم ، فالويل كل الويل لمن يريد محوها ، او يحاول اقتلاعها .

١٨ أغسطس

أكذلك قضى الله ان يصبح ما كان مصدرا لسعادة المرء ورخائه ،

علة لبؤسه وشقائه ؟ أليس عجيبا ان الشعور المضطرم الذي كان يصل قلبي بالطبيعة ، ويغمر نفسي بالنعيم واللذة ، ويجعل كل ما يطيف بي جنة بهيجة ، يعود عذابا بئيسا لا يخف ، وشبحا مخيفا لا يغيب ؟

كنت فيما مضى حين يمتد طرفي من فوق الصخرة الى ما وراء النهر فيقع على الوادي الخصيب وما يكتنفه من الهضاب الخضرة ، ارى كل شيء حولي ينبت ويزهر . وحينما كنت أبصر هذه الجبال المغطاة بأشجار الدوح من اسافلها الى اعاليها ، وتلك الاودية المظلة محانيها بالغابات الانيقة ، وذلك النهر ينساب هادئا بين نغمات القصب المهتز ، وتتراءى في جوانبه تلك السحب الجميلة المزجاة في جو السماء بنسيم المساء ، وأسمع الاطيار تحيي بأغاريدها موات الغابة جمعاء ، وجماعات الذباب ترقص طربة مرحة على خيوط الشمس الارجوانية الغاربة ، وأرمق الارض ببصري فأرى الاشنان (١٣٨) يمتص غذاءه من الصفاة الصلدة ، والرتم (١٣٩) ينبت فوق سفح الأكمة القاحل المرمل ، فيكشفان لي عن ذلك النبع المقدس وتلك الحياة القوية في باطن الطبيعة ؛ اقول حينما كنت اری وأسمع هذه الاشياء كان قلبي يحيط بها ويعيها بما شئت من حرارة وقوة . وكنت اشعر اني اقرب ما اكون الى التأله بما يفيض في قلبي من الشعور والحس ، ويخيل الي ان صور العالم الجميلة الفخمة تتحرك في نفسي فتملأها حياة جديدة .

كنت اری حولي الأطواد (١٤٠) الشاهقة ترتد عنها الابصار كليلة ، وأمامي الوهاد العميقة تقتحمها السيول غب العاصفة ، وتحتي الانهار الطامية تتحدر امواجها مسرعة ، وأسمع الآكام والآجام ترن أجوافها

---

١٣٨ ـ الأشنان : نبات دقيق ينبت لفائف على السقوف والصخور .
١٣٩ ـ الرتم : نبات بقلي ذو زهر ابيض أو اصفر .
١٤٠ ـ الأطواد : الجبال .

رنينا ، وأنظر في أحشاء الارض فأجد القوى الطبيعية الخفية يعمل بعضها في بعض فتتولد وتتجدد ثم تفيض وتنتشر فوق الارض وتحت السماء ، وأبصر انواع المخلوقات يموج بعضها في بعض على أشكال شتى وصور متباينة ، وبني آدم يلوذون جماعات بالخصاص والاكواخ ، ثم يبتنون منازل ثابتة ويتخيلون انهم يهيمنون على العالم كله !

مسكين ايها الاحمق ! ترى كل شيء صغيرا لانك صغير !

في جميع الكائنات — من صياصي الجبال المنيعة الى أغوار الفلوات المجهولة ، ومن بداية البر الى نهاية البحر — ينبث روح الخالق الازلي الذي لا ينقطع ايجاده ، ولا يبطيء امداده ، ولا تحرم ذرة من ذرات الهباء من قوة روحه وسر كلمته . آه ! كم تمنيت في ذلك الزمن ان اقطع أجواز الفضاء على جناحي ذلك الكركي الذي يطير فوق رأسي فأبلغ ساحل البحر الخضم الذي لما يكشف سره الانسان لأشرب من اللانهاية كأسا دهاقا (١٤١) تبسط القلب وتنعش المشاعر ! وأشعر لحظة واحدة — على قصوري وضعفي — بنقطة تجري في دمي من سعادة ذلك الموجود الذي يخلق كل شيء في ذاته وبذاته .

أخي ان ذكرى هذه الساعات الذاهبة لأخلق ان تردني سعيدا . وان ما أبذل من الجهد في احياء أثرها الاسمى في قلبي وشرحه لك ليسمو بنفسي الى اعلى من مكانها ! ولكنه وأأسفاه يجعلني أشعر الان بسوء حالي وحرج موقفي أضعافا مضاعفة .

يخيل الي ان قد هُصرت الستور وانجابت (١٤٢) الحجب أمام نفسي فرأت مسرح الحياة الذي لا ينتهي ولا يحد قد تحول الى حفرة

---

١٤١ — دهاقا : مملوءاً .
١٤٢ — وانجابت : انكشفت .

ضيقة امامي وقبر فاغر [143] فاه الي .

هل تستطيع ان تقول : «هذا الشيء موجود» وأنت ترى كل شيء يمر ويختفي اسرع من لمح البرق ، وتجد من النادر ان مخلوقا تطول حياته حتى تخمد قواه وينطفيء سراجه ! أما يبتلعه السيل الأتي [144] ويدفعه التيار الجارف حتى يمزقه على صخور الحياة !

لا تمر لحظة من الزمن دون ان تفنيك انت ومن حولك من اهلك . ولا تمر لحظة دون ان تدمر انت او تُرغم على التدمير . ان خروجك الى التنزه ماشيا وهو ابرأ ما يكون يودي بحياة مئات من الديدان الصغيرة. ولخطوة واحدة من خطواتك تدمر عشرات من مساكن النمل وقد تحمل في بنائها رهقا شديدا ، وتسحق هذا العالم الصغير النشيط بأسره .

ليس ما يؤثر فيّ ويشق علي ما ارى من مصائب العالم النادرة التي تجتاحكم ، ولا الفيضان الذي يغمر قراكم ، ولا الزلزال الذي يخسف مدائنكم ، وانما هو تلك القوة المدمرة الكامنة في الطبيعة جمعاء ، تلك القوى التي لا توجد شيئا الا ليهلك ما يجاوره ويهلك .

كذلك اسير في هذه الحياة يميد بي القلق ، ويجيش بصدري الهم، بين السماء والارض وما فيهما من القوى الفعالة فلا ارى الا وحشا هائلا يأكل ابدا كل شيء ، ثم لا يعيد خلقه الا ليعيد اكله .

٢١ أغسطس .

عبثا كنت ابسط ذراعيّ اليها ساعة استيقظت صباح اليوم من حلم

---

١٤٣ ـ فاغر : فاتح .
١٤٤ ـ الأتي : الجارف .

ظاهر مؤلم ! وباطلا كنت ابحث عنها في الليل على مرقدي وقد أوهمني الحلم السعيد البريء اني جالس معها في المرج أنعـــم بالحديث اليها ، وأغمر بالقبل يديها ! وألهف نفسي علي وأنا بين اليقظة والنوم أتلمسها في السرير ضلة فترجع الي هذه الحركة مشاعري بغتة فأستيقـــظ .. فينبجس (١٤٥) من قلبي المكروب سيل من الدمع ، وأئن أنين البائس حين أسف (١٤٦) النظر في صفحة الغد فلا ارى الا سوادا كثيفا وظلاما مخيفا .

٢٢ أغسطس

انا تعس منكود الحظ يا وليم ! لقد فترت قواي العاملة ، وخمدت حواسي المضطرمة ، وآل بي الهم الى همود لازم ، واضطراب دائم . لا استطيع المكث فارغا ، ولكني غير كفء لعمل ما . عدمت الحساسيـــة والخيال ، فلا تزدهيني اعاجيب الطبيعة ، ولا تبعث الكتب في نفسي غير الاشمئزاز والضجر . كل شيء يعوزنا ولا ريب اذا ما اعوزتنا انفسنا . شهد الله اني تمنيت مرارا ان اكون اجيرا ليكون لي فــي الصباح حين أستيقظ شيء أؤمله ، وضرورة تدفعني الى ما اعمله . وكثيرا ما أغبط ألبير حينما أراه غريقا في الاوراق والاضابير (١٤٧) الى أذنيه . ويخيل الي اني لو كنت مكانه لعشت سعيدا .

أثرت فيّ هذه الفكرة حتى حدثت نفسي ان أكتب اليك والـــى الوزير اسأله مثل هذا العمل في السفارة . وهم لا يمنعونني هـــــذا السؤال كما تؤكده لي انت وكما أعتقده انا . فاني ارى للوزير انعطافا

---

١٤٥ ــ ينبجس : ينفجر .
١٤٦ ــ أسف النظر : اسدده واحده .
١٤٧ ــ الأضابير : جمع اضبارة وهي الحزمة من الصحف .

الي منذ طويل ، وطالما نصح لي ان أشغل نفسي بعمل ما • ولا أكذبك فقد هممت مرارا ان أفعل ، ولكني اذا استأنفت الفكر وتسلفت النظر وتذكرت حكاية الفرس الذي أضر به طول الجمام (١٤٨) فأسلم نفسه للسرج واللجام ، فكده فارسه وعناه حتى لصب (١٤٩) جلده ، وارتهكت مفاصله ، وقفت حائرا لا ادري ما اصنع • ولكن رويدك يا صديقي ! أليس ذلك الطموح الذي أحسه في نفسي الى تغير الحال وتبدل الامر قلقا باطنا ومرضا دخيلا سيصحبني الى كل مكان ؟

٢٨ أغسطس

لو ان ما بي من الداء يرجى برؤه ، لكان في كرم هؤلاء الناس طبه وشفاؤه •

كان هذا اليوم ذكرى مولدي ، فما كاد الصبح يفتر حتى صبّحني رسول ألبير بصرة صغيرة ، ففتحتها فاذا فيها عقدة من العقد الوردية التي كانت على منطقة شرلوت يوم لقيتها اول مرة وقد سألتها اياها مرارا ، ومجلدان من القطع الصغير فتحتهما فاذا هما ديوان هوميروس من طبعة «ديتيطس» وقد كنت ارغب في الحصول عليها منذ طويل لاستبدلها بطبعة «أرنستي» فانها ترهق ذراعي كلما خرجت أتنزه • فانظر كيف يدنوني من منالي ، ويصلون يدي بآمالي ! وكيف يتحينون الفرص لهذه الالطاف الودية ، وهي أثمن الف مرة من تلك الهدايا الفاخرة التي يشفعها الاعجاب ويتبعها المن فتنال من كرامتنا وعزتنا •

---

١٤٨ ــ الجمام : الراحة •
١٤٩ ــ لصب جلده : لزق باللحم من الهزال •

أنحيت على تلك العقدة بالقبل ، واستنشيت في كل قبلة ذكرى ما نعمت به في تلك الايام السعيدة على قصرها من غفلات العيش ولحظات الأنس ؛ تلك الايام التي لا تشرق في سماء العمر الا مرة !

كذلك يا وليم أزهار الحياة لا تعمر طويلا ، وان كثيرا من تلك الازهار ما يذوي فلا يترك اثرا ، وان قليلا منها ما يصلح فينتج ثمرا ، وقليل من ذلك الثمر ما يبلغ يوم نضجه وينعه ، على انه بقي من تلك الثمرات ما يكفي . فمن ذا يستطيع يا صاح ان يشيح بوجهه [١٥٠] عن هذه الثمار اليانعة فيدعها تعطب دون ان يتمتع بها وينعم ؟

وداعا يا اخي ! ان الصيف عندنا جميل بهي ! ولله ما اجمل ان أتسلق الشجر في بستان شرلوت وفي يدي مجناة او عصا طويلة فأرمي بها ما على الاغصان من الكمثرى وشرلوت واقفة أسفل الشجرة تلقف بيديها ما يسقط من الثمر !

٣٠ أغسطس

ويلك ايها البائس ؟ لعل بك مسا من خبال ! ألست تخدع نفسك بنفسك ؟ الى اين يقودك هذا الهوى المبرح الذي استحكمت قيوده وتباعدت حدوده ؟

اصبحت يا وليم لا ارفع الصلاة الا لها ، ولا أتخيل الا صورتها وشكلها ، ولا انظر ما حواليّ من الاشياء الا مضافا اليها ومرتبطا بها . وتلك حال تشعر النفس بالسعادة حينا . فاذا ما نزعت من جوارها ، وحيل بيني وبين استحضارها ، فلا تسل عما يملأ العين ظلاما ويفعم القلب

---

١٥٠ ــ أشاح بوجهه : أعرض .

وحشة ! أواه يا وليم ! لو كنت تدري اين يذهب القلب بأخيك في اكثر امره ؟••• حينما أجلس اليها ساعة او ساعتين أمتع العين بقسامة وجهها ورشاقة حركاتها ، وأشنف الاذن برقة عبارتها وعذوبة كلماتها ، تشعر مداركي شيئا فشيئا بتوتر شديد وضغط عنيف ، فيظلم بصري ، ويثقل سمعي ، وأحس خناقي يضيق كأنما اخذت به يد قاتل ! فيجهد القلب ان يخفف من ارتباكي ، وينفس عن ادراكي ، فيثور ثائره ، ويشتد وجيعه ، ولا يزيد الامر الا اضطرابا وقلقا • في اكثر ايامي لا ادري يا وليم أفي هذا العالم انا ام في غيره • نعم أعرف نفسي ، ويثوب الي حسي ، اذا اشتد بي الحزن ، ولاع قلبي الهم ، ولم أظفر من شرلوت بقليل عزائها ، فلا أغمر يديها بسيل دموعي ، ولا أخفف بحديثها حر ضلوعي • حينئذ أهيم على وجهي في الحقول والاودية ، وأجد من اللذة ان أتسلق جبلا صعب المرتقى ، او أتيه في جوف غابة مضلة ، او أخبط فـــي وسط الادغال الشواجن (١٥١) ، فيدمي الشجر جسمي ، ويمزق الشوك قدمي وهناك أحس بشيء من الراحة قليل • وكم مرة قعد بي الاعياء والظمأ في الطريق فأستلقي على الحصباء ، او أجلس تحت الليل في الغابة المقفرة على جذع شجرة عوجاء ! اجلس يا وليم لأهاون قليلا رجلي المرضوضة والبدر في كبد السماء يتلألأ فوق رأسي ، فتأخذني عيناي في ذلك الضوء المريب فأنام نوم اللاغب القلق (١٥٢) !

أواه يا وليم ! ان الاعتكاف في حجرة ضيقة موحشة ، والتمطق (١٥٣) بمنطقة ذات أشواك حديدية قائمة ، وتعذيب الجسم بالأسنة الحـــادة النافذة ، لاروح لنفسي من هذا العذاب الذي يذيبها ويضويها •

---

١٥١ ـ الشواجن : النبات الطويل الملتف المتشابك .
١٥٢ ـ اللاغب : التعب .
١٥٣ ـ التمطق : شد الوسط بالمنطقة «الحزام» .

وداعا يا وليم ! اني لا ارى لهذا الشقاء المبرم غاية الا القبر .

٢ سبتمبر

أجل ! ليس من السفر بد ! والحمد لله على ان آخرجتني من عماية الحيرة الى نور اليقين ، فقد مضى عليّ خمسة عشر عاما وأنا أفكر في تركها . ذلك امر محتوم . لقد ذهبت الى المدينة ثانية تزور احـــدى صواحبها ... و ... لا بد من السفر !

١٨ سبتمبر

لشد ما أكابد الليلة يا وليم ! على انني الان استطيع ان أتحمل كل شيء . انني لن اراها بعد ! وليتني اطير اليك ، فأرتمي بين ذراعيك ، لأشرح لك بانفعالاتي القاتلة ، ومدامعي الهاطلة ، ما هاجم قلبي وتشعب خاطري من العواطف ! انا أتململ أرقا وقلقا ، أستنشق الهواء فلا اجده، وألتمس العزاء فلا اناله ، ولا أنتظر غير الصباح ، فان الخيول ستغدو على مطلع الشمس . والهف نفسي ! انها نائمة نوم الخلي الهادىء لا تعلم انها لن تراني عوض [١٥٤] .

فارقتها الليلة مرغما بعد ساعتين قضيناهما في الحديث ملكت فيهما نفسي ، وكظمت علي جرتي [١٥٥] حتى لا ينم ظاهري بما أقصد . ذلك ان ألبير وعدني ان يكون هو وشرلوت في الحديقـــة بعد العشاء توا ،

---

١٥٤ ــ عوض : ظرف مختص بالنفي بمعنى ابدا وهو لاستغـــراق المستقبل فقط .

١٥٥ ــ كظم على جرته : سكت على ما في جوفه فلم يتكلم به .

فسبقتهما اليها ، ووقفت على مشرف تحت سرحتين من شجر القسطل[١٥٦] أشيع آية النهار ببصري وهي تغرب لآخر مرة على مرآي خلف ذلك الوادي الضاحك ، وهذا النهر الهادىء • ولكم وقفت انا وهي في هذا المكان جنبا الى جنب نطالع معا هذا المنظر الجميل ! أما الان •••!

كنت أتمشى في ذلك الممشى العزيز علي قبل ان اعرف شرلوت فتحبسني فيه اكثر الأحايين جاذبية خفية • فلما تعارفنا كان سرورنا باجتماع هوانا على تفضيله عظيما • والحق انه من أشد ما رأت عيني جمالا وسحرا • نجد لاول وهلة بين اشجار القسطل منظرا واسعا ممتدا • وقد أذكر اني وصفت لك في رسائلي كل هذا : وصفت لك كيف يجد المرء نفسه اذا ما تقدم محصورا بين صفين من اشجار الزان الباسقة ، وكيف يدهام[١٥٧] الممشى قليلا قليلا بالخضرة النضرة كلما خاض في أحشاء الأجمة المتصلة به ، ثم ينتهي كل ذلك بسور صغير تشعر عنده بسحر العزلة وتأثير الوحدة •

لا ازال اشعر بذلك التأثر الذي احسسته حين دخلت هذا المكان اول مرة أستجير به من حر الظهيرة • فقد خيل الي ان هذا المكان لي مألف ومعهد ، وأحسست اني في هذا الموضع سأشرب اما شهد الحياة واما صاب الموت !

مضى علي نصف ساعة وأنا أغذي النفس بهذه الخواطر الحلوة المرة : خواطر الاجتماع والافتراق ، وقد ذهلت عن كل شيء ، حتى سمعت وقع أقدامهما صاعدين الى المشرف ، فدلفت اليهما مسرعا ، وتناولت يد شرلوت مرتجفا وقبّلتها ، ثم صعدنا جميعا الى المشرف ،

---

١٥٦ ـ القسطل : شجر الكستناء «ابو فروة» .
١٥٧ ـ يدهام : يسود قليلا قليلا .

وما علوناه حتى رأينا القمر بازغا وراء الهضبة الشجراء ، فمشينا نتساقط الحديث في موضوعات مختلفة حتى بلغنا الأجمة المظلمة ، فولجتها شرلوت ثم جلست ، وجلست انا وألبير الى جانبها . ولكني كنت من الاضطراب بحيث لا أستقر في مكان ، فنهضت ووقفت ازاءها ثم مشيت طولا وعرضا ورجعت فأخذت مجلسي . تلك كانت حال اضطراب وهم لا يطمئن عليها الخاطر ولا تهدأ فيها النفس ..

لفتتنا شرلوت الى جمال ضوء القمر ، وقد أنار امامنا الممشى كله الى اقصى اشجار الزان ، فاذا منظر رائق يملك الابصار ويجلب الافئدة ، وقد زاده اثرا وروعة ان ما حولنا كان في ظلمة حالكة . سكتنا هنيهة ثم بدأت شرلوت الحديث قائلة : «ما مشيت ليلة في ضوء القمر الا تذكرت من مات من اهلي ، وتفكرت في امر الموت والحياة الاخرى . انا سنحيا ثانية . ولكن ليت شعري يا فرتر هل نتراءى ونتعارف ؟ ما رأيك في هذا الامر وماذا في حسك منه ؟» قالت ذلك بلهجة سامية مؤثرة . فقلت لها وقد اغرورقت عيناي بالدمع : سنتراءى يا شرلوت ! أجل سنتراءى في الحياة الدنيا وفي الآخرة . ثم لم استطع ان أزيد على ما قلت حرفا .

لمَ سألتني يا وليم هذا السؤال على حين يملأ قلبي هم الفراق ولوعة النوى ؟ استمرت شرلوت تقول : «وهل يعلم أحباؤنا الذين فقدناهم من أمورنا شيئا ؟ هل يشعرون بسعادتنا اذا سعدنا ! وهل يدرون اننا نذكرهم بلسان وامق وقلب مشوق ؟ آه ! ان خيال أمي لا يبرح طائفا حولي كلما جلست في تلك الليالي الهادئة وسط اطفالي وأطفالها ، وقد ازدحموا من حولي كما كانوا يزدحمون من حولها . فأرفع الى السماء طرفي المخضل بدموع الاسف ، وأتمنى لو تستطيع امي ان تلقي علينا نظرة من وراء الحجب فترى كيف قمت بما وعدتها ساعة احتضارها من ان اكون لاطفالها أماً ، ثم أهتف بها قائلة : مغفرة يا امي المحبوبة اذا لم اكن

لهم مثل ما كنت • على انني قد بذلت لهم ما استطيع ، فهم مكسوون مغدوون فضلا عن انهم مدللون محبوبون • لو كنت تستطيعين اينهـا القديسة العزيزة ان تري في اي مجتمع نحن نعيش • اذن لشكرت الله وحمدته على ان استجاب دعاءك وتقبل بكاءك ، فبسط على اطفالك جناح رحمته ، وأضفى عليهم ثوب نعمته وبركته» •

قالت ذلك يا وليم ! ومن يستطيع ان يعيد عليك ما قالت ؟ وهل في مقدور تلك الاحرف الباردة الجامدة ان تعبر الك عن هذه الزهـور السماوية لتلك النفس الملكية ؟

تحرك ألبير فقطع عليها الحديث بقوله : لقد هاجت الذكرى أشجان نفسك يا شرلوت • انا اعلم منزلة هذه الذكريات من قلبك ، ونصيبها من حبك ، الا اني أتوسل اليك ••• فقاطعته شرلوت قائلة : «انك لم تنس يا ألبير هاتيك الليالي التي كنا نقضيها جالسين جميعا حول المنضدة الصغيرة المستديرة ، وأبي غائب عنا في سفره ، والاطفال قد أووا الى مضاجعهم ، وقد كنت تحمل معك في اكثر الليالي كتابا مفيدا تقرأ لنا فيه ، فيلهيك عن القراءة حديث تلك المرأة المحبوبة الذي يمتزج بالقلوب ويسري عن الخواطر • ألم يكن حديثها العذب افضل من كل شيء ؟ لقد كانت جميلة وديعة وطروبة نشطة • ولا يعلم الا الله تلك الدموع التي كنت أذرفها حين آوي الى مخدعي جاثية الى الله مبتهلة اليه ان يجعلني شبيهة بها !»

فخررت ساجدا على قدميها ، ورويت بمدامعي يديها ، وقلت : «يا شرلوت ، لتحل عليك وفيك بركة الله وروح أمك !» فضغطت يدي بيدها وهي تقول : «آه لو كنت عرفتها ! لقد كانت خليقـة بأن تعرفها» • فأحسست اني أذوب وأفنى من هذه الجملة • فاني ما سمعت تقريظا لنفسي هو اسمى وأجل من هذا • ثم سارت في حديثها تقول : « لقد

عجلت اليها المنية وهي في ريق الشباب وزهرة العمر حين لم يكن لأصغر اولادها الا سنة اشهر • كان مرضها قصيرا ، وكانت هادئة مستسلمة لا يحزنها غير امر اطفالها ولاسيما الاصغر • ولما زهقت (١٥٨) الى المـــوت قالت لي : ائتني بهم ، فأتيت بهم اليها • فأما الصغار فما كانوا يعلمون شيئا ، وأما الكبار فقد أذهلهم الموقف ودلهّهم الحزن فوقفوا جميعا حول سريرها • فرفعت يدها الى الله ودعته لهم وباركت عليهم ثم قبلتهم واحدا بحد واحد وأرسلتهم • ثم قالت لي : «أوصيك ان تكوني لهم أمـــاً» فوعدتها بذلك • فقالت : حمّلت نفسك يا بنيتي بهذا الوعد كثيرا ، فانك لا تدرين ما قلب الأم وما عينها ، ولكن دموع الشكران والامتنان التي طالما سكبتها امامي تدلني على عرفانك معنى الامومة ، وتقديرك عاطفـة الحنان • فهي لبنى امك ذلك القلب الرءوم وتلك العين الكلوء (١٥٩) ، وامنحي أباك اخلاص الوفي وطاعة الزوجة ، فان فيك سلوته وعزاءه» •

ثم طلبت ان تراه ، وكان قد خرج ليخفي عنا ألمه الذي عجز عـــن احتماله • والهف نفسي عليه ! لقد كان الهم يستوقد صدره والالم يمزق أحشاءه • وقد كنتَ يا ألبير في الغرفة ، فسمعت خطاك فسألت من انت • فلما عرفتك أدنتك ، ثم نظرت الينا نظرة تنم على ما في نفسها من الطمأنينة والامل في انا سنكون سعيدين معا • فطوقها ألبير بذراعه وقبلها قائلا : «أجل انا سعيدان ، وسنظل كذلك الى الابد» •

«وكان على ما تعهده فيه من رزانة ورصانة وهدوء مشترك العقــل ذاهب اللب • أما انا فقد ضاع رشدي وغاب صوابي ! فانظر يا فرتر كيف تفقد هذه المرأة الى الابد ! ان من الصعب على النفس ان ترى اعزاءها وأحباءها يغوصون في جوف البلى ويقبرون في ظلام العدم • وأشد

---

١٥٨ ــ زهقت : اسرعت .

١٥٩ ــ العين الكلوء : الراعية الواعية .

الناس احساسا بذلك الاطفال ، فان اخوتي لبثوا بعدها طويلا يألمـــون ويشكون من «ان الرجال السود (١٦٠) قد خطفوا ماما» .

ثم وقفت بالحديث عند هذه الجملة وانتصبت واقفة . فشعرت كأني صحوت من حلم ، وأحسست اني مضطرب المشاعر مبلبل الخاطر ، فبقيت جالسا قابضا على يدها . فقالت : «هيا بنا ، فقد آن لنـــا ان نعود» ، وأرادت ان تجذب يدها اليها فأمسكتها بقوة ثم قلت : «انا سنتراءى ، وتتلاقى ، وتتعارف ، على اية صورة تكون» .

انا مسافر بطوعي واختياري ، ولكنني كلما تذكرت ان ذلك الفراق الى الابد ضاق ذرعي باحتماله .

وداعا يا شرلوت ! وداعا يا ألبير ! انا سنتلاقى .. فقالت بلهجة المازح الطرب : «غدا اظن ؟» فأثارت كلمة «الغد» في نفسي شعورا غريبا لا قبل لي بتصوره . وأسفاه ! انها كانت تجهل ساعة جذبت يدها من يدي ان ... لقد هبطا الى المشى وبقيت جامدا انظر اليهما يبعدان شيئا فشيئا في ضوء القمر ، ثم ارتميت على الارض واستسلمت للبكاء .

ثم نهضت بغتة وعدوت الى اخر المشرف واطلعت فرأيت ثوبهــــا الابيض يلمع في ظلام الزيزفون الباسق وقـــد بلغت باب الحديقة . فبسطت ذراعيّ ، وتدفقت عواطفي من عيني ، ولكنها كانت قد توارت !

---

١٦٠ ــ الرجال السود : يريدون الكهنة .

الجزء الثاني

٢٠ أكتوبر سنة ١٧٧١

بلغت ذلك البلد امس فوجدت السفير معتلا ، ولا يغادر الفراش الا بعد بضعة ايام . لو كان ذلك الرجل على شيء من سماحة الخلق ورقة الحاشية لسار الامر على ما احب . ان المقدور يدخر لي في بطون الغيب ما شاء من أرزاء ومحن ؛ ولكن الله يرزقني الجلد ويلهمني الصبر . والمرء بشيء من قلة الاهتمام يستطيع ان يتحمل كل شيء . قلة الاهتمام! يضحكني ان تسيل هذه الكلمة من يراعي ، وهي لو كانت من خلقي لكنت اليوم أسعد من تظله السماء .

واعجبا ! بينما ارى كثيرين حولي سعداء بكفافهم ، ويتبجحون بكفاياتهم القليلة ، ويفخرون بقرائحهم العليلة ، أقنط انا من قواي وأيأس من مواهبي ! اللهم يا من حباني تلك القوى ومنحني هذه المواهب ! لمَ لم تسلبني شطرها وتبدلني بها ثقة النفس وراحة الفكر

وهدوء البال ؟ صبر جميل ! فسيعذب الورد ويحمد الصدر . قد ادركت صحة رأيك فيما قلت يا صديقي ، فاني منذ القيت نفسي في غمار هؤلاء القوم ، ورأيت ما يعملون وكيف يعملون ، رضيت عـن نفسي وسررت بحالي . لا مرية اننا ما دمنا مفطورين على ان نقارن كل شيء بأنفسنا ، ونقارن انفسنا بكل شيء ، فسعادتنا او شقوتنا تتعلق بتلك الاشياء التي نرتبط بها ونقارنها . ولذلك كانت العزلة أشد الاحوال خطرا علينـــا وأكثرها ضررا بنا ، فان مخيلتنا الوثابة بغريزتها الى درج الكمال ، المهتاجة بما يغذيها الشعر من صور الخيال ، تتصور طبقات الناس كالمدرج ثـم تجعلنا في الدركة السفلى منه ، فيخيل الينا ان كل شيء ما عدانا احسن وأجمل ، وان كل انسان سوانا افضل وأكمل .

ذلك امر قام عليه برهان الطبع ، فانا كثيرا ما نشعر بنقصنا وحاجتنا ، ونظن ان ما نقصناه او فقدناه يملكه انسان اخر ، فنخلع عليه كل مـا نلبس ، ونسدي اليه كل ما نملك ، ثم تتوج ذلك العمل بسعادة خيالية وراحة وهمية تصرف عنه فكرة الاعنات والجهد . وعلى ذلك نجد هذا المخلوق السعيد قد اصبح جماع الفضائـــل التي خلقناها بأنفسنـــا وأوجدناها .

ونقيض ذلك انا اذا سرنا في عملنا غير وانين ولا لاهين وجدنـــا انفسنا على الرغم من مصاعبنا وضعفنا قد شأونا الآخرين ونحن نسـير الهوينى وهم يسيرون بالشراع والمجداف .

وجملة القول ان المرء لا يعرف قيمة نفسه بالحق الا اذا جارت أندادها في مضمار الحياة فلحقتهم او سبقتهم .

٢٦ نوفمبر

بدأت اجد عبء الحياة بالنسبة الى ما مضى ميسور الحمل ، وأرى

في كثرة العمل شاغلا عما بي ، وأبصر في تعدد الوجوه وتجدد الصور مناظر جديدة متنوعة تسلي النفس وتسري الهم .

قد عرفت الكنت د. ج. وهو رجل تزداد له اعظاما وتجلة ، كلما ازددت به عرفانا وخبرة . واسع الاطلاع عميق الفكر غزير المادة ، الا انه على ذلك غير بارد ولا ثقيل . يريك حديثه رقة شعوره وصلاحية نفسه لغراس الصداقة والحب . جذبه الي اني فاوضته ذات يوم في امر كلفت ان أفاوضه فيه ، فرأى من كلماتي الاول اننا متفاهمان متفقان ، وانه يستطيع ان يكلمني بغير ما يكلم به دهماء الناس . ولا يسمح لي حيائي ان أتمدح بما يعاملني به من صدق الاخلاص وصراحة اللهجة . والحق انك لا تجد في العالم لذة اصدق ، ولا مسرة اقوى من ان ترى قلبا خالصا ينفتح امامك ، ونفسا كبيرة تنكشف لك .

٢٤ ديسمبر

طالما آلمني هذا السفير وغمّني ، وذلك ما كنت أتوقعه . انه رجل مأفوك مماحك يعييك ان يتابعك على ما تريد . لا يتقدم الا خطوة خطوة، ثم يتكلف في قوله ، ويدقق في فعله ، دأب العجوز الثرثارة . ومحال ان يرضي نفسه او يرضيه غيره . احب ان اسير على سجيتي في العمل ، وأجري على الهامي في الكتابة ، فأكتب ما اكتب دون تعمل ولا تنقيح . ولكنه يرده الي مشفوعا بتقرير وتعزير كقوله : «انه حسن ، ولكن أعد نظرك فيه ، فان الباحث لا يعدم عبارة احسن ، ولا اداة أدق» فأود حينئذ لو تخطفني الطير او تهوي بي الريح في مكان سحيق ! انه لا يريد ان ينسى علامة وقف ، ولا علامة وصل . وهو ألد العداء للتقديم والتأخير في الكلام كما يقع مني في الغالب . فاذا لم تكن الجمل جارية على سنن

التقليد ، مسوقة على أسلوب الديوان ، استبهم عليه اللفظ واستغلق دونه المعنى . ان العمل مع أمثال هذا الرجل لحمى الروح وأذى القلب . على ان فيما يديه الي الكنت د. ج. من الثقة بي عوضا عن كل هذا . ولقد صارحني منذ ايام بسخطه على هذا السفير لتلكؤه وتنطعه وقال : «ان هؤلاء الناس يكدرون صفو الحياة على انفسهم وعلى غيرهم ، ولكن لا بد ان نلبسهم على خشونتهم ، ونسيغهم على كدورتهم ، كالسائر يعترضه الجبل فلا يجد بدا من اجتيازه . لا ريب ان الطريق بغير هذا الجبل يكون اجمل وأسهل وأنضر ، ولكنه كان ولا بد من اختراقه !

فطن هذا السياسي المتحذلق الى ان الكنت يؤثرني عليه فورم لذلك أنفه ، وأخذ يتحين الفرص ليذكره بالسوء لدي ، فأتصدى للدفاع عنه فلا يزداد الا حنقا وموجدة . لقد استوقد غضبي بالامس اذ رماني انا والكنت بحجر واحد . قال لي : «ان الكنت متقلب في فنون السياسة ، متصرف في ضروب الكتابة ، متدرب اليد على العمل ، ولكنما يعوزه الرسوخ في العلم والضلاعة فيه ، وتلك حال الادباء اجمعين» ، القى هذه الكلمات بلهجة وهيئة تعبر عنهما هذه الجملة : «هل تشعر بهذا السهم ؟» على ان سهمه قد طاش وسيفه قد نبا . فاني أحتقر من يفكر ويعمل على نحو ما يفعل هذا الرجل .

رددت عليه قوله غضبان محتدا بأن الكنت أجدر بكل اعظام وتجلة لسمو اخلاقه وسعة مداركه ، ولم تر عيني رجلا مثله قد وسع فكره بأشتات العلوم ، وملأ ذهنه بمختلف الاشياء ، دون ان يفقد نشاطه للاعمال العادية .

ولكن هذا الكلام كان على ذهنه المغلق وفكره البليد اشبه بالعبرية او الجبر . ثم انصرفت خشية ان يطيل في هذا الهراء فيمك روحي [1]

---

١ ــ يمك روحي : ينزفها ، من قولهم مك المخ : مصه جميعه .

ويفت كبدي • هذه جريمتكم ايها الذين أكرهتموني على حمل هذا النير بالحاحكم علي بالاشتغال ونصحكم الي بالعمل • وأي عمل في هذا ؟ انا أقبل ان أجدف (٢) عشر سنين دأبا في هذه السفينة الملعونة اتي قيدت بها اذا لم يكن الرجل الذي يزرع البطاطس ويذهب على جواده الى المدينة ليبيع ثمره ابلغ مني سعيا وأكثر عملا •

ناهيكم بهذا الشقاء البراق وتلك الاقامة المشئومة بين هؤلاء الاوغاد الذين يتفانون في السبق ، ويتهالكون على التقدم ، ويرائي كل منهم الاخر ويسقطه ليتقدم عليه خطوة ، او ينال دونه حظوة •

ان أسفل الشهوات وأحقر الاهواء لتتجلى في هذه البيئة من غير نقاب ولا حجاب • وأذكر لك على سبيل المثال امرأة من نساء هذا البلد لا تفتأ تحدث الناس عن شرف اصلها واتساع اراضيها حتى لا يتمالك من لم يعرفها ان يقول في نفسه : «ما لهذه البلهاء تستطيل عجبا وتميس اختيالا بكرم مولدها وشهرة ضياعها ؟» ولكن افظع من ذلك وأشنع انها لم تكن الا بنت كاتب من كتّاب المحكمة في احدى الضواحي !

انا لا أفهم كيف تبلغ البلادة والغفلة بالجنس البشري ان يهبط الى هذا الدرك الاسفل من الضعة • تزيدني الايام علما يا صديقي ان من الحمق ان يقيس الانسان غيره على نفسه • كل له في نفسه ملهاة ومشغلة • وان أشد ما يشغلني لهو تهدئة قلبي الثائر وتسكين نفسي المضطربة • ما لي وللناس ؟ لا جرم اني أدعهم يسيرون كما يشاءون ما داموا لا يقفون في سبيلي ، ولا يسعون في تضليلي • على ان آلم الاشياء لنفسي،

---

٢ — يشبه نفسه في عمله الشاق بالمجرمين الذين كانوا قديما يعاقبون بالتجديف في سفن الحكومة Galères de L'étas أزمنة مختلفة .

وأشدها اثارة لحنقي ، ذلك التمايز القبيح بين طبقات المجتمع • أجل اني اعلم ما يعلمه الناس من ضرورة هذا التباين وما يجديه علينا من النفع ، ويسديه الينا من الخير • ولكنني لا اريد ان يكون عقبة كأداء في سبيل القليل من السعادة التي يستطيع المرء ان يتذوقها في هذه الحياة •

عرفت منذ قليل في بعض منتزهاتي الآنسة ب• وهي فتاة رقيقـــة الشمائل انيسة الطلعة ، قد سار اكثر اخلاقها مع الطبع في وسط هذه الخلائق المتصنعة والخلال المتكلفة • تحادثنا فأعجب كل منا الآخر • ولما صافحتني للوداع استأذنتها ان ازورها فسمحت بذلك عن فضل واسـع ونفس طيبة ، حتى لم استطع تأخير الزيـــــارة الى الوقت الملائم الا بعد لأي •

لم تكن الآنسة من هذه المدينة ، وانما كانت تقيم عند عمة لها شمطاء لم تقع من قلبي موقعا حسنا • على انني بالغت في الالتفات اليها وأقبلت بأكثر الاحاديث عليها ، فحزرت من امرها في أقل من نصف ساعة مـــا كاشفتني به الحفيدة بعد •

علمت من حال هذه المرأة انها لم تجد في شيخوختها عطفا من الناس ولا ولاء ، ولم تملك على الكبر ثراء ولا ذكاء ، فلم يكن لها سند غير أثيل منبتها وكرم نسبها ، ولا مأوى لها غير سياج من الشرف ضربته من حولها ، ولا لذة غير ان ترمي الناس بنظرات الاحتقار من شرفة بيتهـــا • وقد قيل انها كانت في شبابها جميلة ، وانها قضت عمرها الاول في السرف والترف فعذبت بدلالها وتجنيها كثيرا من الفتيان المساكين • ولما ذوى شبابها وتصوّح وضعت عن منكبها رداء الزهو وبذلت مقادتها لضابط هرم فجازاها على استكانتها وطاعتها بالعيش معها عهد الكهولة حتى غالبها الموت عليه فعاشت في برودة الشيخوخة منبوذة وحيدة ولولا دماثة طبع الحفيدة ما التفت الى العجوز احد •

٨ يناير سنة ١٧٧٢

عجبا لاولئك القوم الذين يتشبثون بالمواضعات ، ويتعلقون بالرسميات، فيصرفون عقولهم وجهودهم طول السنين في استنباط الوسائل للانتقال من كرسي [٣] متأخر الى كرسي متقدم على المائدة ! لا تحسبن اشتغالهم بتلك المحاقر لانهم لم يجدوا ما يشتغلون به ، فان اهتمامهم بها وانصرافهم اليها اذهلهم عن انجاز الاعمال الخطيرة المتراكمة لديهم ، وعاقهم عن تأدية الامور الكثيرة الواجبة عليهم •

كنا في الاسبوع الماضي في سباق على الجليد بالزحافات ، فحدث من تنافس القوم في التصدر ، وتكالبهم على التقدم شجار عنيف كدر صفو الحفلة وأفسد نظام السباق • ألا يعلم اولئك الحمقى ان قيمة المرء بما يعمله ، وأن عظمة المنصب فيمن يشغله ، وان الاقدار لا تقاس بالرتب ما دمنا نرى ذوي المراتب الرفيعة لا يقومون في الاكثر الا بالاعمال الوضيعة ؟ كم ملوك يقودهم الوزراء ! وكم وزراء يقودهم الكتاب ! فقل لي بربك أي الثلاثة ارفع شأنا وأسمى مقاما ؟ ان ارفع هؤلاء على ما ارى من كان ابعدهم في المشكلات نظرا • وأثقبهم في الملمات فكرا ، وأقدرهم على ان يستخدم بحوله وحيلته قوى الآخرين وأهواءهم في تنفيذ اغراضه وتحقيق مقاصده •

٢٠ يناير

الآن أكتب اليك ولا بد يا عزيزتي شرلوت في فندق حقير خارج المدينة

---

٣ — من قواعد المدنية الغربية ان يجلس الناس على كراسي المائدة حسب اقدارهم . فمن كان أدنى الى رئيس المائدة كان أدنى الى الشرف من غيره .

قد لجأت اليه من تغيير الجو واشتداد الهواء . وقد قضيت زمانا في هذه المدينة الكالحة مدينة د. وأنا هائم بين قوم غرباء عني لا تجمعني واياهم عاطفة ، ولا تدنيهم من قلبي مودة ، وما شعرت لحظة واحدة بالحاجة الى الكتابة اليك . ولكني لم اكد أحل هذا الكوخ الضيق المنعزل وأرى قطع الثلج وحبات البرد تسفع نافذتي الصغيرة حتى كنت اول فكري ومبدأ خاطري . أجل يا شرلوت ! لم اكد ادخل هذا المكان حتى تمثلت صورتك وذكراك في ذهني ، فاستوليا على نفسي وهاجتا في قلبي شعورا ساميا وأثرا عظيما .

لك الحمد يا الله ! تلك اول مرة ظفرت فيها بلحظة من لحظـــات السعادة الاولى . آه ! لو كنت رأيتني يا حبيبتي وأنا سابح في لجـــج الذهول والغفلة ، ورأيت كيف ذوى كل شيء في نفسي وجف !

لم يبق لي لحظة من تلك اللحظات التي تفيض على القلب الحيـــاة والقوة ، ولا ساعة من تلك الساعات التي تشعر النفس بالسعادة واللذة ! هيهات لم يبق من ذلك شيء ! يخيل الي اني ماثل امام مشهد من خيال الظل ارى رجالا صغارا وخيولا صغارا يسرون امام عيني سراعا . فأسأل نفسي : «أما ذلك وهم مجسّد منظور ؟» على انني أمثل دوري بنفسي مع هؤلاء الاشباح ؛ وبالحري هم يتخذونني لعبة تتحرك بارادتهم . وكثيرا ما تناولت يد جاري فأجدها خشنة فأتراجع فزعا مرتاعا !

وعدت نفسي في الليل ان أسرها برؤية الشمس بازغة ؛ فلما دنـــا الصباح لم أستطع ان اقطع العزم على ترك السرير . وفي النهار منّيتها ان أمتعها بمنظر القمر مضيئا ؛ فلما أقبل المساء لم اجد ما يحملني على ترك الغرفة . انا لا أعلم يقينا لماذا أستيقظ ولماذا ارقد ؟ لقد عدم ذلك العنصر الذي كان يبعث في نفسي الحياة والحركة ، وفني ذلك السحر الذي كان يعقد طرفي بطرف النجم في جوف الليل ، وينزعني من أحضان الكرى

في عرة الصبح .

لم اجد في هذا البلد من يستحق ان يدعى امرأة غير الآنسة ب. انها تشبهك يا عزيزتي شرلوت لو كان في الامكان ان يعلق بك شبه او يوجد لك مثال . الان تقولين متعجبة : «ها هوذا ايضا قد اخذ يسلك سبيل المجاملة والملاطفة !» انك اذا قلت هذا لا تبعدين كثيرا عن الحق . فقد اصبحت منذ زمن حلو المعاشرة بارع الظرف لاني لم استطع ان اكون غير ذلك . فأنا في الحديث يقظ الفؤاد سريع الفطنة ، ويقول السيدات اني أقدر الناس على تدبيج المدح وتنسيق الثناء (اضيفي الى ذلك اني أقدرهم على الكذب ؛ فان المرء كما تعلمين لا يجيد المدح الا به) .

كنت أريد ان أحدثك عن الآنسة ب. وعن نفسها الجميلة الجليلة التي تتمثل بأسرها في عينيها الزرقاوين . ان مقامها السامي عبء ثقيل عليها ، لانها لم تبلغ به رضا القلب ولا روح الضمير . انها ترغب في الخروج عن هذه الضوضاء الى الخلاء وسكونه . وكم ساعة قضيناها بين الحقول ننشد السعادة الخالصة والسرور المحض ! وقد كان ذكرك يا شرلوت ريحانة المجلس وروح الحديث . آه ! كم مرة اجبرتها على اكبارك واجلالك ! أستغفر الله ما اجبرتها ولا اكرهتها ؛ انما تجلك من ذات نفسها عن طوع وايثار : انها تحبك ، ويسرها ان تسمع الاحاديث عنك : آه ما أشوق القلب الى جلسة في تلك الغرفة العزيزة الصغيرة وأطفالنا الاعزاء يطفرون حولي من المرح ! لقد كنت اذا ما برمت انت بضوضائهم أجمعهم ثم أحملهم على السكون والسكوت بحكايات مؤثرة مخيفة !

الشمس تغرب في جلال وبهجة وراء التلاع [4] البراقة ببياض الثلج،

---

٤ ــ التلاع جمع تلعة وهي القطعة المرتفعة من الارض .

والعاصفة قد هدأت • وأنا ؛ لا بد ان اعود الى قفصي • استودعك الله! ألبير بالقرب منك ؟ وكيف ؟ غفر الله لي هذا السؤال •

٨ فبراير

مضت ثمانية ايام والرياح عاصفة والسحب واكفة • وتلك حال تسرني وترضيني • لاني منذ حللت هذا البلد لم يطلع علي نهار ضاح جميل ، الا كدره او سممه علي ثقيل • اما الان فالسماء اذا امطرت او اثلجت ، والارض اذا جلدت او ذاب جليدها ، قلت في نفسي : «لا بأس! ليس الامر في البيت بأردأ منه في خارجه» •

اذا اسفر طلوع الشمس عن يوم صحو لا أتمالك ان اصيح : هاك نعمة من الله سيسلبها كل من كل ، وينغصها بعض على بعض ! ليس في العالم شيء لم يتحاسدوا عليه ولم يتنازعوه : الصحة والسمعة والمسرة والراحة ! وأغلب ما يصدر ذلك منهم عن سخافة عقل وقصر نظر وضيق فكر • ولئن سألتهم عن ذلك ليقولن انما فعلناه عن نية حسنة وطوية خالصة • انه ليقوم بنفسي احيانا ان اجثو امامهم تضرعا اليهم ألا يمزقوا أحشاءهم ، وألا يحرقوا دماءهم ، بذلك الاسراف في الغضب •

١٧ فبراير

أخشى ألا استطيع البقاء مع السفير طويلا • فان هذا الرجل ثقيل لا يحتمل ، وطريقته في العمل وفي ادارته سخيفة مضحكة ، حتى ليعوزني الصبر فأسفهه وأفنده ، او اقضي الامر على ما ارسمه وأقصده ، وذلك بالطبع لا يرضيه • شكاني اخيرا الى البلاط فوبخني الوزير توبيخا لينا رقيقا الا انه على كل حال توبيخ • فهممت ان أستقيل لولا ألقي الي كتاب

خاص من الوزير لم أتمالك حين قرأته ان استكنت اجلالا لما فيه من عاطفة سامية وحكمة بالغة : لامني فيه على فرط انفعالي وشدة تأثري ، ولم ينكر علي افكاري الحماسية المتطرفة ، ولا هيمنتي على غيري من العاملين ، ولا طمعي ان انال مكانة ظاهرة في العمل ، بل عزا كل ذلك الى نشاط الشباب المحمود ؛ ولم يرد ان يكسر من شرته ، بل اراد ان يلطفه ويعطفه الى الغاية التي يحسن فيها استعماله ، ويحمد عندها مآله.

بعث في هذا الكتاب قوة الصبر على ثمانية ايام أخر ، وجعلني بعد ذلك على وفاق وسلام مع نفسي .. ان رخاء البال ورضا المرء عن نفسه لهما الفوز العظيم والسعادة الحق . آه يا صديقي لو لم تكن هذه الحلية هشة المكسر على قدر جمالها ونفاستها !

٢٠ فبراير

بالرفاء والبنين يا حبيبيّ العزيزين ! بارك الله عليكما ومتعكما بما حرمني اياه من الايام السعيدة والعيش الرغيد !

لك الشكر يا ألبير على خديعتك اياي ، فقد كنت انتظر اعلان يوم زواجكما ، وكان في عزمي ان ارفع صورة شرلوت من الحائط في ذلك اليوم باحتفال وأواريها في بعض الاوراق . وها انتما ذان قد اقترنتما ولا تزال هذه الصورة في مكانها . وستبقى فيه ابد الدهر ! ولم لا تبقى وأنا أعلم دون ان أسيء اليك اني عندك ايضا في قلب شرلوت ؟ وأعلم كذلك ان لي فيه المحل الثاني ، وأريد بل يجب ان احتفظ به . واويلتاه ان حاولت شرلوت ان تنسى !.. هذه الفكرة يا ألبير هي العذاب المقيم في نار الجحيم . ألبير وداعا ! وداعا يا ملاك السماء ! وداعا يا شرلوت !

١٥ مارس

لحقتني في هذا البلد اهانة لا يستقر لي معها قرار ولا تطيب لي بعدها اقامة : اهانة بت لها قائما قاعدا أزفر من الغيظ وأنفث من الغضب • وهيهات ان اجد عنها عزاء ، او أعرف لها دواء ! وأنتم سبب ذلك كله ايها الذين دفعوني وحرضوني على قبول عمل ليس لي ولست له • شغلته تحقيقا لاملكم فنلت منه ما أستحق ، وأفدت به ما أستوجب: فطيبوا نفسا واطمئنوا !

لا تقل كعادتك ان افكاري المتطرفة هي التي افسدت كل شيء • فدونك الحادثة يا سيدي العزيز أسوقها اليك بسيطة واضحة كما يسوقها مسجل الحوادث في جريدته •

كل يعلم ان الكنت د• ج• يحبني ويجلني ، وقد قلت لك ذلك مائة مرة • دعاني الى العشاء معه امس ، وكان ذلك يوم اجتماع النبلاء للسمر عنده • لم أفكر في هذا علم الله ولم يدر في خلدي ان الرسميات تحرم علينا معشر المرؤوسين ان نجالس اولئك السادة ! لا بأس ! فبعد ان فرغنا من الطعام انتقلنا الى القاعة الكبرى وأخذنا نتمشى فيها طولا وعرضا ونحن نتجاذب اهداب الحديث • ودخل علينا في غضون المحادثة الكولونيل ب• فتشقق الكلام واتسع نطاق السمر • أزف وقت الاجتماع وأوشك ان يفد السامرون ، وأنا لا ازال — شهد الله — خالي الذهن من كل شيء • فتح الباب ودخلت ذات الرفعة والسلطان السيدة د• س• ومعها زوجها النبيل وابنتها القوية الغبية ذات الصدر المسطوح والخصر الأهيف ، فنظروا الي حين مروا علي مزدرين ، وزموا [٥] بأنوفهم مستكبرين ، كدأب السادة العظماء !

---

٥ — زموا بأنوفهم : شمخوا بها كبرا وصلفا .

انا أكره هذا الجنس باخلاص، ولا احب ان يجمعني بأفراده مجلس. فانتظرت ريثما يخلص الكنت من ثرثرتهم الغثة الباردة ثم أستأذنه في الانصراف . بيد اني آثرت البقاء حينما رأيت الآنسة دي ب. داخلة ، لاني اشعر لدى مرآها بشيء من سرور النفس وانشراح الصدر. جلست وراء كرسيها ثم طارحتها الحديث فكلمتني على غير عادتها بلهجة متكلفة غير صريحة ، فيها شيء من التأفف والضجر ، فنال ذلك مني وقلت في نفسي : «أهي ايضا على اخلاق هؤلاء ؟» ثم هممت بالخروج لما نالني من الهون . غير اني بقيت طمعا في تسويغ فعلها ، ورغبة في استماع جميل قولها ، وأملا في ان اكون انا الواهم المخدوع .

اخذ عقد الجلوس يتسع بالوافدين شيئا فشيئا ، ورأيت فيمن أقبل البارون ف. وعليه كل ما في صوانه (٦) من ثياب يرجع عهدها الى تتويج العاهل فرنسوا الاول . وكذلك مستشار البلاط .. الذي وسموه بألقاب الشرف ، جاء ومعه امرأته الصماء . ولا تنس المسكين ج. ؛ فقد كان هندامه المشيأ (٧) مضحكة للناس ، اذ سد ما أعوزه من الثياب على الطراز القوطي بخرق لا قيمة لها من الطراز الحديث . ولا أطيل عليك فقد جاء القوم كراديس وأخذوا مواضعهم من المجلس . وأقبلت على بعض معارفي أحادثهم فوجدت منهم فتورا عن الحديث وايجازا في الجواب . ففكرت ثم فكرت ، ولكني لم ألق بالي الا الى الآنسة ب. فما لاحظت ان النساء الجالسات في اخر القاعة كن يتساررن، وان مسارتهن دارت حتى بلغت آذان الرجال ، وان السيدة س. كانت تفاوض الكنت . كل ذلك لم افطن له وانما حدثتني به الآنسة ب. بعد.

---

٦ ــ الصوان : وعاء الثياب «الدولاب» .
٧ ــ المشيأ : المختلف القبيح .

وآخر الامر ان الكنت تقدم الي واتبذ بي ناحية الشباك وقال : انك لا تجهل ما في عاداتنا من الغرابة والشذوذ . وقد لاحظت ان القوم لا يروقهم وجودك بينهم ، ولكني لا اريد مع ذلك .. فقاطعته قائلا : أستغفرك يا صاحب السعادة الف مرة ! فقد كان حقا علي ان أفكر في ذلك من قبل . ولكنك ستبسط على نزقي جناح عفوك . ولا اكــــذب الله فقد نويت الخروج منذ قليل فعاقني الشيطان اللعين عن ذلك . قلت هذه الجملـــة باسما ثم انحنيت اليه مودعا ، فأحنى الرجل وهو من تأثره في حال تنم على مكنون صدره . وانسللت من هذه الجماعة الجليلة وركبت مركبة أقلتني الى م. فجلست فوق الربوة أشاهد مغرب الشمس وأقرأ لهوميروس ذلك النشيد الجميل الذي يذكر فيه كيف نزل أردسيوس ضيفا كريما على راع فاضل من رعاة الخنازير ، فسري عني . ثم أبت في المساء الى العشاء فدخلت المطعم ولم يبق في قاعته غير نفر يلعبون «بالزهر» على أركان المائدة بعد ان رفعوا طرف الخوان . ولم يكد يستقر بي المقام حتى أقبل الفاضل «أدلين» فعلق قبعته على المشجب وهو ينظر الي . ثم قــــال بصوت خافت : هل اعتراك امتعاض وابتئاس ؟ فقلت له : انا ؟ فقال : نعم حين حملك الكنت على ان تفارق الجماعة . فصحت به قائلا : قاتلها الله من جماعة ! لقد وجدتني أسعد نفسا وأحمد حالا في الهواء الطلق . فقال : يسرني ان ترى الاشياء من جهاتها الحسنة ، ولكن يسوءني ان الخبر قد سار على الافواه فتناقلته الاندية ، واضطربت به الالسنة !

حينئذ بدأت أمتعض ، وأخذت كلما دخل المطعم انسان ونظر الــي ظننت ان هذه النظرة لتلك المسألة ، فيجيش صدري من الغيظ ويغلي دمي من الحنق . وأنكى من ذلك اني اليوم اينما أوجه أر من يرثي لي ويشفق علي . وأعلم ان حسادي ومنافسي يبدون الشماتة ويظهرون الغلب ويقولون : «انظروا كيف كانت عاقبة هؤلاء الادعياء الذين يتبجحــون

بالنزر اليسير الذي أوتوه من الذكاء ، ويحسبون ان لهم الحق في ان يضعوا انفسهم فوق كل اعتبار !» الى غير ذلك من الهراء القبيح . مَن من الناس يسمع هذا القول ولا يتمنى ان تخترق أحشاءه مدية قاطعة ؟ قولوا ما شئتم في تمجيد الاعتدال وضبط النفس ، ولكن اروني من يستطيع الصبر على سفلة يسمّعون [٨] به ويمرجون [٩] ألسنتهم في عرضه ، وقد تمكنوا منه ، ووجدوا السبيل الى دحض حجته ؟ آه ! لو كان كلامهم واهي الاساس فاسد المعنى لهان على المرء ان يسخر منه ، ويجعل في اذنه وقرا عنه !

١٦ مارس

كل ما حواليّ الب علي ، يوقد صدري بالغضب ويفت كبدي بالغيظ : اليوم قابلت الآنسة دي ب. في طريقي الى النزهة فلم أتمالك ان دنوت منها ، وملت عن الناس بها ، ثم شرحت لها ما أحدثه سلوكها معي يوم امس من الاذى والالم . فقالت لي وهي منفعلة ثائرة : كيف استطعت يا فرتر ان تفسر اضطرابي هذا التفسير وأنت تعلم قلبي ؟ الله يعلم كم تألمت من اجلك منذ دخلت البهو ! وقد كنت أتوقع حدوث ما حدث . وكثيرا ما هممت ان أنبهك له . كنت أعلم ان السيدتين دي س. ودي ت. ، وبعليهما كانوا يؤثرون الخروج على ان يضمهم واياك منتدى واحد . وأعلم ان الكنت لا يجرؤ على خصامهم ، ولا يقدر على دفع كلامهم . ولا تسل الآن عن الفضيحة المستطيرة ، والقالة المستفيضة ! فذكرني كلامها ما

٨ ــ سمع به : اذاع عنه عيبا وفضحه .
٩ ــ مرج لسانه في عرضه : أطلقه في ذمه واغتيابه .

قاله أدلين ليلة البارحة فكأنما تدفق في عروقي ماء حميم [١٠] . ولكني امسكت على ما في نفسي من القلق وقلت لها : ماذا تريدين ان تقولي ايتها الآنسة ؟ فقالت تلك الفتاة الفاضلة والدمع يجول في عينيها : لشد ما شق علي هذا الامر ! فطار عقلي وجن جنوني وأوشكت ان اترامى على قدميها ثم ناديتها : «بربك لتفصحين عما تضمرين» فغيَّضت من عبراتها المسيلة ولم تحاول اخفاءها ثم قالت : «انت تعرف عمتي ! لقد كانت فيمن حضر هذا الجمع ورأى هذا المشهد . رأته ولكن بأي عين ! وتكلمت فيه ولكن بأي لسان ! فرتر ! لقد انحت علي باللوم ، في مساء الامس وصباح اليوم ، على صلتي بك . وقضى الله ان تحتقر وتهان سمع اذني ولا استطيع الدفاع عنك الا قليلا» .

كانت كل كلمة من كلماتها أشد وقعا على قلبي من طعنة خنجر . وما كانت تدري ان الواجب عليها ان تستر هذه الاشياء رحمة بي واشفاقا علي . مضت في كلامها تذكر كيف أرجف الناس بهذا الامر وخاضوا فيه . وكيف قامت طائفة تنتصر بهذه الحادثة وتبتهج ، وتعدها عقابا على ادعائي وصلفي وقلة اكتراثي بالناس ، وذلك ما لاموني عليه منذ طويل . شديد علي ان اسمع كل ذلك من فمها يا وليم بتلك اللهجة الصادقة المخلصة ! لقد اضمحلت قواي ولا ازال موغر الصدر مسعور الفؤاد . وكنت أتمنى لو ان انسانا جرؤ على مواجهتي بهذا الكلام حتى أخترق أحشاءه بالسيف ، فان منظر الدماء كان يشفي صدري ويطفىء غليلي .

آه ! كم مرة تناولت الخنجر لأريح قلبي من العبء الذي يبهظه ! لقد قيل ان في الخيول جنسا كريما اذا سار ملء فروجه [١١] وأحماه الطراد

---

١٠ ــ حميم : ساخن .

١١ ــ الفروج : ما بين قوائم الفرس . وسار ملء فروجه اذا عدا عدوا شديدا .

فصد بأسنانه احد أوردته حتى لا يختنق • ولطالما احسست ذلك من نفسي فأود ان اقطع لي وريدا لاجد الحرية الابدية والراحة الدائمة •

٢٤ مارس

رفعت الى القصر استقالتي من العمل وأرجو ان يقبلوها • وأسألك الصفح عما فعلت من غير اذنك ، فان رحيلي عن هذه الديار اصبح محتوما • على انني أعلم ما كنت تقوله لتقنعني بالبقاء لو استشرتك • اجتهد ان تخفف وقع هذا الخبر على امي وأن تسيغها غصته برفق وهوادة • انا لا املك لنفسي شيئا ، فلم لا تعذرني هي اذا لم أملكه لها ايضا ؟ لا جرم ان ذلك سيؤلمها جد الالم • نعم يؤلمها ان ترى ولدها وهو في مبدأ الطريق الى دار الاستشارة او دار السفارة ، قد وقف بغتة ثم رجع أدراجه فأدخل جواده في الاصطبل • سم ذلك بما تشاء من الفروض واذكر الظروف التي كانت تسمح لي بالبقاء أو تحتمه علي ، فقد قضي الامر وأفد الوقت وحق السفر • واذا عناك ان تعرف الى اين اذهب فاعلم ان الامير «دي» هنا ويسره ان اكون معه • وقد عرض علي منذ عرف استقالتي ان أصحبه الى ضيعته فأقضي بها فصل الربيع • وسأكون هناك حرا في نفسي مالكا لامري كما وعدني • واذا كنت انا وهو على اتفاق في بعض الامور فسأغامر في الحظ عنده وأعزم السفر معه •

١٩ ابريل

لك الشكر على رسالتيك ولي العذر في الابطاء عن جوابيهما ، فقد

انتظرت بالرد ريثما انال من السفارة اقالتي ، اذ كنت اخشى ان امـي تتوسل الى الوزير فتكسر من ذرعي [١٢] وتقف دون مرامي • وقد قضي الامر وجاءت الاقالة • ولا اذكر لك ما تبعها من شدة اسفهم علي ، وما كتبه الوزير في هذا الصدد الي ، مخافة ان تعظم شكواك ويضيق من عذري عندك ما اتسع • ان ولي العهد ارسل الي خمسا وعشرين دوقية تقدمة الوداع مع كلمة مؤثرة حركت قلبي وأسالت دموعي • اذن لا حاجة لي بالمال الذي طلبته من امي في كتابي الاخير •

٥ مايـو

سأرحل غدا من هذا البلد • وسأعرج على مسقط رأسي فأزور مغانيها وأقضي عهودها ، فانها على ستة أميال من الطريق فحسب • سأزورها وأستذكر ذلك العيش الغرير وتلك الايام السعيدة التي قضيناها فـي ظلال الامن والشمل جامع والحبل متصل ! تلك الايام التي مرت كحلم الوسنان او جلسة المختلس !

سأدخل هذه الديار العزيزة المأنوسة من الباب الذي خرجت منه مع امي يوم غادرناها بعد موت ابي لنحتبس في مدينتكم الثقيلة الوبيلة • وداعا يا وليم ! سأوافيك بأخبار رحلتي من حين الى حين •

٩ مايـو

أديت فريضة الحج الى مسقط رأسي بقلب الحاج الورع والعابـد

---

١٢ ـ كسر من ذرعه : ثبطه عن عزمه .

المتحنث . ولكم انبعث في قلبي من العواطف ما لم اكن أتوقعه !

لما بلغت سرحة الزيزفون القائمة فوق طريق س. على ربع فرسخ من المدينة ، نزلت من المركبة وأمرت الحوذي ان يسير وحده ، فاني اريد ان اسير وراء قلبي راجلا أتذوق جمال تلك الذكر وأنشق أريج هـــذي العهود . وقفت تحت هذه الدوحة التي كانت في طفولتي غاية لنزهتي وحدّاً لمسيري .

يا لله ! لشد ما تغير كل شيء ! لقد كنت في تلك الايام وأنا فـي نعيم الجهالة أتمنى لو أنغمس في هذا العالم المجهول رجاة ان انال فيه ما لم أنله من رغبات النفس ولذاذات العيش وأماني القلب ! وهأنذا اليوم عائد من ذلك العالم الفسيح وما بين جنبيّ غـير اخفاق المسعـــى وخيبة الامل !

بدا امامي ذلك الجبل الذي كان منتجع خاطري ومهوى فؤادي ، ذلك الجبل الذي كنت اقضي به الساعات قاعدا أشاهده وقلبي هائـــج وفكري وثّاب يحملني الى ما وراء الهضاب ، ويضللني في ظلام الغاب ، ويتيه بي في تلك الاودية التي كانت تجلى لعيني فتانة ضاحكة تحت نقاب من ضباب البعد . فاذا ما حان وقت الرجوع تقطعت نفسي حسرات على ترك هذا المكان العزيز علي .

اقتربت من المدينة فحييت المنازل والحدائق التي أعهدها . اما مـا استحدث من المساكن او تغير منها فلم يقم من قلبي موقع الرضا .

ولم اكد أجاوز باب المدينة حتى وجدت ما فقد من نفسي ، وعرفت ما انكرت من سائري . ولا اريد ان اشرح لك بالتفصيل كل ما أحس وأرى ، فان ذلك يكسب الحكاية من التشابه والتشاكل بقدر ما يكسبني من الانفعال والتأثر . عقدت النية على ان انزل في دار على ميـــدان السوق بجانب دارنا القديمة . فلما اجزت الساحة ذاهبا اليها لاحظت ان

المدرسة التي كانت تكدسنا فيها تلك العجوز البرة ونحن صغار كما تكدس الشاء في حظائرها قد تحولت الى حانوت بدّال . وتذكرت ما كنت أعانيه قديما في هذا القفص من اضطراب البال ، وانسكاب الدمع ، وضيق الصدر ، وتبريح الهم .

ولم أخط خطوة الا وجدت أثرا باقيا او تذكارا ساميا يملك القلب ويصبي المشاعر . وما الحاج الى الارض المقدسة بواجد ما وجدت من جليل الاثر وجميل الذكر في تلك البقاع الطاهرة المباركة . خذ مثالا واحدا من الف : انحدرت في النهر حتى بلغت مزرعة كنت اغشاها فيما مضى كثيرا مع رفقتي ولداتي فنتبارى في قذف الحجارة على سطح النهر لنرى أيها اجمل وثوبا على صفحة مائه . فمر بخاطري ذكرى الساعات التي قضيتها هناك واقفا على شاطىء النهر أحدج ماءه بنظري ، وأساير تياره بفكري : أشيعه الى ما يمر به ويرويه من تلك الانظار التي تتجلى في الذهن على أبدع ما يتصوره الخيال من الالوان والصور . ولكن سرعان ما يعوق الفكر ضيق التصور وحدود المخيلة فيقف . فأحثه على امعان السير وايغال التقدم فيسير حتى أضل بأسري في بعد شاسع لا ينظر ولا يدرك .

كذلك يا صديقي كانت الحدود الضيقة التي عاش بينها آباؤنا الاولون سعداء رافهين تظهر على شعورهم وشعرهم مسحة السذاجة وآثار الطفولة . لله در «أوليس» حين يتحدث عن البحر لا غور له ولا حد ، وعن الارض لم يطمثها من قبل انس ولا جن ! لله ما أصدق كلامه وأعمقه وأليقه بالانسان ! ماذا يفيدني ان اقول اليوم مع كل تلميذ ان الارض كرة ؟ وهل يحتاج المرء الا الى قطعة يسكن اليها في حياته ، والى حفرة يرتاح فيها بعد مماته ؟

انا الان في قصر الصيد اعيش مع الامير على خير حال وأحسنها .

ان هذا الرجل مثال الاخلاص والسذاجة ! الا انه محاط بشرذمة غريبة لا افهم لها مذهبا ولا خلقا . لا تظهر عليهم علائم الاحتيال والخب ، ولكنك لا تقرأ في وجوههم آية الصلاح والفضل . وقد أتوسم فيهم معنى الاخلاص احيانا ولكني لا اثق بهم ولا أطمئن اليهم . على ان الشيء الذي يسوءني هو ان الامير لا يذكر غالبا الا ما يسمعه او يقرأه ، ولا تراه يتزحزح قيد اصبع عما اكتسبه من السماع او القراءة ، ولا ينظر الى ابعد مما اراه غيره . وأشد من ذلك علي انه يكبر عقلي اكثر مما يكبر قلبي ؛ وقلبي هو مصدر كبريائي وعجابي ومنبع كل شيء فيّ : هو منبع كل قوة وكل غبطة وكل ألم ..

الا ان العلم الذي اعرفه يستطيع كل ان يجمعه ويحصله ، ولكن القلب الذي احمله لا يتسنى لغيري ان يحمله .

٢٥ مايو

كان في رأسي خطة طويتها عنك ريثما تتحقق وتنفذ . اما الان وقد حيل دونها فليس ثمت ما يمنعني من ذكرها . كنت مزمعا الدخول في الجندية ، وكان هذا الغرض في نفسي من زمن بعيد ، فلما عرفت الامير كان اول ما دفعني الى اتباعه تحقيق هذا العزم لانه قائد في جيش روسيا . ولكني لم اكد أكشف له عن هذا الرأي حتى زهدني فيه وصدني عنه . وليس الامر صادرا عن هوى مستحكم او حاجة داعية حتى أحمل نفسي على مراجعته او مخالفته .

١١ يوليو

قل ما بدا لك فهيهات ان ابقى هنا اكثر مما بقيت . وهل لي في هذا

المكان عمل ؟ لقد تولاني السأم وثقل علي الزمن وأرى الامير يعاملني معاملة النظير ، ويكرمني اكرام العشير ، الا انني مع ذلك لم اكن في الموضع الذي أستنسبه ، ولم ابلغ المورد الذي أستعذبه . ولست في الامر معه على سواء ؛ فليس من شكلي ولا من هواي . أجل انه رجل ذكي ، ولكن ذكاءه عادي ، فلا يمتعني حديثه اكثر مما يمتعني كتاب محكم الوضع . سأقيم هنا ثمانية ايام أخر ، ثم أستأنف حياة الظعن والتجول . وخير ما صنعته في هذا المقام عنايتي بالتصوير وحسن أثري فيه . فان للامير هوى في الفن وميلا اليه . ولكنه يقيد نفسه بالقواعد العلمية والاصطلاحات الفنية ، ولولا ذلك لكان فنانا قديرا : يحدث في الغالب اني اكون منتقد المخيلة مضطرم الحواس أنقله من حقول الطبيعة الى رياض الفن ، وأريه روائع الجمال الطبيعي وبدائع الفن الطليق ، اذا به يرمي خلال الطريق كلمة اصطلاحية (مدموغة) حاسبا انه يفري [13] الفري ويأتي بالعجب ، فيجرضني [14] بريقي ، ويسد علي طريقي !

١٦ يوليو

اي وربي انه لحق ! لست على هذه الارض الا جوّابة رحّالة ! وليت شعري هل انت الا كذلك ؟!

١٨ يوليو

أتدري الى اين عزمت المسير ؟ سأقول لك ذلك همسا في أذنك ،

---

١٣ ـ يفري الفري : يأتي بالعجاب في عمله .
١٤ ـ أجرضه بريقه : جعله يبتلعه بالجهد من هزء او حزن او غيظ .

مددت أجل الاقامة هنا الى خمسة عشر يوما ، ثم اقنعت نفسي ان ازور مناجم ... وحقيقة الامر اني اريد الاقتراب من شرلوت ليس غير . اني أسخر من قلبي ثم أتابعه على ما يريد !

٢٩ يوليو

كلا ، هذا حسن ! كل شيء حسن ! انا اكون زوجا لها ! سبحانك اللهم لو كنت أعددت لي مثل هذه السعادة لكانت حياتي كلها صلاة دائمة لك ، وثناء متصلا عليك . لا اريد يا مولاي ان أعارض قدرتك ، ولا ان أناقش حكمتك ، فاغفر لي هذه الدموع السائلة ، وتجاوز عن تلك الاماني الباطلة . هي ! تكون زوجة لي ! اذن لضممت بين ذراعي اجمل وأكمل مخلوقة تحت الشمس !

وليم ! ان جسمي لتستقله الرعدة اذا ما ادار ألبير ذراعه حول قدها الرشيق . وان كلمة تتردد على شفتي فهل ينبغي ان اقولها ؟ ولمَ لا يا وليم؟ انها لو كانت معي لكانت أسعد نفسا وأرغد عيشا منها وهي معه . ليس ألبير بالرجل الذي يقضي حاجة هذه النفس ويحقق مراد هذا القلب . لقد تعوزه الحساسية و... ظن ما تشاء . ان قلبه لا يخفق مع قلبينا اذا ما قرأنا فصلا من كتاب ممتع ، فتجد قلبي وقلب شرلوت يتقابـــلان ويستزجان وقلبه عما نحن فيه بمعزل . ولطالما دار الحديث بيننا عن انسان فنذكر ما نحس له من عاطفة ، ونشرح ما نرى في عمله من رأي ، فأتفق انا وشرلوت الا ألبير فيقف منا على النقيض . عزيزي وليم ! لا جدال في انه يحبها من صميم فؤاده ، وهل جزاء هذا الحب الا السعادة ؟

ان احد الثقلاء دخل علي الآن فقطع سلسلة افكاري ووقف تيـــار دموعي ، وألهاني عن كل ما بي . أستودعك الله يا صديقي !

٤ اغسطس

لست فيما اصابني الدهر من اليأس والاخفـــــاق بأول الناس ولا واحدهم ؛ فكل انسان يخطئه سهم الحظ ويكذبه رائد الامل •

ذهبت ازور تلك المرأة التي لقيتها يوم الزيزفون فرآني بكر اولادها فجاءني عجلان يسعى الي وهو يصيح صياح الفرح • فتنبهت امه وتطلعت الي فاذا هي على غير ما عهدت ، منسرقة القوى منهوكة الجسم • فبدرتني بالخطاب قائلة : «أواه يا سيدي الكريم ! لقد مات يحيى الصغير» وكان هذا الطفل أصغر بنيها ، فلبثت صامتا واجما وانطلقت هي في شكواها تقول : «وزوجي رجع من سويسرا صفر اليدين • ولولا عطف بعـــض النفوس الكريمة لما استطاع العودة الا باراقة ماء وجهه ، فان الحمى لم تفلته اثناء الطريق» فلم استطع ان اقول لها شيئا ، وقدمت الى الغـــلام هدية صغيرة • ثم طلبت الي ان أتقبل بعضا من التفاح فتقبلته ، وغادرت المكان مفعم القلب بذكرى محزنة أليمة •

٢١ اغسطس

كل ما عهدته في نفسي تغير في اسرع من تقليب الكف وارتـــداد الطرف ! ولم يبق من عهد السرور غير بصيص خافت يلمع في جوانب نفسي من حين الى حين • وما اسرع ما يخبو فيترك القلب ظلاما والهم لزاما ! ما همت مرة في أودية الاحلام الا احتوشني هذا الخاطر من كل جانب فلا استطيع له دفعا : «ماذا عسى ان يكون لو قضى ألبير نحبه ؟ اذن تكون انت •• أجل وتصير هي •• ثم اتبع ذلك الوهم حتى يقف بي على شفا الهاوية ، فأرجع القهقرى مضطرب الحواس مرتعد المفاصل • وما خرجت من باب المدينة وسلكت الطريق الذي سلكته يوم ذهبت اول

مرة الى شرلوت اقودها في المركبة الى المرقص الا قلت لنفسي : شتان ما بين الامس واليوم ! وسرعان ما ذهب كل شيء واضمحل ! لم يبق من ذلك العهد السعيد رسم ولا أثر • ولم اعد اجد وأسفاه في قلبي تلك العواطف التي كانت تهزه يومئذ وتحركه ! انا كالامير الذي قام من قبره فرأى القصر الفخم الذي شاده لواحده وقرة عينه ، وزينه بالتحف الثمينة والرياش الفاخرة ، قد تقوض بنيانه وأصبح أطلالا بالية ورسوما عافية •

٣ سبتمبر

لا أفهم احيانا كيف يقدر انسان اخر ان يحبها او يجرؤ على ان يحبها ، وهي التي سكنت قلبي ، واستأثرت بحبي ، فلا اعرف ولا أحس ولا ارى غيرها في هذا العالم !

٤ سبتمبر

ما أشبه حالي بحال الطبيعة ! هي تجنح الان الى الخريف ، وأنا كذلك ارى آثاره حولي وفيّ • فتلك اوراق الشجر تتناثر وتهوي ، وهذه اوراق آمالي تتساقط وتذوي !

أما تذكر اني حدثتك يوما عن فتى قروي عرفته في اول عهدي بالمقام هنا ؟ لقد سألت عنه هذه المرة في ولهم فقيل لي انه طرد من عمله ولا يعلم احد ماذا كانت عاقبة امره • وقد اتفق اني قابلته امس في طريق احدى القرى فسألته عن حاله فقص علي ما جرى له ، فحرك أوتار قلبي ، وأثار شجون نفسي ، وستجد ذلك في نفسك اذا ما أعدته عليك • ولكن ما الفائدة من ذكر هذا الحادث لك ؟ ولم لا أكتم في نفسي ما يهمها

ويغمها ؟ لماذا أؤلمك معي وأفتح لك في كل ساعة طريقا الى رثائك لي وتأنيبك اياي ؟ ولكن ما الحيلة ؟ ربما كان ذلك ايضا من شقاء جدي ونكد حظي ٠

اخذ هذا الرجل ، باديء ذي بدء ، يجيب عن اسئلتي بهدوء حزين يخالطه شيء من الهيبة على ما اظن ، ولكنه ما لبث ان عرفني فعرف نفسه وخرج عن صمته وانقباضه ٠ فاعترف لي بخطيئته ، وآخذ يسهب في شرح مصيبته ٠ وأشهد الله اني عاجز عن نقل كلامه اليك بشدة تأثيره وقوة تصويره ٠ حدثني عن سيدته ــ وهو مسرور سعيد بذكرها وذكراها ــ ان غرامه بها كان ينمو على الايام ويقوى على الزمن حتى بلغ حد الذهول ، فلم يعد يعلم بعد علم شيئا ٠ عافت نفسه الطعام ، وجفت عينه الكرى ، وكرب صدره الخناق ، وعمل ما لا يجوز ان يعمله ، وأهمل ما لا ينبغي ان يهمله ، وأصبح كأن روحا شريرة تصرفه وتسيره ٠ ففي ذات يوم علم انها في غرفة من غرف الطبقة العليا من البيت ، فصعد اليها مدفوعا بقوة لا تدفع ، وأخذ يتلو بين يديها صلواته وتضرعاته فما أثرت فيها الا كما تؤثر هبة الريح في الصخر الأصم ٠ فأراد ان يخضعها اليه كرها ، ولا يدري كيف كان ذلك ، وانما يشهد الله على انه لم يرد بها سوءا ، بل اراد ان تكون له زوجة يسعد بقربها وينعم بحبها ٠

وقف بعد ان تكلم طويلا وقفة من احتبس في نفسه شيء لم يجرؤ على قوله ٠ ثم كاشفني وهو خجلان بما اخصت له فيه من الدالة الخفيفة ، والمباسطة القليلة ، والمؤانسة اليسيرة ، وقد قطع الحديث مرتين او ثلاثا ليستدرك على نفسه بأنه لم يقل ذلك غضا منها ولا زراية عليها ، وأنه ما زال يحبها ويجلها ، وأنه لم يفه بذلك الحديث الا ليقنعني بأنه غير فاجر ولا أحمق ٠ وهنا اعود يا صديقي الى أغنيتي القديمة وأرجع الى قولي الاول : اني أعجز ما اكون عن تصوير هذا الرجل كما رأيته وكما اراه

الان ، وعن شرح امره لك شرحا تعلم منه مقدار عطفي عليه في محنته ، ومساهمتي اياه في نكبته . ولكن مالي أبعد الامر عنك وحالي لـــك معلومة وحظي في ذهنك واضح ؟ وانك لتعلم رثائي للبائسين وحدبي على المنكوبين ولاسيما أمثال هذا الرجل .

أعدت النظر في هذه الصفة فوجدتني قد نسيت ان اذكر لك خاتمة الحكاية وان كان من السهل عليك ان تتخيلها ، فان المرأة هبت للدفاع عن نفسها ، وأهرع اخوها الى نجدتها ، وكان يبغض الفتى من قبـــل ويتمنى ألا يبقى في البيت حتى لا ترغب اخته في زواج جديد يحرم اولاده الميراث الذي بنوا عليه مستقبلهم ، فلم يتردد لحظة في طرده . وأخـذ يتقول البهتان ويتزيد في الحديث ويهول في الامر حتى قطع على اخته الطريق الى استرجاعه متى ارادته . فاستبدلت به خادما كان سببا فـــي اضطرام الخصام بينها وبين اخيها ، لانها عقدت النية على ان تتزوج منه كما يؤكد العارفون . وقد قال لي صاحبي ان ذلك لن يكون وهو حي .

ذكرت هذه الحكاية على وجهها دون تزيد ولا مبالغة ، ولم أحاول ان انمقها او أرققها ، بل ارى اني أضعفتها وسخفتها وجعلتها جافية نابية بما استعملت فيها من العبارات الخاصة بلغتنا الرقيقة المهذبة !

لم يك هذا الحب ولا تلك السعادة ولا ذلك الهوى تلفيق كاتب ولا اختلاق شاعر ، بل وجد كل ذلك على غاية من الاخلاص والنقاء في نوع من الناس نسميه نحن معاشر المتمدنين المهذبين فظ الاخلاق وحشي الطباع !

نشدتك الله ان تقرأ هذه الحكاية بتدقيق وروية . فقد كتبتها اليك وأنا هادىء ساكن ، ولعلك ترى أثر ذلك في خطي فانه لا يشبه نبش الدجاج كما عهدته . اقرأ يا وليم وفكر تجد هذه الحكاية أشبه بحكاية اخيك . فهذا ما اشعر به اليوم وذلك ما سألقاه غدا . على انني لم

أوت من الاقدام والعزيمة شطر ما اوتي ذلك البائس المسكين الذي أقارن نفسي به •

٥ سبتمبر

عاقت زوجها في الريف عداء الاشغال فلم يحضر • فكتبت اليه بطاقة بدأتها بهذه الكلمات : «عزيزي الكريم وصديقي الحميم ! اسرع في العودة ما استطعت ، فاني أنتظرك بصبر قليل وسرور كثير» • ثم جاءها صديق فأبلغها ان ألبير عاقته العوائق عن تبكير العودة ، فتركت البطاقة في مكانها حتى وقعت في يدي مساء ذلك اليوم ، فقرأتها ثم ابتسمت • فسألتني عن سر ابتسامي فقلت لها : «آمنت ان المخيلة أجل منح الله وأسنى هباته • لقد استطعت بفضلها ان أتخيل ان هذه البطاقة كانت مكتوبة الي» فأمسكت عن الحديث وتبينت في وجهها الكدر فسكت •

٩ سبتمبر

لقيت من الجهد ما لقيت في حمل نفسي على خلع هذه «السترة» الساذجة الزرقاء التي لبستها يوم رقصت مع شرلوت اول مرة • على انني ما خلعتها الا بعد ان حال حالها واستحال استعمالها •وخادعت نفسي فاتخذت سترة تشاكلها طرازا ولونا ، ولبستها على صدار وسروال أصفرين كاللذين كانا علي يومئذ • ولكن هذه الحالة على شدة مشابهتها لتلك لم تؤثر في نفسي تأثيرها ، ولم تسر قلبي سرورها .• وما ادري لعل هذه الحالة على تراخي الزمن تحل من قلبي محلها • وتصبح عزيزة علي مثلها •

١٢ سبتمبر

غابت عن البلد اياما تطلب ألبير في الريف. فلما عادت ذهبت ازورها فخفت لمقابلتي ، ومدت يدها الي فقبلتها سكران من حميا الطرب . ثم طار كناري من فوق المرآة فوقع على كتفيها ، فقالت وهي تستنزلـه على يدها بالمهل والرفق : صديق جديد استخلصته لاطفالي ! لله ما ألطف وما اجمل ! انظر اليه ! انني حين أقدم اليه الخبز ينقره بلطف وهو يصفق بجناحيه . ثم يقبلني انا ايضا . انظر ! وأدنته من فمها ، فأقبل العصفور الانيق على شفتيها الورديتين ينقرهما عجلان ملتذا كأنما يشعر بتلـك السعادة التي يتذوقها ويجنيها . ثم قدمته الي وقالت : لا بد ان يقبلك انت ايضا . فمر منقار العصفور من شفتيها الى شفتي ونقرني نقرة سرت في جسمي سريان النسيم ، وأشعرتني ببوادر اللذة والنعيم . ثم قلت لها : ان قبلاته لم تخل من معنى ولا غرض ، فلعله يطلب القوت ويبحث عنه ، وأرى ان هذه المداعبة لا تغنيه من جوع . فقالت : انه يأكل طعامه من فمي ايضا . ثم مدت اليه بعد الفتاة على شفتيها المفترتين عن ابتسامة حلوة تمثلت فيها لذة الحب السعيد ، وعذوبة الحنان البريء . فوليت عنها بوجهي اتقاء لهذا السحر وقلت في نفسي : حرام عليها كل هذا ! وما ينبغي ان تهيج وجداني بهذه المناظر : مناظر البراءة القدسية والسعادة العلوية ! ولا يجوز ان توقظ قلبي كلما أنامته سخافات الحياة حينا بعد حين .. ولم لا تفعل ؟ انها وثقت بي جد الثقة ، وعلمت اني احبهـا كل الحب .

١٥ سبتمبر

وليم ! اني ليحزنني ان اجد في الناس من لا تبلغ به كفايته الـى

تقدير ما على الارض من الاشياء القيمة النادرة . لعلك تذكر شجرتي الجوز اللتين تفيأتهما انا وشرلوت في منزل القس يوم زرناه ، تينـــك الشجرتين اللتين كانتا تملأن قلبي بما خلص من سرور ولذة ، وتفيضان على الفناء ما شاء الله من رخاء ونعيم : أغصان فينانة جميلة ، وظلال وارفة ظليلة ، وذكريات جمة عذبة ترجع بالمرء الى عهود اولئك القسس الكرام الذين غرسوهما . ولطالما ذكر لي معلم القرية اسم قسيس منهم حدثه جده عن صفاته الجليلة وأخلاقه النبيلة ، فكانت ذكراه تتمثل في خاطري جميلة طيبة كلما تفيأت هاتين الشجرتين . أتدري ما صنعت يد الاحداث بهما ؟ حكى لنا بالامس معلم القرية انهما قطعتا ! وأيمن الله لقد كان الدمع يجول في عينيه وهو يتحدث . قطعتا ؟ عجيب ما أسمع ! اني ليخيل الي ان لو رأيت في غضبي ذلك البهيم الذي مد يديه اليهما بالقطع لأوردته حياض المنية . كيف لا ولو كان في فنائي مثل هاتين الشجرتين ثم أذوى احداهما الكبر للبست عليها ثوب الحداد وقامت عندي قيامة الحزن ، فكيف أطيق الصبر على مثل هذا المنظر ؟

على ان ما يعزيني يا صديقي هو شعور الانسان وادراكه لمواطـــن الكمال ، وامتعاضه لتشويه صور الجمال ، فقد اخذ اهل القرية اجمعون يتذمرون ، وعسى ان يكون في حرمانهم امرأة القسيس هدايا السمن والبيض احتجاج على ما جرته عليهم من الضرر . ذلك لانها هي التي اقترفت ذلك الاثم . ولا تحسبنها زوجة صديقنا القسيس الشيخ فقد لحق بربه ، وانما هي زوجة القس الجديد الذي خلفه ، وهي امـــرأة عجفاء معروقة العظم مسقامة فظة الطبع لا تألف ولا تألف ، حمقاء تدعي العلم وتشارك في درس قوانين الكنيسة ، تعمل بجد في اصلاح قواعد الانتقاد الخلقي في المسيحية على اخر طراز ، وترفع كتفيها ساخرة بمخرقة

«لافاتر» (١٥) وترهاته ! وقد تخوّنها السقم وهدها المرض حتى لم تجد في ارض الله موضعا لسرور ولا موطنا لفرح .

فترى ان مخلوقة على هده الصفات حرية ان تجتث شجرتيّ من أصلهما . انها تزعم ان الاوراق الساقطة تلوث الفناء وترطب جوه ، وان الاغصان تحجب عنها ضوء النهار ، وأن الجوز اذا ما أينع قذفه الاطفال بالحجارة فيهيجون أعصابها ، ويزيدون أوصابها ، ويهوشون عليها وهي غارقة في الموازنة بين كينيكوت وسملر وميخائيلس (١٦)

ولما رأيت الامتعاض والاسف باديين على وجوه القرويين ولاسيما شيوخهم ، قلت لهم : «ولماذا تحتملون هذا وتقبلونه ؟» فقالوا : «ان الامر في الريف للعمدة : اذا اراد فلا دافع لارادته ،واذا حكم فلا معقب لحكمه» .

على ان الله عز اسمه لم يشأ ان يهنأ الغانمون بالغنيمة ، فقد اراد القسيس ان يستفيد هذه المرة من عبث امرأته ، فواطأ العمدة على ان يقتسما ثمن الشجرتين ، ولكن الخبر نمى الى ادارة الاملاك فقالت لهما: مكانكما ! وباعت الشجرتين بالمزايدة ورجع صاحبانا بصفقة المغبون . آه لو كنت اميرا ! اذن لعرفت كيف أعامل امرأة القس والعمدة وادارة الاملاك .

امر غريب ! أتمنى ان اكون اميرا ولو كنته لما همني كل ما في

---

١٥ ـ لافاتر Lavater عالم من علماء الدين وفيلسوف من فلاسفة الالمان وشعرائهم . له راي في علم الفراسة ومؤلّف ضخم فيه (١٧٤١ ـ ١٨٠١) .

١٦ ـ كينيكوت عالم ديني انجليزي (١٧١٨ ـ ١٧٨٣) ، وسملر عالم ديني الماني (١٧٢٥ ـ ١٧٩١) ، وميخائيل فيلسوف الماني بحاثة (١٧٩٨ ـ ١٨١٧) .

امارتي من شجر !

١٠ أكتوبر

غاية السعادة عندي ان انظر الى عينيها الدعجاوين . وأشد ما يؤلم نفسي ان ألبير لم تبد عليه دلائل السعادة التي كان يرجوها .. واني على ما أعتقد اكون أسعد الناس .. لو .. انا لا احب تقطيع جملي ولا تجزئة كلامي ، ولكني في هذه المرة لا استطيع التعبير عن ضميري بغير ذلك . ويظهر لي ان هذا الكلام شديد الوضوح .

١٢ أكتوبر

حل أسيان [١٧] من قلبي محل هوميروس : ويا لله أي عالم جلت فيه وردته في شعر هذا الشاعر السامي ! عالم كله جلال وروعة ! تجدني أجول فيه بين اشجار الخلنج [١٨] والعواصف الهوج ترجي السحائب الدجن في ضوء القمر الشاحب ، فأرى خلالها اشباح آبائه وأجداده ، وأسمع من قمم الجبال بين هدير السيل الجارف أنين اولئك الارواح في أجواف مغائرها ، وتأوه تلك الفتاة اليائسة الولهى وهي تريق بنفسها

---

١٧ ــ أسيان : شاعر ارلندي عاش في القرن الثالث للميلاد ، وهو ابن فنجال ملك «مورفن» وقد نسب اليه الشاعر الارلندي ماكفرسون ديوان شعر ونشره تحت اسمه هذا في عام ١٧٦٠ . وهو شعر تنبجس منه العبرات ، وتنقعه فوقه الحسرات ، ستقرأ منه في أواخر الكتاب نشيدا ترجمه فرتر لشرلوت .

١٨ ــ الخلنج La bryère شجر كالطرفاء زهره أحمر وأصفر وأبيض وحبه كحب الخردل ينبت في الارض البور .

من الالم جاثية على الصخور الاربع التي ضمت عظام حبيبها ، ذلك الحبيب الباسل الذي مات ميتة الابطال في معركة شعواء دامية ! ثم ألتقي بذلك الشاعر الأشيب وهو يجوس مغارس الخلنج ويجوب سهول الارض منقبا عن آثار أجداده ، فلا يجد واأسفي عليه الا مصارعهم من البلى ، ومضاجعهم تحت الثرى ، فيرجع بصره حينئذ حزنان شاكيا الى كوكب المساء الزاهر وقد اختفت أضواؤه بين أحضان الامواج المتلاطمة، فتعود الى مخيلته ذكرى العهود الماضية والعصور الخالية ، ايام كان ذلك الكوكب ينير للأبطال طريق المخاطر ، ويبدد عنهم بضيائه ظلام المخاوف، ويصب أنواره الفضية على سفنهم وهي عائدة يحدوها النصر ، وتزينها اكاليل الزهر ، فتفعل الذكرى في قلبه ما تفعل . وأقرأ في اسرار وجهه أثر الحزن العميق والهم المبرح . وأرى ذلك الشاعر الكريم وهو آخر نبعة من دوحته وحيدا على الارض يتقدم الى القبر بخطى مضطربة واقدام متعبة ، ويجد في استحضار طيوف آبائه فرحا جديدا وسرورا مؤلما ، ثم يرسل نظراته الى الارض الباردة والاعشاب الطويلة المضطربة في يد الريح ويصيح : «ان المسافر الذي عرفني في شبيبتي وجمالي سيأتي ويسأل : اين الشاعر ؟ اين ذهب الشريف بن فنجال ؟ ثم يسير واطئا لحدي بقدميه باحثا عني فوق الارض سدى !»

يا ويلتا ! ليتني يا صديقي وأنا احترق بهذه النار المقدسة فعلت ما يفعل التابع الامين الشجاع : أجرد سيفي وأنقذ اميري بضربة واحدة من حياة بئيسة وموت بطيء ، ثم ارسل نفسي وراء هذا البطل المقدس الى ذلك الملكوت الاعلى !

١٩ أكتوبر

يا لله ! أي فراغ مروع اجد في صدري ! وأي وحشة مخيفة أحس

في قلبي ؟ آه ! لقد اقول لنفسي احيانا : «لو استطعت ان أضمها الى صدري مرة واحدة ، مرة واحدة لا اكثر : اذن لامتلأ ذلك الفراغ وزالت هذه الوحشة » •

٢٦ أكتوبر

أجل يا صديقي ! تزيدني الايام يقينا بأن وجود الانسان على هـذه الارض شيء تافه وأمر يسير• جاءت الى شرلوت احدى صواحبها تزورها فأخذتا تتناثان الحديث • وذهبت انا الى الغرفة المجاورة لغرفتها أبحث عن كتاب فيها • وأردت ان اقرأ فامتنعت علي مني القراءة ، وسمج في عيني الكتاب ، فتناولت القلم وأخذت أكتب ، فسمعتهما تتحدثان بصوت خافت : تذكران من اخبار المدينة ما لا شأن له ولا خطر • قالت الزائرة: «فلانة مقدمة على الزواج بعد قليل • وفلانة الاخرى مريضة مثقلة تسعل سعالا جافا ، وتكاد عظمتا وجنتيها تخرقان الاهاب • وأرى جسمها الواهن يذوب ولا يثوب ، ولا أراهن على حياتها بدانق» •

وقالت شرلوت : «ان السيد «ن» كذلك أصابته علــة فادحة» • فأجابتها الاخرى : «نعم ! انه منتفخ وارم» •

فطارت بي مخيلتي الى اسرة هؤلاء البائسين المحتضرين ، فرأيتهم كيف يدبرون عن الحياة آسفين ، ويقبلون على الموت خائفين ، ولاحظت انهم •• وليم ! ان هاتين الفتاتين تتحدثان عن اولئك الاصدقاء والاقرباء حديث المرء عادة عن موت رجل غريب •

كذلك أقلب النظر حولي في هذه الغرفة فأرى في كل جهة ملابس شرلوت وأوراق ألبير ، وأنظر ذلك الاثاث الذي ألفته كله حتى هـذه الدواة فأقول لنفسي : «انظر يا فرتر الى مكانك في هذا البيت ، والى

محلك من قلوب اهله ! انهم جميعا يجلونك ويكرمونك ، ولا تهنأ لهم كأس الصفاء دونك . تدخل المسرة على قلوبهم ، ويكاد قلبك لا يخفق الا بوجودهم . ولكن ليت شعري اذا بعدت عن هذا البيت ، وخرجت من هذه الحلقة ، أيشعرون بذلك الفراغ الذي احدثه بُعدك ، ويحسون ذلك النقص الذي اوجده فقدك ؟ واذا شعروا بذلك فهل يدوم هذا الشعور طويلا ؟ » .

واأسفاه ! ان الانسان لسريع الزوال : يمحى ويزول حتى من المكان الوحيد الذي يتأكد فيه وجوده ، وتثمر فيه عواطفه وعهوده . يزول من كرارات أحبائه وقلوب أعزائه ، وذلك واحسرتاه يحدث في اسرع ما يكـون !.

٢٧ اكتوبر

يقوم بنفسي ان أمزق صدري ورأسي كلما رأيت الناس لا يغنـي بعضهم عن بعض شيئا . فلا يستطيع احدهم ان يمد الاخر بشعاع من فكره ، ولا بعاطفة من قلبه ، ولا باثارة من حبه . وهل في قدرة انسان ان يحبوني الحب والمسرة والحرارة واللذة اذا ما عدمت ذلك في نفسي؟

وهل في قدرتي انا وقلبي فياض بالغبطة والسعادة ان أسعد انسانا آخر قد وقف امامي جامدا باردا لا قوة فيه ولا حساسة ؟

مساء ٢٧ اكتوبر

لا يزال عندي من موارد الحياة ومذخور القوى مدد وفر ، ولكن هواها يبتلع كل شيء ! أجل ! لا زلت املك كثيرا ، ولكن الكثير بدونها

قل ، والوجود بغيرها عدم .

٣٠ أكتوبر

كم مرة هممت ان أضمها الى صدري ، وأطفىء بلثمها حرارة قلبي ! ربّاه ! لا يعلم غيرك ما يكابد المرء من الم وما يعاني من برح كلما رأى هذا الجمال الساحر يذهب امامه ويجيء وليس من حقه ان يمد يده اليه! على ان الغريزة البشرية تدعوه الى تلك الحركة وتدفعه . او ما رأيت الاطفال يجهدون ان ينالوا كل ما وقع تحت حواسهم وأدركوا بمشاعرهم؟
ـــ وأنا !.

٣ نوفمبر

علم الله اني كثيرا ما أرقد وأنا أود وأرغب ، بل آمل وأرجو ، ألا استيقظ . فاذا تنفس الصبح واكتحلت عيناي ثانية بضوء الشمس شعرت بحزن عميق وبؤس شديد . آه ! ليتني اصبح فريسة للاهواء وطعمة للسوداء ! او ليتني استطيع ان احمل ذلك الخطأ على دهر اساء وانسان عدا ومسعى اخفق ! اذن لخف عني ذلك العبء الفادح عبء الشقاء والحزن الذي أنقض ظهري وأحرج صدري . واويلتاه علي ! انا جازم بأني المتجرم على نفسي . لا ، لا ! ما كنت متجرما ولا آثما ، وانما كنت على الاقل مصدرا لشقوتي وبلائي ، كما كنت قبل اليوم منبعا لغبطتي ورخائي . أجل لم أعد ذلك الرجل الذي كان يسبح آنفا في فيض من الوجدان ولج من العواطف ، وتتجلى له في كل خطوة من خطواته جنة بهيجة ، ويرى قلبه اهلا لان يجد في الحب عالما بأسره . مات الان ذلك القلب وغاضت ينابيعه ، فلم يعد يجيش بالاعجاب والذهول والحمية ،

وجفّت شئون عيني فما تبض بقطرة ، وذوت حواسي حين لم يسقها الدمع البرود ، وضافني الهم وساورني القلق فتخدد جبيني وجف ماء شبابي • انا اتألم جد الالم لاني فقدت ما كان يجعل حياتي بهيجة لذيذة• فقدت تلك القوة المقدسة المنعشة التي كانت تخلق حولي عوالم كثيرة ! فتجدني الان اذا اطلعت من النافذة فرأيت عروس الصبح تخترق أشعتها حجب الضباب فوق الهضاب البعيدة ، وتضيء مروج الوادي الخالية الصامتة ، وأبصرت النهر الهادي يسعى الي منسابا بين اشجار الصفصاف العارية انسياب الأفعوان ، اقف وقفة المتعجب المرتاب أسائل نفسي : لمَ اصبحت هذه الطبيعة الجميلة امامي باردة خامدة كأنها صورة مطبوعة ملونة ؟ وكيف لا يستطيع كل ما ارى من جمال وسحر ان يحمل القلب على ان يرسل الى المخ قطرة واحدة من الهناءة والغبطة ! لقد بلغ بي ذلك ان اقف امام الخالق كأنني الوعاء الفارغ والينبوع الناضب ! ولطالما خررت ساجدا أجأر بالدعاء اليه ان يجود عيني بالمطر ، كما يستتقي الفلاح الغمام اذا رأى السماء قد اماطت عن وجهها قناع الحياء ، ووجد الارض قد اجهدها العطش وأعوزها الماء •

على اني اشعر وأسفاه ان الله لا يمنحنا المطر والصحو بتلك الاسئلة الملحفة والادعية المزعجة • وما كانت تلك الأزمن اللائي أتحسر عليهن سعيدة الا لاني كنت أتنتظر نعم الله بالأناة والصبر ، وأتقبل النعيم الذي يغدقه علي بالحمد والشكر •

٨ نوفمبر

لقد لامتني على سرفي وافراطي ، ولكن برقة ولين وعطف ! قالت لي وقد رأتني منذ ايام اشرب الكأس الهاء وتسلية فأمعن في الشراب وأسترسل حتى آتي على ما في الزجاجة ، قالت : «خل عن هذا وفكر في

شرلوت» فقلت لها : «أفكر فيك ؟ وهل تحتاجين الى ان تأمريني بذلك ؟ انا أفكر •• كلا لا أفكر ، وانما انت دائما نصب عيني وأمام نفسي ، حتى في صباح هذا اليوم كنت جالسا في الموضع الذي نزلت فيه من المركبة اخر مرة» • فعطفت الحديث الى جهة اخرى حتى لا أسترسل في هذا الموضوع •

آه ! لقد ضاع رشدي يا صديقي ! وانها لتصنع بي ما تريد ، وتتخذ مني ما تشاء !

١٥ نوفمبر

أشكر لك يا وليم ولاءك الصادق ونصحك الخالص ، وأناشدك الله ان تخفض عليك جأشك وتدعني اشرب الكأس حتى الثمالة فلا يزال فيّ على الرغم من مشقتي ولغوبي فضل من القوة يمسكني الى غاية الامد •

انا أعظم الدين وأجله كما تعلم ، وأعتقد انه السند الاقوى للنفوس الوانية ، والمورد العذب للقلوب الصادية • ولكن•• قل لي بربك أيستطيع ان يكون كذلك لجميع النفوس ؟ أجل بصرك في هذا العالم الفسيح تجد ملايين من الناس ما أجدى الدين ولن يجدي عنهم شيئا ، سواء أوعظوا به ام لم يوعظوا • ألم يقل المسيح نفسه ان الذين وهبهم الله له سيكونون معه ؟ فليت شعري ما حالي اذا كان الله قد استخلصني لنفسه ، ولم يهبني له كما يحدثني بذلك قلبي ؟•• أعيذك بالله ان تفهم كلامي على الخطأ او تحمله على التهكم ! فما اردت الا ان أكشف لك عن دخيلة نفسي • ولولا ذلك لآثرت الصمت ضنا بكلامي ان يذهب ضياعا في موضوعات يجهلها كل انسان مثلي • ولعمري ما نصيب الانسان من حياته ؟ هل نصيبه الا ان يحمل عبء الشقاء ويشتف كأس الالم ؟ وان

كان رب السموات والارض قد استمر [19] هذه الكأس واجتواها [20] حين وضعها على شفته البشرية ، فكيف أتظاهر بالجلد وأتستر بالرياء ، وأدعي ان هذه الكأس عذبة سائغة ؟ لماذا أخجل اذا رجفت قوائمي فرقا من هول تلك الساعة الرهيبة ، ساعة يرتعد جسمي بين الوجـود والعدم ، ويلمع الماضي في هوة المستقبل المظلم لمعـان البرق في حلك الليل ، وينخسف كل ما حولي من الاشياء ويبيد ، ويقبر معي العالم بما فيـه اجمع ! ألم يسمع الناس ذلك المخلوق [21] المثقل المكروب يقول وقـد رأى نفسه يتردى في الهاوية دون ان تنفعه حيلة ، او تغني عنه وسيلة : «رباه ! رباه ! لماذا تركتني ؟» فهل أستحي بعد ذلك ان أهتف بهـذه الجملة فزعا من تلك اللحظة التي لم ينج منها رب السموات الذي يطويها طي السجل للكتاب ؟

٢١ نوفمبر

شرلوت لا ترى ولا تشعر انها تجهز السم الذي سيهلكني واياهـا معا ، وأنا أعب ذلك الشراب المشئوم بشغف ولذة . والا فماذا تقصد بهذه النظرة الحنون التي تلقها علي غالبا ؟ غالبا ! كلا بل احيانا . وماذا تريد بهذا التساهل في قبول ما يبدر مني اثناء الكلام في شرح عواطفي ! ولماذا اقرأ في جبينها الرثاء لمصابي ، والاشفاق علي من أوصابي ؟ وأعجب من هذا اني لما اردت الانصراف من بيتها امس مدت الي يدها قائلة : «مع سلامة الله يا عزيزي فرتر !» . عزيزي فرتر !؟؟ تلك كانت اول مـرة

---

١٩ ــ قد استمرها : وجدها مرة .
٢٠ ــ اجتواها : عافها وكرهها .
٢١ ــ المخلوق : يريد به المسيح عليه السلام ساعة صلب .

دعتني فيها عزيزا • فتمشت حميا هذه الكلمة في اعضائي ، وأخـــذت أرددها وأعيدها التذاذا بذكرها ، وانتعاشا بسكرها • وفي المساء حينما أويت الى مضجعي واستسلمت لاحاديث النفس ، وهواجس الفكـــر ، بدرت مني هذه الجملة : «ليهنك النوم يا عزيزي فرتر !» فلم أتمالك ان ضحكت من نفسي وسخرت من امري •

٢٤ نوفمبر

انها تشعر بألمي وشقائي ، وتدرك سبب همي وحقيقة دائي • لقد نظرت الي اليوم نظرة نفذت الى السواد من قلبي ؛ وذلك اني لقيتها في البيت وحدها فوقفت حيالها موقف الابكم ، وأخذت هي تحدق النظر في شخصي وتستقصيه ، وقد اختفى ما كنت اراه فيها من الجمـــــال الساحر والذكاء النادر ، فلم يبق الا نظرات سامية ترسل الرثاء والشفقة، وتفيض الحنان والعطف • ليت شعري لمَ لم اجرؤ على ان أرتمي بين قدميها ؟ لمَ لم أجرؤ على ان أطوق عنقها بذراعي وأجاوبها بلســـان القبلات على هذه النظرات الوديعة • ثم رجعت بصرها اليها وفزعت الى بيانها فغنت عليه أنشودة جميلة مؤثرة بصوت احلى من الاماني وأعذب من نسمات السحر •

لم أر كاليوم شفتيها مهبطا للسحر ولا مسقطا للجمال ! لقد كان يخيل الي انها تنهج ، وان شفتيها لا تنفرجان الا لتنسم النغمات الحلوة الصاعدة من البيان ، وأن فمها النقي الطاهر لا يردد الا صدى هذا النغم السماوي العذب • آه لو كنت استطيع ان اقول لك ذلك كما أحسه !

لم أقو على مقاومة ذلك طويلا فخضعت وأذعنت ، وأخذت علـــى نفسي هذا الموثق : «ابدا لا أدنسكما بالقبل ايتها الشفتان اللتان تطير

عليهما ارواح السماء» .

على انني أريد .. آه لكأني ارى امام نفسي حائطا يحجزها عما تريد ! أريد ان أذوق هذه السعادة ثم اموت تكفيرا عن هذه الخطيئة .. خطيئة ؟

١٦ نوفمبر

اقول لنفسي احيانا : يا نفس انت واحدة النفوس في هذا الحظ . وأولئك الناس حولك تستطيعين ان تعديهم سعداء ، وهيهات ان تجدي فيهم من شرب من نقيع الحنظل ما شربت . فاذا ما قرأت لشاعر من شعراء الاقدمين خيل الي اني انظر في قلبي ، وأقرأ صحيفة لبي ، فيهيج بي الوجد ويشتد علي الالم وأقول : والهفتاه ! وبأساء الحياة ما لقيت ؟

٣٠ نوفمبر

هيهات ، هيهات أن أرجع لنفسي وأعود لحسي ! فحيثما أوجه ألق خيالا يهد عمادي ويذهب رشادي . اليوم ! يا للحظ ! يا للانسانية ! اليوم وجدت بي اقهاء [٢٢] عن الغداء فخرجت قبيل الظهر اتنزه على ضفة النهر ، وكانت الحقول صامتة موحشة ، والريح الغربية تهب من ناحية الجبل بليلة باردة ، والسحائب الجون الممطرة تتراكم فوق الوادي طبقة فوق طبقة ، فرأيت رجلا عليه طمر اخضر يمشي منحنيا بين الصخور كأنما يبحث عن بعض اعشاب الجبل . فلما أحس خطاي التفت فاذا سحنته غريبة

٢٢ ـ أقهى عن الطعام : كرهه ولم يشتهه .

تنم عن حزن دخيل هادئ ، بيد انها تنبىء عن نفس كريمة طيبة ، وشعر جثل اسود قد اتخذ منه عقيصتين لواهما بدبوسين في مقدم رأسه ؛ ثم ارسل باقيه جديلة جديلة غليظة تنوس (٢٣) فوق ظهره • فعلمت من هندامه وبزته انه من اوساط الناس فلا يمتعض اذا دخلت في امره واستفهمته عن بعض شأنه • فدنوت منه ثم سألته عما يبحث • فتنهد تنهدا عميقا ثم قال : «أبحث عن زهور ، ولكني لا اجد منها شيئا» • فقلت له باسما : ذلك لاننا في غير فصل الزهور • فقال الفتى وهو يدنو مني : «بلى ، ان في الرياض زهورا كثيرة • وفي حديقتي ورود شتى ونوعان من زهر العسل اعطاني احدهما ابي ؛ وهو ينبت كما ينبت النجيل ، ومنذ يومين أبحث عنه فلا اجده • كذلك عندي في كل آن من الازهار الاصفر والازرق والاحمر والقنطاريون ذو الزهيرات الجميلة • على انني لا اجد من كل ذلك شيئا !»

فلاحظت في هيئته ولهجته شيئا غريبا خفيا • فسألته بعد ان لويت الحديث : «وماذا تصنع بهذه الزهور ؟» قال : وقد علت شفتيه ابتسامة غريبة ووضع اصبعه على فمه : «لا تنم علي ولا تخني • سأصنع من هذه الزهور طاقة لحبيبتي» • فقلت له : «هذا منك حسن جميل» • فقال لي: «ان عندها اشياء كثيرة • انها غنية !»

ـ وهل هي مع ذلك تحب طاقاتك ؟

ـ أوه ! ان عندها حليا وتاجا •

وما اسم هذه الحبيبة ؟

ـ لو شاءت الجمعية (٢٤) العمومية ان تنقدني ما اريد من المال لكنت

---

٢٣ ـ تنوس : تتحرك •

٢٤ ـ الجمعية العمومية les états généraux هي ما كانت تمثل في تلك العصور طبقات الامة الثلاث : الأشراف والكهنة والعامة •

اليوم رجلا اخر . ولقد اتى علي زمن كنت فيه رخي الصدر مثلوج الفؤاد . اما الان فقد قضي الامر وأصبحت .. ثم رفع الى السماء طرفه الباكي فعبر بهذه الحركة عما يريد فقلت له : «اذن لقد كنت سعيدا ؟» فقال : «لا أود الا ان اكون كما كنت . لقد كنت جذلان مرحا كأنني السمكة في الماء» .

وأنا لكذلك اذ رأيت عجوزا تتقدم الينا وهي تنادي : «هنري ! اين انت يا هنري ؟ لقد طلبناك في كل مكان فما وجدناك . هلم الى الغداء» . فتقدمت الى العجوز وسألتها : «هل هذا ولدك ؟» فأجابت : «نعم ولدي ! واحسرتاه عليه ! لقد فجعني الدهر فيه فجيعة أليمة» . فقلت لها: «وكم لبث في هذه الحال ؟» فقالت : «لله الحمد ! عاوده منذ ستة شهور هدوؤه وسكونه . اما قبل هذه المدة فقد لازمه الهياج الشديد سنة كاملة قضاها في البيمارستان مقيدا مغلولا . وها هو ذا الان وديع هادىء لا يؤذي احدا ولا يضر مخلوقا . غير انه يشغل باله ووقته بذكر الملوك والاباطرة . عهدي به غلاما بارا وديعا يعينني على اكتساب القوت واحتمال العيش بخفة يده وحسن حظه ، فاذا به قد تحول فجأة الى تفكر عميق وانقباض محزن ، ثم الى حمّى صالب [٢٥] وهذيان مستمر ، ثم انقلب الى ما تراه عليه الان . لو كنت استطيع ان أقص عليك يا سيدي كيف ...»

فحجزت سيل هذا الكلام الدافق بقولي لها : «وما أمر تلك الايام التي يزعم انه كان فيها سعيدا ؟» فجرت على شفتيها ابتسامة الاشفاق والرحمة وقالت : «وارحمتاه لهذا المجنون ! انه يرمي الى تلك الايام التي كان فيها مستلب العقل فاقد الشعور ايام كان في البيمارستان مدلها غائب

---

٢٥ ــ حمي صالب : شديدة الحرارة معها رعدة ، وهي خلاف النافض.

الرشد ! تلك ايام لا يبرح آسفا عليها مشوقا اليها فخورا بها» •

فوقع هذا الخبر على سمعي وقوع الصاعقة ، فوضعت في يدها قطعة من النقود ثم وليت على عجل ميمما نحو المدينة مرددا في نفسي هـذا الكلام : أهذه هي الايام التي كنت فيها سعيدا ؟ ايام كنت طروبا مرحا كأنك السمكة في الماء ! رباه يا رب السموات والارض ! أكذلك قضيت على بني آدم ألا يكونوا سعداء الا قبل ان يوهبوا العقل او بعد ان يسلبوه ؟

ايها البائس ! لشد ما أحسدك على انقباضك الذي يعزلك ، وجنونك الذي ينحلك ! انت تخرج مملوءا بالامل تبحث لملكتك عن الزهور في جوف الشتاء ! ثم تتألم لانك لا تجد ، ولا تدري لماذا لا تجد ! وأنا •• اخرج بغير أمل ، والى غير قصد ، ثم اعود الى البيت كما خرجت منه •• تتخيل انك تكون رجلا اخر اذا شاءت الجمعية العمومية ان تعطيك المال الذي تريده •• طوبى لك ايها المخلوق السعيد ! لقد استطعت ان تعزو شقاءك الى اسباب دنيوية بشرية ، وجهلت ان في قلبك المضطرم ومخك المضطرب علة شقائك ومصدر دائك ! وأن جميع ملوك الارض لا يملكون لك شفاء ولا يدفعون عنك بلاء !

ألا أهلك الله باليأس رجلا يهزأ بالمريض الذي يقطع الشقة البعيدة الى المنبع السحيق الذي يزيد في سقامه ، ويضاعف آلام حمامه •

ولا ابقى الله على من تزدري عينه ذلك المنكود الذي يحج البقاع المقدسة تنفسا لكربة نفسه ، وتفريجا لشدة ألمه ، وتسكينا لثائرة قلبه ، وتخلصا من وخز ضميره ! أليست كل خطوة يخطوها في هذا الطريـق الوعر نقطة مرهم تضمد جراح نفسه ، وكل ليلة يقضيها بعد هذا السير الملغب تخفف من عناء بؤسه ؟

ذلك ما تجرؤون ان تسموه جنونا ووهما ايها المتشدقون المستلقون

على وسائدكم الوثيرة الرخصة ! جنون ووهم !

أللهم يا من ترى عبراتي المسفوحة ! أكان حقا عليك ان تجعل للانسان — وقد خلقته بائسا ضعيفا — اخوة يحرمونه العزاء في محنته وخصاصته بسلبهم اياه ذرة الايمان بك والامل فيه ؟ وهل اعتقادنا في نبات الطب وعصير الكرم الا اعتقاد فيك وايمان بك وبما اودعته فيما يحيط بنا من خواص الشفاء والراحة التي تحتاجها في كل آن ؟

ايها الاب الذي لا اعرفه ، والاله الذي كان يشغل جوانب قلبي فيما مضى ثم زوى الان وجهه عني ! أدعني اليك وكلمني ! لا تلزم جانب الصمت فان نفسي التواقة الصادية تشتهي ان تسمعك . أي والد يتحمله الغضب اذا رأى ولده يترامى بغتة بين حضنيه وهو يصيح : «هأنذا يا ابي قد عدت اليك ! فلا تحل غضبك علي اذا لم ارد ان أتم الرحلة التي حددتها لي ارادتك . لقد وجدت العالم في كل مكان هو العالم : عناء وعمل وجزاء ولذة . وماذا يجدي علي كل ذلك ؟ انا لا اكون سعيدا الا حيث كنت ، ولا اريد ان آلم وألذ الا حيث انت» فهل ترضى ايها الاب السماوي الرحيم ان تذود عن بابك ذلك الطفل المتوسل الضارع ؟

اول ديسمبر

وليم ! ان الرجل السعيد الشقي الذي حدثتك عنه في الرسالة الاخيرة كان كاتب سر لوالد شرلوت . وقد نبت حبها سرا في قلبه ، ثم خبله العشق ولج به الهوى فأعلن المكتوم وأظهر المضمر ، فصرفه الوالد عن عمله ، وحال بينه وبين أمله ، فاعتراه مس ذهب بالبقية الباقية من عقله .

هيهات ان تشعرك هذه الكلمات الجافة ما اصابني من الذهول حين

قص علي ألبير هذه القصة بدم فاتر ولهجة باردة وحالة قد تكون اشبه بحالتك وأنت تقرأها !

٤ ديسمبر

حنانيك يا صديقي ! لقد وهى جلدي ، ووهن صبري ، وأصبحت لا أتمالك من الوجد ، ولا أتماسك من الجوى . كنت اليوم جالسا بجانبها وهي توقع على بيانها الحانا مختلفة بما شاء الله من قوة تعبير وشدة تأثير ، وأختها الصغيرة تلبس عروسها الثياب على ركبتي ، فاغرورقت عيناي . وطأطأت رأسي ، فوقع بصري على خاتم الزواج في اصبعها ، فانحل عقد الدمع وانهل انهلال القطر . وما هو الا ان فجأتني بتوقيع ذلك اللحن القديم العذب الذي احبه حتى خف ما بي وسرى عني . بيد اني تذكرت به الماضي ، وتفكرت في تلك الاوقات التي كنت اسمع فيها هذا اللحن وما أعقبها من الايام السود والآلام المخفقة ، فنهضت امشي في الغرفة ضيق النفس مكروب النفس مشرد العقل ، ثم لم أتمالك ان دلفت اليها وتراميت عليها قائلا : «نشدتك الله يا شرلوت ألا كففت !» فكفت عن العزف وحدقت النظر فيّ وقالت باسمة «فرتر ! انك لا تعاف طعامك السيغ الهنيء الا لمرض شديد ، فأتوسل اليك ان تذهب فتهدىء روعك وتريح نفسك» .

فخرجت من عندها . و ... رباه ! انك ترى ما أكابد من عناء وحزن، فاجعل لهذا الشقاء حدا .

٦ ديسمبر

ان صورتها تتبعني في كل مكان وتلزمني في كل لحظة ! اما صحوت

واما غفوت فانها تملأ جوانب نفسي وتشغل فراغ قلبي . هنا ، اذا انا اغمضت جفني . هنا تحت الجبهة حيث تتركز القوة الباصرة ، ارى عينيها الدعجاوين . هنا ! لا استطيع ان اشرح لك كل هذا . كلما اغمضت عيني رأيت عينيها هناك مفتوحتين امامي وفيّ كالبحر او كالهاوية فلا أحس غيرهما في جبهتي .

عمرك الله ما الانسان وما قيمة تألهه وصلفه ؟ أما تخذله قواه وتخونه عند مس الحاجة اليها ، وضرورة الاعتماد عليها ؟ أما يشعر عندما يغرقه السرور او يحرقه الحزن انه موقوف عند حدوده ، ومردود الى احساسه البارد بكونه ووجوده ، على حين يرجو ان يسبح ويفنى في محيط اللانهاية بكبر وصلف ؟

من الناشر الى القارىء

كنا نود لو بقيت في أيدينا حكاية الفترة الاخيرة من حياة صديقنا فرتر باملاء قلبه وخط يده ، فلا نضطر الى قطع سلسلة رسائله بما سنقصه على القارىء من أخباره وحوادثه .

وتلك الاخبار نقصها ونرويها على ما سمعناه من أفواه الثقاة الذين خالطوه ولابسوه فكشفوا دخيلة سره ، وعرفوا حقيقة امره .

حكاية فرتر واضحة بسيطة ، والناس في روايتها لسان واحد ، لا يكادون يختلفون الا في مسائل ثانوية لا خطر لها . فأما تشعب الآراء وتفرق الاهواء فهو في الحكم على اخلاق الاشخاص والتقدير لافعالهم. فسبيلنا اذن ان نقص ما علمناه بالبحث الدقيق والاستقصاء البالغ مضمنين ما تركه لنا فرتر من الرسائل والكتب دون ان نهمل منها ورقة، او نحذف منها حرفا ، او نصدر عليها حكما ، فان من الصعب الوقوف على البواعث الحقيقية والاسباب الجوهرية للعمل البسيط اذا وقع من قوم

يعلون على الدهماء ويرتفعون عن العامة .

***

تغلغلت أصول الخور والضجر والكآبة في نفس فرتر، ثم ربت وتشعبت، ثم طالت وتشاجنت، حتى هيمنت على كيانه، وسيطرت على جثمانه ووجدانه، فتهوش نظام حياته ، وتنافر انسجام وجوده ، وأخذت قواه الطبيعية تذيبها نار همومه المستعرة المضمرة ، تلك النار التي اسلمته الى الضنى والوهن بعد ان نجم عنها ما نجم من شر النتائج وسوء الاثر ، وأصبح ما يلقاه من الهم ومكافحة هذا الغم أشد عليه مما لقيه من جميع الآلام التي كافحها الى الان .

برّح بقلبه لاعج الهم حتى اودى بقوة فكره وحدة خاطره وتوقد ذكائه ، وصار لا يجد في مجالس الأنس غير الوحشة ، ولا في سرور الصحاب الا الحزن ، ولا يمر عليه يوم دون ان يصعد في سلم الشقاء درجة . وكلما ارهقه البؤس ولج به الجوى كان اكثر تألما وأشد تبرما .

واليك ما يقوله اصحاب ألبير في امره وأمر فرتر : يقولون ويؤكدون ان فرتر لم يعرف كيف يقدر رجلا فاضل الخلق رحب الاناة لا غرض له الا ان يحتفظ برغيبة قلبه ومصداق امله ، على حين يسرف فرتر في قواته، ويبذر في خيراته ، ولا يدخر غير الفاقة والالم لمساء حياته . ألبير لم يغيره الزمن القليل ، بل ظل على حاله التي امتدحها فرتر وأجلها منذ تعارفا وتآلفا . يحب شرلوت حبا دونه كل شيء ، فهو يفخر بها ، ويباهي بحبها ، ويتمنى ان تذكر في الناس جميعا بما لم تنله امرأة من الجلالة

والكمال .

فهل عليه من بأس اذا ربأ بها عن مواطن الشبهات ، وأبى على غيره ان يساهمه الاستمتاع بحبها وقربها ولو كان ذلك الاستمتاع طاهرا بريئا ؟ ثم انهم مجمعون على ان ألبير كان يترك غرفة امرأته اذا دخلها فرتر ، لا كراهة منه لصاحبه ، ولا ازورارا عنه بجانبه ، بل لانه كان يشعر ان وجوده يكدر صفوه ويحرج صدره .

***

توعك ابو شرلوت فلزم الفراش وبعث اليها بمركبته يدعوها اليه ، فذهبت تعوده في يوم من ايام الشتاء جميل ، وكانت طلائع الثلج قد سقطت على الارض فطبقت البلاد . ولحق بها فرتر في صباح اليوم التالي ليصحبها في العودة حين لا يتسنى لألبير ان يوافيها هناك . وكان في اثناء ذهابه مهموما فلم يؤثر صفاء الجو في قلبه المضطرب الا قليلا : كان يحس نفسه رازحة تحت عبء فادح من الكرب . ويخيل اليه ان صورا محزنة تملأ فكره وتقفو أثره . وكان خاطره مبلبلا فلا ينتقل من فكرة مؤلمة الا الى فكرة أشد منها ألما .

كان في شقاق دائم مع نفسه ، فلم ير لذلك فيمن حوله من الناس الا مظاهر للاضطراب والقلق : ظن انه خب [1] على ألبير امرأته وأفسد بينه وبينها ذات البين . فأقبل على نفسه يلومها فيه شيء من الحنق على ألبير وأخذ يردد في خاطره وهو في طريقه الى شرلوت هذه الافكار ، ويقول

---

١ ــ خب المرأة على زوجها : حملها على النفور منه .

لنفسه هذه الكلمات ، وهو غضبان محتد : «أجل ! أجل ! لقد تحول هذا القران المملوء بالحب الخالص ، والحنان الفياض ، والجاذبيـــة المستمرة ، والوفاء الباقي على الزمن ، الى اشمئزاز وملل وقلة اكتراث • ألم تلهه المسألة الصغيرة الحقيرة عن هذه المرأة العزيزة التي «يعبدها» ؟ هل قدر سعادته حق قدرها ؟ أم هل عرف على الاقل قيمة هذه الزوجة الصالحة فعاملها بما تستحق من اكبار واجلال ؟

لا يعرف الا انه مالكها ! نعم هو مالكها ! وعندي بذلك علم • وقد كنت أحسبني ألفت هذه الفكرة واعتدتها ، فاذا هي لا تزال توقد صدري بالغضب ، وستطفىء سراج حياتي يوما ما •

هل ثبتت صداقته لي على التجربة وحالت بينه وبين الوساوس ؟ ألم ير في حبي لشرلوت تعديا لحدوده تأنيبا صامتا على اهماله ، وتنبيها دائما على اغفاله ؟ ونقضا لعهوده ؟ ألم يجد في رعايتي لها وعنايتي بها بلى كل ذلك أعلمه وأحسه !•• ان منظري اصبح لا يروقه ، ومحضري صار عبئا عليه لا يطيقه ، فلا ينبغي الان الا ان أفارق وأرحل» •

***

كم مرة تمهل فرتر في سيره وهو موفض فيه ! وكم مرة وقف يريد ان يعود أدراجه ! ولكنه تابع سيره مدفوعا بالرغم منه ، الى ان بلغ منزل الصيد بين حديث نفسه ووساوس قلبه • دخل ثم سأل عن شرلوت وعن الشيخ فلاحظ ان في البيت حركة وجلبة • وجاء أصغر الصبية يقول :- ان حادثة وقعت اليوم في ولهم • فقد عثروا بأحد الفلاحين قتيلا • فلم يلق فرتر باله الى هذا الخبر • ودخل البهو فوجد شرلوت تحاول ان

تثني أباها عن الذهاب وهو مريض الى مكان الحادثة لتحقيق الجريمة ، فان القتيل وجد صباح اليوم مقتولا على باب داره ولم يعثروا على قاتله • غير ان الناس يظنون ويلقون التهم ، فيأولون ان القتيل كان فلاحا لامرأة أيم ، وكان عندها من قبله فلاح اخر طردته على أثر شجار نشأ من سوء سلوكه • فلما سمع فرتر هذا البيان ارتاع وارتعد • ثم انتصب قائما يقول «رباه ! أذلك ممكن ؟ لا بد لي من الذهاب الى مكان الحادث» ثم انطلق يعدو الى ولهم وقد تواردت على قلبه الذكر ، ولم يخامره شك في ان القاتل هو ذلك الرجل الذي حادثه طويلا وأحبه كثيرا • ولما بلغ الزيزفون وهو في سيره الى الحانة التي سجوا امامها القتيل داخله خوف وفزع ، وقد كان ذلك المكان فيما مضى موضع حبه واعزازه • ان عتبة البيت التي كان يلعب حولها اطفال الحي قد لطخها الدم • وان الحب الخالص والوفاء الشديد والعواطف السامية قد حالت الى عنف وقتل • وان الاشجار الباسقة قد تعرت من الورق واكتست بالجليد ، وان الأسوجة الشجرية المعقودة على حائط المقبرة القصير قد جردت من سندسها الاخضر ، وأمكنت الناظر ان يرى من خلالها القبور مغطاة بالثلج !

لم يكد يدنو فرتر من الحانة ويرى اهل القرية وقد تجمعوا امامها ، حتى ارتفعت الاصوات فجأة • وأبصر على البعد قوما شاكي السلاح قد اخذوا بتلابيب رجل يقول الناس انه القاتل • رآه فرتر وملأ منه عينيه فانجلى الشك وأيقن انه هو • هو الفلاح عاشق تلك الأيم ، هو الرجل الذي لقيه منذ قليل يهيم في الحقول مستسلما لحنقه الصامت ويأسه المكنون •

تقدم فرتر نحو الأخيذ وقال له :«ماذا صنعت يا مسكين ؟» فنظر اليه الرجل نظرة هادئة كعادته دون ان ينبس • كان جوابه اليه هذه

الجملة : «انها لن تنال احدا ولن ينالها اجد» . ثم قادوه الى الحانة وتولى فرتر مسرعا .

زعزعت هذه الصدمة القوية كيان صديقنا البائس وفتت في عضده . بيد انه تماسك حين وقع في نفسه وهيمن على فكره ان ينقذ هذا الرجل الذي يدرك بؤسه وشقاوته ، ويرى على الرغم من اجرامه براءته ونزاهته. واعتقد انه سيحمل الناس على متابعته والاخذ برأيه . بدأ في نفسه هذا الخاطر رجاء وأمنية ، ثم ما نشب ان عاد حقيقة ممكنة . وأخذت كلمات الدفاع المؤثرة تنثال على شفتيه . فانطلق وشيكا يؤم بيت الصيد ولسانه في الطريق يردد عاليا ما سيقوله للحاكم في هذا الموضوع .

ولج فرتر البهو على الحاكم فوجد معه ألبير فاضطرب قليلا ثم تمالك وأخذ يذكر رأيه في امر القاتل بحدة وحمية ، ويفيض في الدفاع عنه باخلاص وحسن نية ، فلم يترك كلمة في تبرير عمل وتبرئة رجل الا قالها ، والحاكم في اثناء ذلك يهز رأسه دون ان يتحرك قلبه لهذا الدفاع المخلص المؤثر كما توقعه الحضور من قبل . وأكثر من ذلك انه لم يترك صديقنا يتم دفاعه ، بل احتج على كلامه بقوة ونعى عليه ان يتولى الدفاع عن قاتل وأظهر له ان السير على هذا السنن يلغي القوانين وينقض حبل الامن ، وانه لا يستطيع الدخول في هذا الامر دون ان يحمل من ورائه تبعة عظمى . ثم ختم قوله بأن المرء محتوم عليه ان يساير ولا يتعدى حدود القانون .

لم يسلم فرتر بهذه الاسباب والتمس من الحاكم ان يغض الطرف اذا مهد للشاب سبيل الهرب . فرفض الحاكم هذا السؤال ايضا .

ودخل ألبير في الحديث فعزز رأي الشيخ وشايعه . فأذعن فرتر لحكم الكثرة ، وخرج على وجهه ونفسه تكاد ترهق من الالم بعد ان سمع الشيخ يكرر هذه الجملة : «ليس في مقدور احد ان ينقذه» فأثرت فيه هذه

الكلمات تأثيرا بليغا يظهر في جملة كتبها ذلك اليوم على رقعة وجدت بين اوراقه وهي :

«ليس في مقدور احد ان ينقذك ايها البائس ! أجل أعلم ذلــك وأعتقده ٠ ليس في مقدور احد ان ينقذنا» ٠

ولقد كان لما قاله ألبير في شأن القاتل اثناء الحديث وقع مؤلم فـي نفسه ، اذ تبين فيه أثر الموجدة عليه ولتنكر له ٠

ثم فكر فرتر فيما كان فرأى بعقله المنطقي ان الحق مع خصميه ، ولكن خيل اليه ان متابعتهما على ما يريان ما كانت تقع الا اذا تجرد من وجدانه وعواطفه ٠ على اننا وجدنا كذلك في اوراقه بعض سطور تتصل بهـذا الموضوع وتصف حالته وعلاقته مع ألبير قال : «ماذا ينفعني ان يقول الناس ويعيدوا انه طيب القلب كريم ؟ انا لا استطيـع ان اكون عادلا ، وذلك ما يستوقد قلبي ويمزق حشاي» ٠

***

وجدت شرلوت وزوجها ان هواء المساء فاتر عليل ، فاختارا ان يعودا الى المدينة راجلين ٠ وبينما هما في الطريق كانت شرلوت تلتفت وراءها الحين بعد الحين كأنما كان يعوزها وجود فرتر واصطحابه ٠ ثم اخـذ ألبير يخوض في امر فرتر ويلومه بانصاف وعدل ٠ ولما جر الحديث الى هواه المنكود ود لو انه استطاع البعد ابتغاء لراحته وهدوئه ٠ ثم قال : «وأرى ان في ابتعاده راحتنا وهدوءنا كذلك ٠ فعسى ان تحولي نهجه معك الى جهة اخرى ، والا تكون زيارته اياك الا لماما ٠ فقد بدأ الناس يظنون ، ولعلهم اخذوا يتهامسون» ٠

فسكتت شرلوت ولم تجب . ورأى ألبير في سكوتها جرحا لعزته وهونا لنفسه . فتحاشى منذ يومئذ ان يذكر فرتر امامها تصريحا او تلميحا ، حتى اذا هي حدثت عنه اخمد نشاط الحديث او حول مجراه .

***

كان سعي فرتر الباطل في انقاذ القروي القاتل اشبه بالومضة الاخيرة من شعلة فانية او شمعة محتضرة . فقد عاد بعد اخفاقه فيه الى أشد ما يكون من الحزن والالم والخمود ، ولاسيما حين علم انه ربما دعي الى الشهادة على ثبوت الجريمة بعد ان جنح المجرم الى الانكار وعمد الى التنصل . ثم ورد على خاطره كل ما لقيه في حياته العاملة من مكاره ومحن ، فذكر ما عاناه لدى السفير من غم وذلة ، وتصور ما صادفه في أموره من يأس وخيبة ، فجاشت غصة الهم في صدره ، وثارت عوامل القلق في فكره ، وتخيل ان ذلك كله يسوغ له عيش الفراغ والعطلة ، وأنه لا يرى في المستقبل رجية ولا أمنية ، ولا يجد نفسه بعد ذلك اهلا لعمل من اعمال الحياة العادية . وكذلك كان فرتر يقترب من عاقبته الوبيلة مستسلما لعواطفه ووساوسه ، مسترسلا في افكاره وهواجسه ، مستكينا لهوى مبرح لا غاية له ولا مخرج منه ، مستمرا على صلاته المتشابهة الاليمة بتلك المخلوقة التي ملأ بها فراغ قلبه ، وكدر صفو عيشها بحبه ، ممعنا في تبذير مواهبه واتلاف قواه من غير غرض ولا موجب .

وان فيما بقي لدينا من كتبه لبينات مسلمة على شدة اختباله ، وتحكم هواه ، ومبلغ اضطرابه ، واستنزاف جهوده ، واشمئزازه من الحياة . وها نحن اولاء نرويها على سوقها ونثبتها بنصها :

١٢ ديسمبر

عزيزي وليم ! اصبحت في الحال التي يكون عليها اولئك المساكين الذين يتخبطهم الشيطان من المس كما كان يزعم الاوائل . تعتريني في الغالب تلك الحال فلا أتبين لها كنها ؛ لا هي رغبة ، ولا هي رهبة ، وانما هي ثوران دخيل مبهم ، يقوم بصدري فأخاله يتمزق ، ويأخذ بكظمي فأجدني أختنق . وفي تلك الساعات الرهيبة اخرج هائما على وجهي في ظلام الليل بين المشاهد المخيفة والمناظر المروعة التي تتجلى في هـذا الفصل فصل الشتاء عدو الانسان .

لم استطع ان أحبس نفسي عن الخروج مساء الامس ؛ فقد بغتنا ذوبان الجليد ؛ وقيل لي ان النهر طغى والجداول فاضت ، ووادي العزيز يعب عبابه ابتداء من ولهم . فخرجت أعدو اليه وكانت الساعة الحادية عشرة . فيا لله اي مشهد رائع شهدت ! نظرت من اعلى الصخرة فاذا الامواج المزبدة تصطخب في ضوء القمر وقد شققت [٢] الارض وغمرت الحقول والمروج والآجام والأسوجة فلا ترى بين عدوتي [٣] الوادي غير بحر لجي يثور ويضطرب على عصف الرياح الهوج .

ولما احتجب القمر هنيهة وسفر من فوق غمامة جوناء انعكست انواره الرهيبة الوضاءة على الامواج الهدارة بين قدمي ، عرتني هزة قوية اعقبتها شهوة شديدة .. آه ! لقد كنت هناك على شفا الهاوية وعيناي مفتوحتان ، وذراعاي مبسوطتان ، وقلبي تواق مشوق الى الهوى في قرارة الماء ، لأدفن معي ما أكابد من عذاب وعناء ، وأدع نفسي لغوارب [٤]

---

٢ ــ شقق الارض الماء : غمرها .
٣ ــ عدوتا الوادي : ضفتاه .
٤ ــ الغوارب : الامواج .

السيل تحملني حيث تشاء ! فمالي جمدت وسُمرت قدماي في الارض فلم أجعل لهذا العذاب حدا وغاية ؟ ان ساعتي لما تحن بعد ، ولكنـي أحسها ! آه يا وليم ما كان أسرني وأبهجني لو خرجت عن طبيعتـي البشرية فأقتحم الجو مع العواصف أخترق السحب وأثير الامواج ! ليت شعري أما تكون هذه اللذائذ من نصيبنا ايها المسجونون يوما ما ؟

ما كان أشد اسفي حين صوبت طرفي الباكي الى مكان صغير قدت اليه شرلوت ذات يوم من ايام الصيف فتفيأنا شجرة من الصفصاف فيه ! لقد رأيته يعج بالماء عجيجا حتى كدت لا أتبين الشجرة . فتذكرت حينئذ مروجه وضواحيه وقلت في نفسي : «صنع الله لهذا السيل المجحف ! لكأني به وقد قوض عشنا المحبوب وخرب مهدنا الأعز !» ثم ومض في جوانب نفسي المظلمة شعاع من شمس الماضي كما يحلم السجين بالمروج والقطعان ، ويمني نفسه المجد والشرف . فبقيت صامتا لا أتحرك .. انا لا أتهم نفسي فان عندي على الموت شجاعة وجلدا .. اذن مالي اصبحت كالعجوز تلتقط حطبها من جوانب السوج ، وتجمع خبزها من فضلات البيوت ، لتطيل بقاءها وتخفف عناءها زمنا يسيرا ؟

١٤ ديسمبر

ما هذا يا صديقي ! لقد اصبحت اخاف نفسي وأخشاها ! ألم يكن حبي لها حبا أخويا نقيا لا يشوبه خداع ولا نقص ؟ هل شعرت في قلبي بلذة مجرمة وشهوة اثيمة ؟ اللهم لا داعي الى ان اقسم بك على ذلك او أشهدك عليه . اذن ما شأن هذه الاحلام الان ؟ لقد صدق الذين يعزون هذه الآثار المتضادة الى قوى خارجية غير طبيعية .

زارني طيفها الليلة ... أواه ! ان ذكر ذلك يخيفنـي ويرعدني ـ

فأخذتها بين ذراعي وسممتها الى قلبي بقوة ، ثـم انحنيت بالقبل الحارة على فمها الجميل العذب ، وقطفت من بين شفتيها الورديتين غماغم (٥) الحب الحي ، وكانت عيناي غارقتين في عينيها الفياضتين باللذة . رباه ! ألا أستحق غضبك وانتقامك بشعوري في هذه الساعة ايضا بالغبطة لدى ذكر هذا الطرب الشديد والهياج القوي !

شرلوت ! شرلوت ! لقد قضيت وقطع بي السبب ! هذي مشاعري منذ ثمانية ايام ذاهلة عاطلة ، لا اجد سبيلا الى التفكير ، ولا تجف عيني من البكاء . لا أحس نفسي موجودا في مكان ، وكأنني في كل مكان موجود ! لا أتشهى ولا أتلهى ولا أتمنى ! أليس أخلق بي وأجمـــل ان ارحل ؟»

* * *

كان موقف فرتر في ذلك الحين مما يقوي فيه العزم على ترك هذا العالم . وكان من لدن عودته الى شرلوت لا يجد عملا يرتجيه ولا غرضا يقصده الا تحقيق هذا العزم . غير انه قرر في نفسه ألا يكون هذا العمل سابقا لاوانه ، ولا مخالفا لعقله ووجدانه ؛ بل يريد ان يكون عن عقيدة صادقة وعزيمة هادئة ما امكنه ذلك . وستقرأ في هذه الرقعة التي تركها بين اوراقه غفلا من التاريخ مثار الشكوك في قلبه ، ونشوب العراك مع نفسه . وربما كانت فاتحة كتاب لوليم لم يتم :

«حضورها ، وحظها ، وعطفها علي ، وعنايتها بي ، كل اولئك يستقطر الدموع الباقية في محاجري الناضبة المحترقة . كل ما هنالك ان أزيح

---

٥ ــ الغماغم : جمع غمغمة ، وهي الكلام الذي لا يتبين .

الستر [٦] ثم أمرّ الى داخله ! ففيم التردد وعلام الاضطراب ! ألأنـي أجهل ما وراء الستار ! أم لانني اذا ذهبت لا اعود ! ام ذلك لان الفكر من خاصته ان يتوهم الظلام والالتباس والخلو فيما لا يعلمه علم اليقين» .

ثم اخذ هذا الخاطر يحلى رويدا في صدره ، ويتفق مع أماني قلبه ، حتى اضرب [٧] جأشا لهذا العزم كما يدل عليه هذا الكتاب المبهم الذي كتبه الى صديقه .

٢٠ ديسمبر

«لك الشكر يا وليم على ان فهمت كلامي كما كتبته . ولقد أصبت في نصحك لي بالرحيل فذلك خير وأولى . ولكن لم يرقني طلبك مني ان اعود اليكم ، فاني ارغب على الاقل ان اجول في البلاد جولة ، ولاسيما اذا أجلدت [٨] الارض وطاب الطريق . ولقد سرني كذلك عزمك المجيء للبحث عني : غير اني أتقدم اليك ان تمهلني خمسة عشر يوما ، وسيأتيك مني كتاب فيه تفصيل ما اجملت فانتظر . ان الثمرة لا تجنى قبل ان تينع . وان خمسة عشر يوما قبل او بعد تؤثر كثيرا . قل لأمي تدع الله لولدها، واطلب لي الصفح منها عما جررت عليها من الاذى والحزن . كذلك جدي! لا املك لمن كنت احب اسعادهم غير الشقاء والالم !

وداعا يا صديقي الأعز ، وسلام الله عليك وبركاته» .

أما ما كان يختلج في صدر شرلوت اذ ذاك ، وما كانت تحمله مـن

---

٦ ــ يريد الستر بين الحياة والموت .
٧ ــ ضرب جأشا لكذا : وطن نفسه عليه .
٨ ــ اجلدت الارض : اصابها الجليد .

العواطف لزوجها وصديقها فذلك ما سنحاول شرحه بالقول وان صعب . فان معرفتنا بأخلاق شرلوت تعيننا على ان نجمع في انفسنا رأيا وحكما عليها . وكل نفس كريمة تستطيع ان تتحد بنفس شرلوت فتفهم ما يجول فيها ويقوم بها .

مما لا شك فيه انها قطعت العزم سرا على ان تبتغي الاسباب لابعاد فرتر . فاذا عادها التردد فذلك لانها كانت ترغب رغبة المخلص والودود في ان تحفظ كرامته وترعى شعوره . فقد تعلم يقينا ما يجره عليه فراقها من الويلات والحرب ، بل ربما كان فوق طاقته ووراء احتماله . غير انها شعرت اذ ذاك بدافع شديد يدفعها الى العمل بحزم وقوة .

اما زوجها فقد ظل في هذا الموقف صامتا لا يصرح ولا يلمح ؛ وظلت هي كذلك في مثل حاله لا تبدىء ولا تعيد ، حتى اذا لم يبق للصمت موضع ارادت ان تبرهن لزوجها بالفعل ان عواطفها عدل لعواطفه ، وأخلاقها كفء لأخلاقه .

ذهب فرتر مساء اليوم الذي كتب فيه الكتاب السابق الى بيت صديقه يزور شرلوت فوجدها وحدها . وكان ذلك اليوم يوم الاحد الواقع قبل عيد الميلاد ، وكانت تعمل في ترتيب هدايا العيد التي أعدتها لاخوتها واخوانها فأخذ يتحدث عن سرور الاطفال بتلك اللعب ويذكر ما كان يجد في نفسه من الطرب وهو صغير حين يُفتح الباب فجأة فتظهر الشجرة (٩) الموقرة بالشموع والتفاح والحلوى . فقالت له شرلوت وقد

---

٩ ـ الشجرة : من عادة الالمان ان يخبئوا ليلة عيد الميلاد شجرة موفرة بالشموع الصغيرة والحلوى المختلفة في خزانة كاذبة ، ثم يفتحونها على غرة من الاطفال فيسروهم بهذه المفاجأة الحسنة .

سترت ارتباكها بابتسامة حلوة : «ستنال هداياك انت ايضا اذا عقلت : شمعة صغيرة وشيء اخر» فقال لها : «ماذا تعنين يا شرلـوت بالعقل ؟ وكيف ينبغي ان اكون ؟ وماذا استطيع ان افعل ؟» فقالت له : «ان ليلة الخميس هي ليلة العيد ، وسيحضر الاطفال مع ابيهم ليأخذوا هداياهم • فاحضر انت ايضا ، ولكن اجعل حضورك معهم لا قبل ولا بعد» • فوجم فرتر كأنما افرغت عليه دلوا من الماء واستمرت شرلوت تقول : «سألتك بالله ان تسمع لقولي وألا تنبو [١٠] في يدي ، فذلك ما لا بد منه • أطع بحقي عليك ايثارا لراحتي وسلامي • لا ينبغي ان تدوم هذه الحال طويلا، فان ذلك اصبح مستحيلا» •

فأشاح عنها بوجهه ، وأخذ يتمشى في الغرفة مغمغما بهذه الجملة : «لا ينبغي ان تدوم هذه الحال طويلا !» وأحست شرلوت بلهيب كلامها في قلبه ، وتأثير ملامها في نفسه ، فأرادت ان تلهيه بالاسئلة المختلفة عن امره وتذهله عن فكره فما رجعت بطائل • ثم صاح فرتر قائلا : «كلا ، لن اراك يا شرلوت بعد !» فأجابته على الفور : «لماذا يا فرتر ؟ تستطيع ان تراني ، ويجب ان تراني ، ولكن اضبط نفسك وأملك هواك • سبحان الله لم خلقت هكذا قوي الحدة شديد الانفعال يشتعل هواك بما يلقي كما تشتعل النار بما تمس !» ثم تناولت يده وقالت : «نشدتك الله والود ان تقبض زمام نفسك ! ان لك في فكرك وعلمك وذهنك لفنونا مـــن اللذة وضروبا من اللهو • كن رجلا وخلص نفسك من غرام مشئوم بفتاة لا تملك الا الرثاء لك والاشفاق عليك» • فتأوه فرتر وصر بأسنانه ، ثم نظر الى شرلوت نظرة هم وكآبة ويده لا تزال في يدهـــا • فقالت له : «أعرني لحظة واحدة من رباطة جأشك وهدوء نفسك يا فرتر • ألا تشعر

---

١٠ ــ نبا في يدها : عصاها •

بأنك تخدع نفسك وتسوقها الى الهلاك عن رضا وطواعية ؟ ما معنى ان تقصر هواك علي يا فرتر وأنت تعلم ان زمامي بيد آخر ؟ انا اخشى ان يكون يأسك مني هو ما يهيج رغبتك فيّ ويضرم ولوعك بي ؟» فنزع يده من يدها ورماها بنظرة هم وسخط ثم قال : عقل رصين وحق مبين! لعل هذه الملحوظة لألبير ، فانها على ما ارى دقيقة عميقة ! فأجابته شرلوت: «كل يستطيع ان يلحظها • اما في العالم كله فتاة تبلغك ما في نفسك وتدني قلبك مما يؤمل ؟ اشغل بالك بالبحث عنها ويمين الله لتظفرن بها• لقد ساورني القلق منذ طويل عليك وعلينا ، وداخلني الخوف من تلك العزلة التي سلمت اليها نفسك طوعا • استعد قواك ثم اعزم رحلة تنسيك وتسليك ، ونقب عن فتاة تكون اهلا لحبك ، وكفاء لقلبك ، ثم عد الينا تتمتع جميعا بنعمة الصداقة الخالصة ، ولذة العشرة الصادقة» • فقال فرتر ، وقد افتر عن ابتسامة مرة : «يجب ان يطبع هذا الخطاب في كتاب ثم يوصي به المعلمون • عزيزتي شرلوت ؟ خليني قليلا من الزمن في سلام وراحة ، وسينتهي الامر على ما تشائين» • فقالت له شرلوت : «لا اطلب اليك الا شيئا واحدا : ألا تجيء قبل ليلة العيد» •• فهم فرتر بالجواب لولا ان دخل ألبير •• فتبادل الرجلان التحية بفتور ثم طفقا يمشيان في الغرفة مرتبكين • وأخذ فرتر في كلام لا معنى له ، وفعل ألبير مثل ذلك • ثم أقبل على زوجته يسألها عن عمل كلفها اداءه ، فاجابته ان يدها لما تمسه • فكلمها كلمات رآها فرتر جافة باردة ، فهم بالخروج فعيّ بالنهوض فبقي مترددا حتى دقت الساعة ثماني دقات ، وهو في خلال ذلك يشعر بنمو الانقباض والحزن في صدره • فلما اقبلوا يمدون الخوان تناول عصاه وقبعته ونهض • فاستبقاه ألبير للعشاء فحمل دعوته على المجاملة الكاذبة وشكره ببرود ثم خرج •

فلما رجع الى منزله وجد خادمه ينتظره بالمصباح ، فأخذه من يده

ودخل الى حجرته ، وأخذ يمشي فيها طولا وعرضا وهو يبكي أحر بكاء، ويحدث نفسه غضبان مشترك الخاطر ، حتى ضاق بحمل نفسه ، فتطرح على فراشه دون ان ينضو ثوبه . كذلك وجده خادمه في الساعة الحادية عشرة حين خاطر بالدخول عليه من ذات نفسه يسأله ان يخلع له حذاءه. فتركه يفعل ، ثم حظر عليه دخول الغرفة في صباح الغد قبل ان يدعوه .

وفي صباح الاثنين الحادي والعشرين من ديسمبر كتب الى شرلوت هذا الكتاب ، وقد وجدوه بعد موته مختوما على مكتبه فألقوه اليها . ونحن نثبته هنا قطعا مجزأة نرتبها على ما يظهر لنا من مساق الحوادث والظروف .

«عقدت النية وقطعت العزم يا شرلوت على ان اموت . أكتب اليك هذا الكتاب وأنا هادىء مطمئن لا سلطان للخيال علي، ولا سبيل للحماسة الي ، في غدوة يوم سأراك فيه لآخر مرة !

«في الساعة التي تقرئين فيها هذا الكتاب يا حبيبة القلب يكون القبر الموحش قد اكتنف بظلامه وبرده بقايا هذا البائس الذي لم يجد في اخر حياته القلقة أسر ولا أسعد من الحديث اليك .

«كانت ليلتي طويلة مروعة ! ومالي اقول ذلك وهي التي قطعت عزيمتي على الموت ؟ لم اكد اخرج من عندك بالامس حتى هاجمني الانفعال والجزع ، وتمثلت حياتي بقربك من غير سرور ولا امل فطارت نفسي شعاعا من الفزع . وما بلغت البيت حتى جثوت على ركبتي فاقد الرشد . ومنّ الله علي بنعمة البكاء فنفّس عن صدري المكروب . ومرت على قلبي خواطر شتى ومقاصد جمة ، فلم يبق منها ثابتا مكينا غير فكرة واحدة : هي الموت . نمت واستيقظت فوجدتني وادعا مطمئنا ، ثم تلمست جوانب نفسي فلم اجد فيها قويا ثابتا غير هذه الفكرة فكرة الموت .. لم يكن ذلك لقنوط ولا يأس ، وانما كان لاني نزحت معين

الاسى ، وجرعت كأس الالم ، وأردت ان أجعل نفسي فداء لغبطتك وراحتك . أجل يا شرلوت ! الى متى الكتمان والصمت ؟ لا بد ان يموت احد ثلاثتنا وأريد ان اكون ذلك الواحد ! آه يا حبيبة القلب ! طالما اندس في فكري ان أقتل زوجك ، او اقتلك ، او اقتل نفسي ! وها قد وقع الخيار علي !

«اذا ما تسنمت الجبل وعلوت الربوة في أصيل يوم من ايام الصيف الجميلة فاذكريني! واذكري كم مرة جئت هذا الوادي ساعيا اليك! ثم ارسلي طرفك الى الجهة الاخرى وصوبيه نحو المقبرة وانظري هناك تجدي ضريحي تتمايل عليه الاعشاب الطويلة في أشعة الشمس الغاربة !

«لقد كنت في بدء الكتابة هادئا . فلما تراءت لي هذه الصور الحية العابسة نفر مني الهدوء ، ونأى عني الجلد ، وبكيت كما يبكي الطفل أفحمه البكاء» .

***

دعا فرتر خادمه قبيل الساعة العاشرة وقال له وهو يرتدي أثوابه :

«اني ازمعت الرحيل بعد بضعة ايام فنظف وهيء حقائبي ، واذهب الى التجار فاقض ما لهم علي من الدَين ، واسترد الكتب المعارة ، واعط صدقة شهرين للفقراء الذين اعتدت الاحسان اليهم في كل اسبوع» .

ثم أعد لنفسه الغداء في غرفته فتغدى ، وركب الجواد الى الحاكم فلم يصبه حاضرا . فأخذ يتنزه في الحديقة والافكار تسايره وتساوره وهو ذاهل مستغرق ، كأنما اراد ان يستجمع كل ذكرياته المؤلمة في هذه اللحظات الاخيرة ليعظم بثه ويزداد حزنه . على ان الاطفال لم يدعوه وأفكاره طويلا بل سارعوا اليه وتراموا عليه وقالوا له : «اذا فات غد ، وغد بعده ، ويوم آخر ، ذهبنا الى شرلوت تتقبل منها هدايا العيد !» ثم

وصفوا له الاعاجيب التي تمنيهم بها مخيلاتهم الطفلية وهم فرحون مستبشرون . اما هو فقد صاح قائلا : «غد ! وغد بعده ! ويوم آخر ..» ثم قبّلهم بحنان وعطف ، وأراد ان يذهب فعلق به اصغر الاخوة يريد ان يلقي اليه كلاما في أذنه . فمال به ناحية واستمع اليه فاذا هو يقول سرا: «ان اخوتي الكبار قد كتبوا تهانيء جميلة بالنيروز [10] على ورقة كبيرة ! كبيرة ! منها تهنئة الى ابي ، وتهنئة الى ألبير وشرلوت ، وتهنئة الى السيد فرتر . وهم يريدون ان يقدموها صباح يوم النيروز» . فما سمع فرتر ، هذه الكلمات حتى رهقه من الجزع ما ضاق عنه وسعه ووهن به جلده . فأعطى كل واحد من الاطفال شيئا من النقود وحملهم السلام الى ابيهم . ثم امتطى جواده وذهب دامع العين مفطور الفؤاد رجع الى منزله في الساعة الخامسة فأوصى خادمته ان تعني بالنار وأن تمدها بالوقود حتى تدوم هزيعا من الليل . وأمر خادمه ان يضع كتبه وأمتعته في الصندوق وأن يصر ملابسه في صرة . ومن المحتمل انه كتب حينئذ الفقرة الآتية من كتابه الاخير الى شرلوت :

«انت لا تنتظرينني ! تحسبين اني أطيعك فلا اراك الا ليلة العيد ! لا وأبيك يا شرلوت ! اما لقاء اليوم واما فراق الابد .

في ليلة العيد ستتناولين هذه الورقة بيديك فترتعدين ، ثم تبللينها بدمعك الغالي العزيز . انا أريد ذلك [11] .. وأراه واجبا .. ما أسعدني بهذا العزم الذي لا يتزعزع ولا يحور» .

على ان شرلوت كانت اذ ذاك في مأزق حرج وحال سيئة ، فقد دلها حديثها الاخير مع فرتر على مبلغ ما سيلقاه كلاهما من الاسى والالم لفراق

---

١٠ ــ النيروز : عيد راس السنة .
١١ ــ يريد الانتحار .

صاحبه • وقد اتفق ان قالت امام ألبير ان فرتر لن يعود قبل ليلة العيد• ثم عرض لألبير امر مع بعض الحكام فسافر اليه على جواده ، ولن تتسنى له العودة قبل الغد • فبقيت شرلوت في المنزل وحدها لا يؤنسها من عشيرتها اخ ولا اخت ، فاستسلت صامتة لافكارها وهواجسها • ومر على قلبها حال نفسها وحرج موقفها ، فرأت انها متصلة ابد الدهر برجل تعرف فيه الوفاء والحب ، وتضمر له الاخلاص والود ، وتجد في اخلاقه المتينة الرضية ضمانا قويا لسعادة امرأة فاضلة، وتذكر له اياديه عليها وعلى عشيرتها الاقربين • ثم رأت تلقاء ذلك فرتر وقد اصبح اليها حبيبا وعليها عزيزا ، فوجدت ان نفسيهما تآلفا منذ تعارفتا ، وأن عشرتهما المستعرة ، ومودتهما المتبادلة ، وعواطفهما المتجددة ، قد تركت في قلبيهما اثرا لا يعفو على الزمان ولا يبيد • تعودت ان تساهمه ما تفكر فيه وما تشعر به، فخشيت ان يحدث فراقه في حياتها فراغا لا يملأ وصدعا لا يرأب • آه! ما كان اسعدها لو امكنها ان تحوله الآن اخا لها ، او تزوجه على الاقل من احدى صواحبها ، او تقوي ما وهن من اسباب المودة بينه وبين ألبير ! ثم عرضت في نفسها جميع صواحبها واحدة فواحدة ، فأخذت على كل منهن شيئا في اخلاقها ، ونقصا في طباعها ، ولم تجد فيهن من تستحق ان تتخلى عنه لها •

أحست شرلوت لاول مرة — دون ان تعترف صراحة بما تحس — ان رغبة قلبها ومنية نفسها ان يكون فرتر خالصا لها دون سواها • ولكن صوتا من اعماق ضميرها ناداها : هيهات ! لا تستطيعين ان تستخلصيه فقد غدا عليك حراما • فسقط قلبها النقـي الطاهر بعد خلوة من الهم او اضطلاعه به رازحا تحت عبء من الحزن لا يشعر به من دجا امامه اليأس فلم يجد اثرا للسعادة •

على تلك الحال الاليمة والبال الكاسف قضت شرلوت يومها • فلما

انتصفت الساعة السابعة من مسائه سمعت خطوات فرتر على السلـــم وصوته على الباب يسأل عنها ، فخفق قلبها لقدومه ــ ولا بأس ان نقول ذلك ــ وتلك كانت اول مرة ؛ فهمّت بأمر الخادم ان ينكر وجودها لولا ان دخل ، فلم تر بدا من قولها له بلهجة الولهان الذاهل : «انك لم تصدق في قولك ، ولم تبر بوعدك» ، فقال لها «ما قلت ولا وعدت» .. فقالت: «لقد كان أقل ما يكون ان تجيبني الى ما سألت ابتغاء لراحتي وراحتك» . فما كان من فرتر الا ان وضع كتبا كانت معه ثم طلب غيرها . امـــــا شرلوت فما كانت تدري ما تقول ولا ما تفعل . ثـــم عن لها ان تبعث خادمها في طلب فتاتين من صواحبها تشهدان الحديث ، حتى لا تكون في خلوة مع فرتر . وبقيت مترددة بين عاملين مختلفين ، فتارة تتمنى ان تجيء الصاحبتان وتارة تتمنى ألا تجيئا . فلما عادت الخادمة تحمـــل جوابيهما بالاعتذار خطر لها ان تأمر هذه الفتاة بالمكث في الغرفة المجاورة. ثم بدا لها فأمسكت . وأخذ فرتر يمشي في الغرفة ذهابا وجيئة . وحاولت هي ان توقع على بيانها لحنا فما استطاعت . فعادت الى مكانها وجلست هادئة بجانب فرتر ــ وقد اخذ مجلسه المعهود من الكنبة (١٢) ــ ثم قالت له : «أما معك ما تقرأه فاسمع ؟» فأجابها : «لا شيء معي» . فقالت : «ان في درجي تلك الاناشيد التي ترجمتها انت من ديوان أسيان لم اقرأها بعد املا في ان اسمعها منك ، فما سنحت الفرصة ولا سمح الزمن . فتبسم فرتر وذهب يأتي بمخطوطه ، فما مسه حتى استقلته الرعدة ، وما فتحه حتى غلبه البكاء ، فرجع بالكتاب الى مكانه من الكنبة وأخذ يقرأ :



١٢ ــ الكنبة : آثرنا هذه الكلمة الاعجمية على الاريكة والصفة والمسورة لانها أدق في الدلالة على معناها ولا تخرج عن الاوزان العربية .

«يا كوكب الشفق ويا نجمة الليل الوليد ! ما أعجب ان ينير الغرب ضوءك اللألاء ، ويسمو فوق الغمام جبينك الوضاء ، وتنتقل خطاك فوق الربوة بعزة وكبرياء !

«عم يبحث طرفك الساجي في سهول الخلنج ؟

«لقد سكنت رياح العاصفة ، وبلغ أسماعنا دوي السيل من بعد ، ولعبت صواخب الموج على أقدام الصخور الوعرة ، وانتشرت حشرات الليل الطنانة زمرا في الحقول .

«ماذا تنظر ايها الكوكب الجميل ؟ مالك تبسم ثم تختفي ؟ ان الامواج تسارع اليك ، وترقص حواليك ، وتبلل ذيلك الفخم الجميل !

«اذهب بسلام ايها النور الصامت الهادىء ، ولح يجلاء يا نور نفس أسيان !

«بدا النور أشد ما يكون تألقا وزهوا ، فرأيت صحابتي المتوفين وقد تجمعوا حول لورا كما كانوا يفعلون في تلك الأزمن السعيدة الخالية . وتقدم فنجال كأنه عمود من ضباب ندي ، وقد أحدق به أبطاله ، والتف من حوله اشباله . وأقبل الشعراء أولو الاناشيد الخالدة : فهذا أولين ذو الشعر الفضي ، وذاك رينو الجليل العظيم ، وهناك ألبين ذو الصوت الرخيم ، وهنا مينونا ذات اللهجة الشاكية العذبة .

«لشد ما تغيرتم ايها الصحاب بعد ايام سلمي ! تلك الايام التي كنا نتقاتل فيها على جوائز الغناء تقاتلا لينا محمودا كأنفاس الربيع الضاحك تهب من فوق الاكام والربى ، فتخدد الاعشاب [13] الكثيفة ، وتحني السيقان الضعيفة . هذه ميلونا تتقدم وكأنها مثال الجمال او آلهة الحسن . نظراتها مصوبة الى الارض ، وعيناها مخضلتان بالدمع ، وشعرها

---

١٣ ـ تخدد : تشقق .

المرسل الأثيث يهتز في يد النسيم الهابط من الربوة ٠

«ولما ارتفع صوتها الرخيم الحنون بالرثاء خيم الحزن على قلـــوب الابطال ، لانهم طالما ابصروا قبر سلجار ، وشاهدوا ظلام بيت كالمى في أحضان الثلج ٠

«لقد كانت كلمي ذات الصوت العذب وحدها على الربوة تنتظـــر اياب سلجار وقد وعدها ان يؤوب ٠ على ان الليل ارخى سدوله علـــى الربى والبطاح ولم يعد المنتظر ٠ اسمعوا صوت كلمى وهي وحدهــا جالسة على الربوة» ٠

كلمى

«غشيني الليل بظلامه وأنا وحدي منسية على الربوة وقد هاجمتها الزوابع . الريح تعصف هوجاء فوق الجبال ، والسيل يتدفق مدويا بين الصخور ، ولا ملجأ لي من المطر ولا كنّ . انا وحدي متروكة على الربوة وقد هاجمتها الزوابع » .

«أخرج ايها القمر ساطعا من بين الغيوم ، وانشري أضواءك الزاهية يا نجوم الليل ، فعسى ان اهتدي الى حيث يستريح حبيبي من متاعب الصيد ، وقوسه المرخاة ملقاة الى جانبه ، وكلابه اللاغبة راقدة من حوله؛ ولكن كتب علي ان ابقى هنا فريدة على الصخرة المعشبة ! ان السيل يزخر ، وان العاصفة تزأر ، فلا استطيع ان أسمع صوت حبيبي !

«لماذا تبطيء يا حبيبي سلجار ؟ هل نسيت موعدك ؟ هذه هي الشجرة ، وتلك هي الصخرة ، وها هو ذا السيل يدوي ! لقد وعدت ان تكون هنا مع الليل ! والهفتاه ! اين ضل حبيبي ؟ كنت أريد ان أقر معك

بعيدا عن ابي الجبار وأخي المتكبر .

«لقد جف الثرى [1] بين قومينا فتعاديا منذ طويل . اما نحن فلسنا عدوين يا سلجار ! أحبس نفسك ايها الهواء لحظة ، وقف جريانك ايها السيل لمحة ، فعسى ان يرن صوتي في جوف الوادي فيسمعه حبيبي التائـه !

«سلجار ! هأنذى ادعوك ! هذه هي الشجرة ، وتلك هي الصخرة . حبيبي سلجار ! هلم الي فهأنذى . لماذا ابطأت في العودة ؟ انظر ! لقد اسفر القمر في السماء ، وتلألأت الامواج في الوادي ، وابيضت الصخور على جوانب الهضبة ، وحبيبي لا اراه فوق القمة ، وكلابه لم تسبقه معلنة قدومه . لقد كتب علي ان ابقى وحيدة !

«ولكن من هذان الراقدان هناك فوق سهول الخلنج ؟ أهذا حبيبي؟ أذاك اخي ؟ ردا علي الجواب يا خليلي . ويلاه ! انهما لا يجيبان ! واحر قلباه من حزن يذيبه وجوى يحرقه ! لقد ماتا وبجانب كل منهما سيفه تجري على ماء حديده نار الدماء . اخي ! لمَ قتلت حبيبي ؟ حبيبي ! لم قتلت اخي ؟ لقد كنتما عزيزين علي . كان حبيبي اجمل الرجال في الجبل ، وكان اخي أشجع الابطال في المعركة . أجيبا النداء واسمعا الصوت يا خليلي ! ولكن هيهات ! لقد اصابهما الخرس الابدي فعيا عن الجواب ، وبردت أحشاؤهما فأصبحت كصئيد الارض !

«كلموني يا ارواح الموتى من فوق الهضبة ومن اعلى الجبل . كلموني فأني لا أرتاع ولا افزع . خبروني اين تلتمسون الراحة ؟ أفي الغيران والكهوف اوافيكم فألاقيكم ؟ حنانيك يا رب ! لا يحمل الهواء الـي

---

١ ـ لقد جف الثرى : كناية عن العداوة والخصومة .

صوتا ، ولا ترد العاصفة علي جوابا ! انا وحدي في وسط الآلام ، أتتظر الصباح باكية بدموع الغمام ! احفروا القبر يا اصدقاء الموتى . ولا تهيلوا التراب قبل ان تأتي كلمى ! مضت حياتي مضي الحلم ، وسبق الذين احبهم فلم اتأخر عنهم ؟ هنا اريد الثواء بجانب الاحبة على ضفة الجدول الهادر فوق الصخرة !

«حينما يضرب الليل بجرانه على التلعة ، وتهب الريح رخاء فوق الخلنج ، تجدون روحي مع الهواء تبكي الاحبة وترثيهم . سيسمعني الصائد في كوخه فيفزعه صوتي ، ولكنه لا يلبث ان يحبه ، فان صوتي سيكون عذبا رخيما في رثاء الحبيبين . لقد كان كلاهما عزيزا علي !»

***

«هكذا كان غناؤك يا مينونا يا ابنة طرمان ، يا ذات الوجنتين المضرجتين بحمرة العفاف والخجل . لقد سالت مدامعنا وجويت نفوسنا رحمة لكلمى .

«ثم تقدم أولين ومعه قيثارته فأسمعنا نشيد ألبين . كان صوت ألبين رخيما ، وكان رينو متوقد النفس عظيما ، ولكن المنية علقتهما معا فما تسمع نبرات صوتيهما في كلمى !

«مر بهما ذات يوم أولين وهو عائد من الصيد فسمعهما يتعاقبان الغناء فوق الجبل ، وكان غناؤهما مطربا شجيا ، يندبان به مصرع مورار رأس الابطال . كانت نفس مورار كنفس فنجال ، وسيفه كسيف أسكار ، ولكنه خر صريعا فلم يغن ذلك عنه شيئا . فبكاه ابوه ، وأعولت عليه اخته مينونا الجميلة اخت مورار الباسل !

«لم تكد تسمع مينونا غناء أولين حتى انصرفت كالقمر أنذرتـــه العاصفة بالمطر ، ففر الى المغرب وستر رأسه الجميل بين السحب •

«اما انا فانطلقت اناملي على القيثارة تتابع أولين في هذا اللحـن المحزن :

رينو

«سكت الريح ، وأقلعت السماء ، وصفا الجـو ، وانقشع الغمام ، وشعشعت الشمس وهي هاربة زهور الربى المخضرة ، وألقت الارجوان من نارها على موج الجدول . ما اجمل خريرك ايها الجدول ! ولكـــن اجمل منه ذلك الصوت الذي اسمع : صوت ألبين يندب الامـــوات ويرثيهم ، وقد مالت برأسه الهموم وقرح جفنيه البكاء . مالي اراك ايها الشادي الرفيع وحيدا على الربوة المقفرة الصامتة ؟ ولماذا تئن أنين الهواء السجين في الغابة ، وتنتحب انتحاب الموج على الساحل البعيد ؟

البين

«ان دمعي يا رينو على الاموات موقوف ، وصوتي في رثاء الظاعنين معروف • انت فوق الربوة جليل عظيم ، وبين اطفال السهول جميل وسيم ، ولكنك ستصرع كما صُرع مورار ، ويقف على قبرك اصحابك المحزونون يبكونك ويندبونك ! ستنساك التلاع ، وستبقى قوسك المرخاة مهجورة في احدى زوايا القاعة الكبرى ! لقد كنت يا مورار سريعا كالظبي فوق الجبل ، مروعا كالنار تضطرم ليلا في الافق • وكان غضبك يثور كالزوبعة ، وسيفك يلمع كالبرق في المعمعة ، وصوتك أشبه بهدير السيول غب المطر ، او بقصف الرعود على التلال النائية • كنت اذا حمي الوطيس اطفأته بالدماء ، وأحرقت بنار غضبك جسوم الاعداء ، فاذا اغمدت السيف عاد صوتك هادئا كصوت الطفل ، ووجهك طلقا أبلج كالشمس بعد العاصفة ، او كالبدر في الليلة الساكنة الصامتة ، وأصبح صدرك الثائر الهائج كصدر البحيرة اذا ما قر الهواء وسكن • ما أضيق

اليوم مثواك ! وما أظلم يا مورار مأواك ! وما أعجب ان يوارى مجدك وعلاك قبر ذرعه ثلاث خطوات ! واحسرتاه ! لم يبق لمورار القـــوي القادر من أثر يتبينه السائح غير اربعة أحجار كللت رؤوسها الأشنة ، وشجرة نضت اوراقها يد الخريف ، وأعشاب سامقة ترقص على صفــير الرياح ! ليس لك أم تذرف عليك دموع الحنان ، ولا خطيبة تسكب عليك دموع الحب ! لقد ماتت امك وهلكت بنت مرجلان !

«من ذلك القادم متوكئا على عكازته العقداء ؟ ذلك ابوك يا مورار ! الذي لا ولد له غيرك ولا وزر له سواك ! لقد قرع مسمعيه صيتك في صدق اللقاء ، وتشتيتك الاعداء تشتيت الهباء في الهواء. علم ابوك يا مورار بفعلك العظيم ومجدك السامي ، ولكنه وأأسفاه لم يعلم بخطبك الجسيم وجرحك الدامي . ابك ايها الوالد ما اقرنت عينك بالبكاء [1] ، ولكن ولدك لا يسمعك . ان نوم الميتين عميق ثقيل ، وان وسائدهم من الثرى واطئة منخفضة . ابدا لا يبلغه صوتك ولا يوقظه دعاؤك . متى ينبثق ضوء الفجر في القبر فيقول للنائم : تيقظ !

«وداعا يا أشرف الرجال ؟ وداعا يا سيد الابطال يوم القتال ! هيهات ان تراك بعد هذه الحقول . وهيهات ان يمض متنا سيفك في ظلام الغابة! ليس لك من ولد يحمل في الحياة اسمك ، ولكن اغانينا ومراثينا ستخلد ذكراك بعدك ، وتنقل الى الاجيال المقبلة فخارك ومجدك .

«فعلا نحيب الاطفال واشتد بكاؤهم ، ونفث أرمين من صدره نفثة خفتت دونها الزفرات وضاع فيها الأنين . أذكره ذلك الرثاء مصرع ولده وهو في وفرة الشباب وزهرة العمر ، فلم يطق حبسا لزفراته ، ولا كفا لعبراته . وكان كرمور امير جلمالا جالسا مع الابطال ، فتقدم الى أرمين

---

١ ــ من قولهم : أقرنت السماء بالمطر : دامت ولم تقلع .

يسأله ، ما هذه الزفرة الدامية يا أرمين ولات حين بكاء ؟ ان انغام الشعر والغناء لتريض النفس وتهيج القلب وتنعش الخاطر • انها لأشبه بالبخار الخفيف ينعقد فوق البحيرة ثم ينحل رذاذا فوق الخمائـــل والاودية ، فيرطب الزهر ويندي الشجر ؛ ولكن الشمس اذا ما علا ضحاها تبـدد البخار وجف الندى • مالك يا أرمين تعلن الشكوى وتضج من الالم وأنت الحاكم على جرما المحاطة بالامواج ؟

أرمين

«ــ نعم انا شاك باك حزين ، وان سبب عذابي لقوي مكين . انك يا كرمور لم تفجع في ابن رطب العود ، ولا في ابنة ريّانة الشباب . لا يزال كلجار الشهم وأميرا الجميلة يتنسمان روح الحياة ، ولا تزال فروع دوحتك يا كرمور تزهو وتزهر ؛ اما أرمين فآخر نبعة من أرومته .

«ما أظلم مرقدك يا دورا . وما اطول رقادك تحت الثرى . متـــى تهبين من سباتك العميق فنسمع غناءك العذب وصوتك الرخيم ؟

«هبي يا رياح الخريف هبي ! هبي واعصفي فوق حقول الخلنـــج العابسة ، واصدمي اينها العواصف رؤوس السنديان ، ودوي يا سيول الغابة ، وتقدم ايها القمر خلال الغيوم الممزقة ، واحسر عن وجهك الشاحب فترة بعد فترة ، وأعد الى ذاكرتي تلك الليلة الهائلة المروعة ، ليلة دعا داعي الموت ولديّ فسقط أرندال القوي ، وهلكت دورا العزيزة .

ابنتي دورا ! لقد كنت جميلة كالبدر على يفاع فيرا ، بيضاء كالثلج

على اجنحة الرياح ، رقيقة كأنفاس النسيم في فم الصباح •

«ولدي أرندال ! لقد كانت قوسك صلبة شديدة ، وحربتك في الوغى سريعة سديدة ؛ وكان نظرك كالبخار فوق الامواج ، وترسك كالغمامة الملتهبة في الزوبعة •

جاء أرمار الصيت في القتال يخطب قلب دورا ويبتغي حبها فلم تمتنع عليه طويلا ، فسر ذلك قلوب أوليائه ومحبيه الا اراط بن أدجال فقد أضب له [1] على حقد وحسد ، لأن اخاه سقط في حومة الوغى طعين أرمار • تنكر هذا الخائن في زي ملاح توجه الدهر بتاج المشيب فبدا على محياه جلاله ووقاره ، وأقبل تاركا زورقه الجميل على الماء حتى لقي دورا فقال : «يا اجمل العذارى ويا ابنة أرمين الفاتنة ! هناك على تلك الصخرة القريبة من الساحل ينتظرك أرمار • وقد جئت ادعوك يا حبيبة قلبه لأعبر بك البحر المزبد اليه» فما ترددت دورا ولا كذبت ، بل اقتفت أثره وركبت زورقه حتى دنت من الصخرة ، فنادت أرمار فلم يجبها غير صداها ! «أرمار يا حبيب مهجتي ، أرمار يا مؤنس وحشتي ! لم تركتني فريسة الهم والقلق؟ سماع يا ابن ارناط سماع! ان دورا هي التيتهيب بك وتدعوك» •

«تركها الخائن ارناط على الصخرة بين الامواج وارتد الى الساحل ضاحكا • فأخذت المسكينة ترفع عقيرتها مستغيثة بأبيها وأخيها • اخي أرندال ! ابي أرمين ! أما يأتي احدكما فينقذ من يد الموت قرة عينه دورا ؟

«عبر صوتها البحر الى مسامع أرندال وقد كان هابطا من الربوة موقرا بمغانم الصيد ؛ قوسه في يده ، وسهامه ترن الى جانبه ، وخمس

---

١ ـ اضب له على حقد : اضمره ونواه •

سلوقيات (٢) غبر ضوامر تلهث من حوله • فرأى علـــى الشاطىء اراط المقدام فشد وثاقه وربطه في سنديانة ، فملأ انينه الجو وبلغ عويلـــه السماء • ثم دفع أرندال زورقه بين الامواج يريد خلاص دورا • فجرى القضاء المحتوم ان يأتي الساعة أرمار وهو لا يعرف نفسه من الغضب ، فظن الاخ عدوا فرماه بسهم مراش لم يجد موقعه الا في قلبه • يا لشقاء الجد يا ولدي ! لقد أقصدتك (٣) نبلة ريشت للعدو ، وأصمتك ضربة كانت للخائن !

«وقف المجداف فجأة ، ووقف بك الزورق على الصخـــرة حيث فاضت روحك بين يدي اختك ! وارحمة لك يا دورا ! ما أشد عذابك وأفدح مصابك حين خضبت قدميك دماء اخيك !

«نهشت الامواج الزورق فتحطم ، فلم يجد أرمار حيلة لخلاص دورا الا ان يلقي بنفسه في اليم ، فاما ان ينقذها واما ان يموت • سبح أرمار فوق الماء ، وقضت مشيئة الله ان يجل الخطب ، ويفدح الرزء ، فأرسل من صياصي الجبال عاصفة هوجاء اثارت غضب البحر فابتلع أرمار !

«والهف نفسي على ابنتي وحدها على الصخرة ترسل أنّاتها مع الرياح الى الجهات الاربع ! كانت صرخاتها حادة متواصلة ، وأبوها لا يملك لها نفعا ، ولا يغني عنها شيئا •

«سهرتُ الليل كله واقفا على الشاطىء انظر اليها في أشعة القمـــر الشاحبة وما فتر صراخها طول الليل ولا همد • كان الهواء عاصفا يملأ الجو صفيره ، والمطر واكفا يصك الجبل هديره ، وابنتي ترسل الصيحة اثر الصيحة حتى خشع صوتها قبل الصباح وخفت • ثم غاب ذلك الصوت

---

٢ ــ سلوقيات : كلاب الصيد .
٣ ــ أقصده السهم : أصابه فقتله مكانه ، وكذلك اصماه .

وذهب كما تذهب نسمات المساء بين أعشاب الصخور ؛ وماتت ابنتي منهوكة القوى من الحزن والالم ، وخلفت أرمين بين مخالب اليأس وحيدا . واحسرتاه ! لقد قتل من كنت أتقوى به يوم الطعان ، وماتت من كنت أفخر بها على الكواعب الحسان !

«كلما هبطت زوبعة من الجبل ولعبت ريح الشمال بالموج جلست على الشاطىء الهدار انظر الى تلك الشجرة المشئومة ! وكثيرا ما ألمح عند أفول القمر طيفي ولدي يجولان معا في ضباب الفجر حزينين باكيين !

انهلت مدامع شرلوت انهلال القطر فنفست عن صدرها المكروب وقطعت قراءة فرتر . فرمى الكراسة من يده وأخذ يدها ثم تساتل (٤) دمعة وانهمل . اما شرلوت فاعتمدت على يدها الاخرى وسترت وجهها بمنديلها ؛ وكان انفعالها المشترك قويا شديدا : رأى كل منهما عثار جده وسوء حظه فيما قدر الابطال أسيان ، فاتحد الاسى وامتزج الدمع . ووضع فرتر شفتيه الملتهبتين وعينيه المتقدتين على ذراع شرلوت فارتعدت . وأرادت ان تبتعد فغلها الاشفاق وكبّلها الالم فلم تستطع حراكا . وأخذها الخناق فبالغت في الشهيق ، وحاولت ان تعود الى نفسها فأقسمت على فرتر بنغمة قدسية عذبة ان يواصل القراءة . فاضطرب فرتر وخيل اليه ان قلبه يكاد ينفطر . ثم تناول الكراسة وأخذ يقرأ بصوت ينهدج من النحيب ، ويتقطع من الوجد :

«لم توقظينني يا أنفاس الربيع ؟ هذه نفحاتك الحلوة تلاطفني وتقول: «اني أقطر لك الندى ، وأسكب عليك ظل السماء» ، ولكن وقت ذبولي قد أفد ، وأوشكت العاصفة التي تسقط اوراقي ان تهب . وغدا يأتي

---

٤ ـ تساتل : تقاطر وتتابع .

المسافر الذي عرفني في شبيبتي وجمالي فيفتش عنـــي في الحقول ، ويطلبني في السهول ، فلا يجد لي خبرا ولا اثرا» ٠

فوقعت هذه الكلمات المؤثرة في قلب المغرم المسكين وقوع العبء الفادح على الكاهل الواهن المنحل ٠ فارتمى على قدمي شرلوت في حال من اليأس لا توصف ٠ وأخذ يديها ووضعهما على عينيه ثم على جبينه ، فخيل اليها ان عزمه [٥] المروع قد مر في قلبها مرور السهم في الرمية ؛ فاضطربت مشاعرها وخارت قواها ، فضغطت يديه ثم ضمتهما الــــى صدرها ، ومالت عليه منفعلة ثائرة ، فتماس خداهما المحرقان وامحــى امامهما العالم بأسره ٠ حوطها بذراعيه ، وضمها الى حضنه ، ثم انحنى على شفتيها المضطربتين المغمضتين بالقبل القوية الحارة ، فاعرضت عنـــه وصاحت بصوت مختنق : «فرتر !» ثم أزاحته عن صدرها بيد فاترة ، وقالت مرة اخرى بلهجة ثابتة تدل على أشرف الاخلاق وأنبل العواطف : « فرتر ! »

لم يقاوم فرتر ، بل تركها تفلت من بين ذراعيه ووقف امامها ساهما مشدوها كأنه أبله ٠ واتجهت هي نحو الباب فزعة مسرعة تقول ، وفي قولها رنة الغرام والغضب : «تلك آخر مرة يا فرتر ! هيهات لن ترانـــي بعد !» وألقت على البائس الواله نظرة تفيض بالحب ، ثم لجأت الى الغرفة المجاورة وأغلقتها عليها ٠

ما زاد الفتى على ان بسط ذراعيه اليهـــا دون ان يحاول اعتياقها ، وجسمه ممدد على الارض ، ورأسه مسند الى الكنبة ٠ وبقي على تلك الحال اكثر من نصف ساعة ٠ عاد الى نفسه على حركة الخادمة وقد اقبلت

---

٥ ــ عزمه الانتحار ٠

تمد الخوان • فقام يتمشى في الغرفة حتى رأى نفسه وحيدا ، فتقدم نحو الحجرة التي لجأت اليها ونادى بصوت خافت : «شرلوت ! شرلوت ! بردي حشاي بلفظة • ودعي الظاعن بكلمة • حنانيك لا اطلب الا ذاك» فلم ترد عليه جوابا • فانتظر ثم تضرع ثم انتظر • فلما ابطأ الرد ولى مدبرا وهو يصيح : «وداعا يا شرلوت ! وداعا الى الابد !» وأخذ سمته الى باب المدينة ، فتركه الحراس يمر دون ان يكلموه لاعتيادهم رؤيته على مثل حاله •

خرج من المدينة فرتر والرياح شديدة عاصفة ، والسماء مثلجة واكفة، فلبث حتى الساعة الحادية عشرة • ثم عاد الى منزله فرآه خادمه من غير قبعة فلم يجرؤ على تنبيهه ، ونضا عنه أثوابه فوجدها مبللة • ثم رأى بعض الناس قبعته بعد حين فوق صخرة على سفح الهضبة ، فلا شك في انه تسلقها في ليلة حالكة ماطرة دون ان يسقط •

نام تلك الليلة ملء جفونه • ولما اصبح الصباح دخل عليه الخادم بالقهوة فوجده مكبا على الكتابة • كان يضيف هذه الاسطر التالية على كتابه الى شرلوت :

«تلك اذن هي المرة الاخيرة التي أفتح فيها عينيّ ! واسفاه ! انهما لن تريا ضوء الشمس بعد • الشمس محتجبة بالغمام ، والسماء منتقبة بالظلام ، وهكذا فليكن حدادك ايتها الطبيعة • ان ابنك وحبيبك يقرب من نهاية ايامه ، ويدنو من ساعة حمامه • شرلوت ! ان الشعور الذي يشعر به المرء ساعة يقول لنفسه : «ذلك هو يومي الاخير» لا يوازيه شعور ولا يقاربه شيء ، اللهم الا عواطف الاحلام المبهمة • الاخير ؟ هذه الكلمة يا شرلوت لا افهم لها معنى • ألستُ اليوم في مرح القوة ووفرة العافية ؟ وغدا سأكون طريحا على الثرى دون حركة ولا قوة • الموت ! ما معنى الموت ؟ ألا ترين انا نحلم كلما تكلمنا عن الموت ؟ لقد رأيت كثيرا من

الناس ماتوا ، ولكن الانسانية محدودة الادراك فلا تستطيع ان تفهم لوجودها اصلا ولا غاية .

«أنا اليوم لا ازال لنفسي ، بل لك يا حبيبة القلب . وفي لحظة واحدة ينسدل بيننا حجاب القدر فنفترق ويفقد كلانا الاخر . ربما كان ذلك الى الابد ! لا .. لا يا شرلوت ! كيف يعروني الفناء وكيف يطويك ونحن مع ذلك نعيش ونوجد ؟ ما معنى الفناء ايضا ؟ انها كلمة جوفاء لا تسفر عن معنى ولا تدل قلبي على شيء : أمعنى الموت يا شراوت ان أغيَّب في جوف الارض وأقبر في لحد ضيق مظلم ؟ يا للهول !

«لقد كان لي في شبابي المفقود صديقة لا تعرف سواي ، فعدا عليها الموت ، فشيعت جنازتها مع المشيعين ، ثم وقفت على شفا الحفرة ورأيتهم وهم يدخلون فيها الناووس ، وسمعت جرجرة الاحبال وهي تحل وتجذب ، ورأيت الهيلة الاولى تسقط على التابوت فأخرجت منه صوتا أصم ما زال يزداد على الانهيال صمما حتى توارى الناووس تحت الثرى . فجثوت على ركبتي بجانب القبر مبلبلا مأخوذا يفيض الهم من جوانب قلبي المصدوع ! ولكنني كنت اجهل ما يحدث امامي ، وما ينتظرني في آجل ايامي . موت ! فناء ! قبر ! كلمات مخيفة لا افهم لها معنى ولا ادري لها حقيقة .

«آه ! عفوا ايها الملاك وصفحا ! امس ! يا لله من أمس ! ليته كان آخر عهدي بالحياة ! أجل ايها الملاك الكريم ! تلك كانت اول مرة شعرت فيها يقينا بسرور نفسي وشعور قدسي ، سريا في عروقي وجريا في دمي ، فاهتز لهما جثماني ، وفاض بهما وجداني . ذلك لاني علمت انك تحبينني ! نعم تحبينني ! وهذه النار المقدسة التي سرت من شفتيك لا تزال تحرق شفتي !

«الا ان نشوة شديدة جديدة قد ملكت مشاعري ، وملأت قلبي

وخاطري ، فعفوا يا ملاك وصفحا !

«آه ! لقد كنت أعلم يا شرلوت انك تحبينني . نعم كنت اعلم ذلك منذ تصافحنا لاول مرة ، ومنذ رميتني بنظراتك الاولى التي تمثلت فيها نفسك ، وتجمع فيها حسك ؛ ولكني كنت مع هذا اذا تركتك او رأيتك مع ألبير اخذتني حمى الشك وملكني شيطان الغضب . أتذكرين تلك الازهار التي بعثت بها الي عقب ذلك المجتمع البغيض الذي لم تستطيعي فيه ان تكلميني او تصافحيني ؟ لقد قضيت نصف الليل جاثيا امام تلك الزهرات وهي تحدثني عن حبك وغرامك ، ولكن واأسفاه ! لقد امحت تلك الانفعالات كما يمحى على التدريج من قلب المؤمن شعوره بفضل الله الذي اسبغه عليه وأسداه اليه .

«كل ذلك يعفو على الزمن ويبيد ، ولكن الحياة المضطرمة التي قبستها من شفتيك بالامس لا يقوى الابد على اطفائها وافنائها . انها تحبني ! وساعداي هذان قد التفا عليها ، وشفتاي هاتان قد اضطربتا على شفتيها ، وفمي هذا قد تمتم على فمها الضاحك العذب : انها لي ! أجل انك لي يا شرلوت الى الابد ! ماذا يهمني ان كان ألبير زوجا لك ؟ زوجا لك ! ان ذلك في رأي هذا العالم وحده ، في رأي هذا العالم الذي يعد حبي اياك خطيئة ، ويرى انتزاعي لك من ذراعيه الى ذراعي خطيئة . خطيئة ! ان تكن فقد عاقبت نفسي عليها . لقد تلذذت بهذه الخطيئة وتمتعت بمذاقها السماوي العذب ، وسقيت منها القلب شرابا طهورا ، وقبسته حياة وقوة وسرورا . انت لي منذ تلك اللحظة يا شرلوت ، وسأتقدمك الى ابي وأبيك فأشكو اليه همومي فيعزيني ويسليني ريثما تقدمين . فاذا ما قدمت طرت اليك واستوليت عليك ، ثم نقف امام الخالق الازلي ونفسانا ممتزجان وجسمانا متحدان بعناق دائم سرمد .

«انا لا احلم ولا اهذي . بل النهار يضيء ساطعا في عيني كلما دنوت

من باب القبر • انا سنوجد يا شرلوت ، وسيرى كل منا الاخر ، وسألقى أمك • أجل ، سأراها وأفضي اليها بذات صدري ودخيلة امري ، فهي صورتك التامة الكاملة» •

★★★

قبيل الساعة الحادية عشرة دعا فرتر خادمه وسأله أعاد ألبير ؟ فأجابه ان نعم • فحمله رسالة مفتوحة اليه يقول فيها :

«لك الفضل يا صديقي ان سمحت بأعارتي غدارتيك أحملهما في سفرة أزمعتها • واني أستودعك الله !»

اما شرلوت المسكينة فلم تنم تلك الليلة الا غرارا • فقد كان ما خشيت ان يكون • كان ولكن بطريقة لم تحسها ولم تتوقعها ، فعاد دمها الساكن المنتظم ثائرا فوارا ، وألحّت العواطف المتناقضة المبهمة على ذلك القلب الكريم فهوشته وأضرمته • هل كان ذلك لظى النار التي اشعلها في صدرها عناق فرتر ؟ ام كان من السخط الذي نالها من جرأته واقدامه؟ ام كان ذلك لموازنتها المؤلمة بين حاضرها الظنين المروع ، وماضيها الرخي البريء ، ايام كانت طليقة من عقال الهم شديدة الثقة بنفسها قوية الامل في حياتها ؟ كيف تقف امام زوجها ؟ وكيف تقفه على هذا الامر ؟ وهل فيه ما تخشى الاعتراف به ؟ على انها لا تستطيع مع ذلك ان تنشره ولا ان تذكره • لقد لزم الزوجان الصمت منذ حين ، فهل تكون هي اول من يقطع ذلك الصمت بحكاية ذلك الخبر الطارىء في وقت غير مناسب؟ لقد كانت تخشى ان يكدر زوجها زيارة فرتر البسيطة ، فكيف اذا علم بهذه النازلة ؟ هل كان في مرجوها ان يرى آلبير هذا المشهد على حاله

فيعلم امرها من غير سوء ، ويحكم عليها من غير ريبة ، ويقرأ في صحيفة قلبها البيضاء براءة نفسها ونقاء ضميرها ؟ ام كان في حسبانها ان تكاتمه الامر وتطوي عنه الخبر ؟ وكيف يستطيع هذا القلب المفتوح ان يمسك على ما فيه وما عهده ألبير الا ناصع الدخلة مأمون المغيب ؟ ما حاولت شرلوت يوما ان تدافع زوجها عن قلبها فما زوت عنه سرا ولا كتمت دونه عاطفة . لذلك اعتراها من هذا الامر ارتباك وقلق ، وأخذت خواطرها تذهب وتعود فلا تقع الا على فرتر ، ذلك الذي هلك في سبيلها فــلا تستطيع ان تقطعه ، ولا تجد في وسعها ان تنفعه . واذا ما فقدها فلن يكون له في العالم احد ، ولن يبقى له في الوجود شيء .

ما كانت لاضطرابها تستطيع ان تلحظ ذلك الفتور الذي كان من جرائها بين ألبير وفرتر . فقد تعادى ما بين الرجلين على رجاحة عقليهما ، وسمو فضليهما ، ولزما جانب الصمت المطلق ، وذهب كل منهما الى النظر في شأن اخيه فرأى الخطأ في جانبه . ثم استفحل الامر واستحكـــم الخلاف حتى أعضل الحل وعز الوفاق في أشد الاوقات حرجا وأمسها بحسن الظن حاجة . فلو ان الثقة عادت الى الصديقين ، وتجدد التسامح والحب بين القلبين ، لكان من الممكن ان ينجو صديقنا المسكين .

ومما زاد شرلوت اضطرابا وحيرة ان فرتر لم يحاول كتم ما في نفسه من بغض هذا العالم ورغبته الشديدة في تركه . ولطالما كانت هـــذه النية التي جد في محاربتها ألبير موضوع الحديث بينه وبين زوجه . وكثيرا ما دعاه مقته الانتحار الى ان يقول بلهجة ليست من عادتـــه ولا طبعه : ان ذلك لا يصدقه ، ولا يعتقد في فرتر ما يحققه . وربما خرج في حديثه مع شرلوت عن هذا الامر الى التهكم والسخر منه ، فكان ذلك يذهب خيفتها ويسكن روعها كلما تمثلت في ذهنها تلك الفاجعة الاليمة . على انها ما كانت تستطيع الافضاء الى ألبير بتلك المخاوف التي كانت

أوانئذ تهاجم قلبها وتذكي حشاها .

***

عاد ألبير فخفت اليه شرلوت في عجلة وربكة ، فلم تجده مشروح الصدر ولا صافي النفس ، لان اعماله لم تنجز ، ولانه وجد في حاكم المقاطعة المجاورة رجلا شكس الخلق صعب المراس دنيء الطباع . ذلك الى ما لقي في الطريق من وعورة ومشقة كدرت صفوه وغيرت مزاجه . سألها عما كان في غيبه فأجابته ان فرتر جاءها ليلة امس . فقال لها ألبير : ألم يرد الي مع البريد رسائل ؟ فقالت : بلى جاءتك رسائل وأضابير فوضعتها على مكتبك في غرفتك . فذهب الى مكتبه ، وبقيت شرلوت وحدها وقد تفتح قلبها لانفعالات جديدة في حضرة هذا الرجل الذي تحبه وتجله ، ووجدت في ذكرى كرمه وحبه وحنانه روحا من الرخاء والهدوء لنفسها القلقة المعذبة . فتسرت في نفسها بقوة خفية تدفعها الى اللحاق به . فأخذت نسيجها في يدها وذهبت اليه على عادتها ، فوجدته مشغولا بفض رسائله وقراءتها وكان بعضها يحمل انباء لا تسر . فألقت عليه بعض مسائل اجاب عنها باختصار ثم جلس الى مكتبه وطفق يكتب .

لبثا على تلك الحال ساعة من نهار . وكانت شرلوت تنقبض من حين الى حين ، وترى من المستحيل ان تصارح زوجها بدخيلة امرها ولو كان في خير حالاته وأسر أوقاته . فأخذها الحزن واحتضرها الهم ، وكادت تنفجر لولا ان ملكت نفسها ، ونهنهت دمعها ، ولكن ظهور خادم فرتر في تلك الساعة أتم عليها الحيرة وجاز بها حد القلق .

تقدم الخادم الى ألبير وناوله بطاقة فرتر فقرأها ، ثم التفت الى امرأته

وهو هادىء مطمئن وقال لها : «ناوليه الغدارتين» • ثم قال للخادم : «قل لسيدك اني ارجو له سفرة حميدة ، ورحلة سعيدة» ، فوقعت على شرلوت هذه الكلمات وقوع الصاعقة • ونهضت حيرى يميد بها الشجو ويهفو بها القلق وهي لا تدرك شيئا مما تحس وتشعر • وتقدمت الى الحائط في وناء وبطء فنزعت الغدارتين بيد واجفة ومسحت عنهما الغبار ثم وقفت مترددة • ولولا نظرة من ألبير خرجت بها عن موقف الحيرة لطال التردد وزادت الربكة • فدفعت السلاح المشئوم الى الخادم دون ان تنبس بحرف • وشيعته بنظرها الحائر الى باب الدار • ثم التقطت نسيجها من الارض وانزوت في غرفتها والقلق يعبث بها عبث الزعازع الهوج بالشجرة المتهدلة الغضة • وما كان وحي قلبها الا المخاوف المروعة والاهوال الفظيعة • فتارة تريد ان تلقي بنفسها على قدمي زوجها فتبوح له بما أسرت من حوادث البارحة ، وتكشف له عن خطيئتها المستترة ومخاوفها المتوقعة ، وتارة ترى ان تلك سبيل لا توفي بها على القصد ، ولا تخرج منها الى الغاية ، فتيأس من حمله على الذهاب الى فرتر •

مُد الخوان وأعدت المائدة • واتفق ان جاءت صاحبة تريد شيئا على عجل محجزاها للطعام • فكان حديث المائدة بسببها محتملا مقبولا ، فان الزوجين كظما على ما في نفسيهما وتشقق الحديث فلها كل عن شأنه •

عاد الخادم بالغدارتين الى فرتر ونبأه ان شرلوت هي التي ناولته اياهما فقبلهما جذلان طربا • ثم تناول ما أعد لنفسه من خبز ونبيذ بعد ان صرف الخادم يتناول غداءه ثم جعل يكتب :

«سلمتها الى الخادم بيديك ، ونفضت عنهما الغبار بيديك ، فأنا أقبلهما الف قبلة لانك لمستهما ومسحتهما • انت يا ملاك السماء أسعفتني بحاجتي ، وسهلت علي تنفيذ رغبتي • انت يا شرلوت التي قدمت الي السلاح ، ومهدت لي طريق الموت • لقد كنت اطمع ان انال شهد الحياة

منك ، وهأنذا اليوم أتجرع صاب الردى من يدك !

«كم سألت خادمي وسألت ! فقال لي انك كنت تضطربين ساعة ناولته السلاح ، وانك لم تحمليه وداعا الي ! واأسفاه ! واويلتاه ! حتى الوداع لا اظفر به منك ؟ هل اغلقت ابواب قلبك دوني من جراء اللحظة المقدسة التي ربطتني واياك الى الابد ! شرلوت ؟ ستمر الوف من السنين وتكر ، ويتغير كل ما على الارض ويعفو ، الا أثر تلك اللحظة ، فانه باق على الزمن لا يمحى ولا يبيد . أجل ، أشعر انك لا تبغضين ذلك الذي يحترق في سبيلك ، ولا يتبع فيما يعمل دليلا غير دليلك» .

ثم أمر خادمه بعد الغداء ان يحزم الصرر ويعد الحقائب ، ومزق جملة كبيرة من الاوراق ، وخرج فقضى ما عليه من ديون يسيرة ، ثم عاد وما لبث ان خرج تحت المطر الوابل الى ظاهر المدينة يؤم حديقة الكنت . فتجول ما شاء في الحقول ولم يعد الا مع الليل . فدخل غرفته وأخذ يكتب :

«رأيت يا وليم السموات والغابات والمزارع لآخر مرة . أستودعك الله يا امي العزيزة البرة . سامحيني واغفري لي . عليك يا وليم ان تسليها وتواسيها ، وعلى الله ان يسبغ عليكما احسانه ، ويمنحكما بركته ورضوانه . كل اعمالي مرتبة منظمة . أكرر لكما الوداع يا عزيزيّ . سوف نتلاقى ونتراءى ، ويومئذ يبتسم لنا ثغر السعود ، في جنات النعيم والخلود .

«لقد جزيتك يا ألبير على ودك شر الجزاء ، فاعف عني وسامحني . كدرت صفاء بيتك ، وبذرت التهمة والحذر بينك وبين زوجك . أستودعك الله سأجعل لكل ذلك حدا . وعسى ان يسعدكما شقائي ، وأن يوجدكما فنائي . ألبير ! ألبير ! أسعد هذا الملاك ووطىء له أكناف الراحة والغبطة . والله يفيض عليك خيراته ، ويوليك رحمته وبركاته» .



امسى المساء فاشتغل فرتر طويلا بفحص أوراقه ، فمزق منها جملة كبيرة وألقاها في الموقد • ثم حزم مما بقي أضابير تشمل على ابحاثه القصيرة وأفكاره المنشورة وعنونها الى وليم ـ وقد اطلعت على كثير منها ـ ولما حانت الساعة العاشرة زاد المصطلى سعيرا • وطلب زجاجة من النبيذ ، ثم أمر خادمه ان يذهب فينام ـ وكانت غرفته وغرفة الاضياف في طرف الفناء بنجوة عن مكان سيده ـ فتطرح الغلام على سريره دون ان ينضو ثيابه استعدادا لهبوبه بكرة ، فان خيول البريد ستقف على الباب قبل الساعة السادسة كما قال له سيده •

بعد الساعة الحادية عشرة

«كل ما حوالي ساكن هادىء ، وكذلك نفسي آمنة مطمئنة • فلك الشكر يا مولاي على ما ادخرت لي في ساعتي الأخيرة من قوة وحرارة وعـزم •

«أدنو من النافذة يا شرلوت ، فأرى من خلال السحب المزجاة في جو السماء نجوما مبعثرة تتألق في أديم الجلد [٦] معاذ الله اينها الكواكب الخالدة ان تهوين • ان الدائم الباقي سيضمك مثلي الى خلوده ، ويلقي علينا نفحة من وجوده • كذلك أشاهد بنات نعش [٧] وهن اعظم كوكبة في السماء جمالا وروعة ! لقد كنت ساعة أخرج من بيتك مساء اجدها امامي تتلألأ وتلمع ! ولطالما راعيتها بعين قريرة ونفس هائجة ! ولكم رفعت يدي اليها أشهدها على غبطتي وهنائي ، وأتمثل فيها بناء سعادتي ورخائي!

---

٦ ـ الجلد : رفيع الصماء

٧ ـ بنات نعش : الدب الاصغر والدب الاكبر من النجوم •

تلك ايام خلت !

«ليت شعري يا شرلوت أي شيء لا يذكرني اياك ؟ ألم أك محاطا بك من كل مكان ؟ ألم افعل ما يفعل الطفل فاختلست منك بشراهة وحرص الف هنيئة [8] لا تفيد ، لانك قدستها بلمسك وطهرتها بيدك ؟

«والهفتا عليك ايتها الصورة العزيزة ! لقد كنت كلمـــا دخلت او خرجت اطبع عليك الف قبلة ، وأحييك الف تحية ! اني اوصي اليك بها يا شرلوت وأناشدك المحبة ان تكرميها .

«ان في اخر المقبرة لدى الزاوية المطلة على الحقل شجرتين من شجر الزيزفون ارجو ان يُشق تحتها لحدي ، ويبنى في ظلالهما ضريحي . تلك أمنية لا يضن بها ابوك على صديق حميم . ولقد كتبت اليه اسأله ان يرعى ضريحي ويكلأه ، تعززي ندائي بندائك ، واشفعي رجائي برجائك . انا لا اطمع ان يدفن المسيحيون المتقون جثثهم في جوار شقي بائس ، بل كنت ارجو واحسرتاه ان أدفن على قارعة الطريق او في عدوة الوادي ، حتى يمر بشاهد قبري الكاهن واللاوي [9] فيصلبا [10] ويستعيذا ، ويمر بعدهما السامري فيذرف دمعة على ثراي الجديب .

«قدمي الكأس يا شرلوت فليس بي رعدة ولا وجل . قدمي الكأس المخيفة الباردة أذق بها سكرة الموت . انت التي تقدمينها الي فكيف أتردد او أحجم ؟ كذلك يا رب تتم رغائبي وتتحقق آمالي في الحياة ! سأقرع ابواب الموت النحاسية غير هياب ولا واجف . ليتني نلت يا شرلــوت سعادة الموت في سبيلك ، وضحيت هذه النفس المعذبة لاجلك ! لو كان

---

٨ — الهنية : الشيء الحقير .

٩ — اللاوي : من سبط لاوي بن يعقوب بن اسحـــــق بن ابراهيم ، واللاويون معروفون بالتزمت بالدين .

١٠ — صلب المسيحي : رسم الصليب على صدره بالاشارة .

موتي يرد عليك دعة النفس وخفض العيش وسعادة الحياة ! اذن لمتُ قوي القلب مثلوج الصدر . ولكن واأسفاه تلك سعادة لا يؤتاها الا أولو النفوس الكريمة : يسفكون دماءهم في سبيل أحبائهم ، وينيرون بموتهم طريق الحياة العاملة السعيدة لاصدقائهم .

أريد يا شرلوت ان أكفن في هذه الثياب التي لمستها وقدستها ، وتلك احدى أمانيّ التي طلبتها الى ابيك . ان روحي ستلحق فوق ضريحي ، فحذار ان يقدم احد على ان يبحث في جيوبي ! ان العقد الوردية التي كانت تزين منطقتك يوم رأيتك لاول مرة بين اطفالك .. آه ! قبلي لي اولئك الابرار ألف قبلة ، وقصي عليهم نبأ صديقهم البائس . والهفتاه على عهد مضى بين اولئك الاطهار الاعزة ! لكأني انظر اليهم الان مجتمعين حولي ، مبتهجين بمداعبتي وقولي ! أواه يا شرلوت ! لقد تعلقت جد التعلق بأسبابك ، ولم أر معنى للوجود الا بك ، وأصبح افتراقنا منذ عرفتك لا يحتمل !.. تلك العقد يا حبيبتي أريد ان تدفن معي ، فانك اهديتها الي في عيد ميلادي . لشد ما كنت أتقبل هذه الاشياء بجشع شديد ونهم قوي ! واويلتاه ! ما كنت أحسب هذا الطريق يفضي بي الى هذه الغاية !

نشدتك الله ان تطيبي نفسا وتهدئي بالا .

انهما محشوتان .. دقت الساعة اثنتي عشرة ! ليكن ما قدر الله ! شرلوت .. شرلوت ! وداعا .. وداعا !»

موت فارتر

رأى احد الجيران ومض البارود وسمع صوت الطلقة ، ولكنه لم ير بعد ذلك ضجيجا ولا حركة فما فزع ولا اكترث .

وفي الساعة السادسة من صباح ذلك اليوم دخل الخادم الغرفة وفي يده المصباح فوجد سيده صريعا على الارض ، ورأى الغدارة ، ولمح الدم ، فناداه ، ثم أمسك به ، ثم اقامه ، فما سمع منه الا شهيقا وغطيطا. فأسرع الى الطبيب، ثم هرول الى ألبير، فكانت شرلوت اول من سمع طرق الباب فمشت في اعضائها رجفة قوية ، وهيمنت على قلبها خيفة شديدة. ايقظت زوجها ، وهب كلاهما يستطلع طلع الطارق فألفيا الخادم لدى الباب صارخا معولا يغمغم بالخبر المشئوم ، شخرت شرلوت امام زوجها صعقة .

***

جاء الطبيب الى الصريع البائس فوجـــــده مجندلا على الأرض مشفيا (١) لا يحس ولا يعي • فلما جس راهشه وجده ينبض ، الا ان اعضاءه كانت قد تصلبت فلم تدع للامل في شفائه محلا •

كان فرتر قد اطلق الرصاصة على ما فوق عينه اليمنى من الجبهـــة ففتح للمخيخ طريقا فانبجس من الجرح وسال ، فرأى الطبيب ان يجرب آخر حيلة ، ففصده في ذراعه فسال الدم واستمر النفس •

ان الدم الذي لطخ ظهر كرسيه ليشهد انه أطلق النار على نفسه وهو جالس الى مكتبه ، ثم وقع يتشحط في دمه ويضطرب من غمرة الموت حول كرسيه حتى سكنت حركته ، وسكنت نأمته (٢) فبقي مستلقيا على ظهره بجانب النافذة وهو منتعل مزمل في سترة زرقاء وصدار اصفر •

***

ريع البيت ، وفزعت السكان ، وهرعت المدينة جمعاء • وجاء ألبير وقد سجوا على السرير فرتر وهو معصوب الرأس على وجهه طابع الموت ووسمه • وكان لا يزال يغط غطيطا مروعا ، فتارة ينسم نسم الريـــح الضعيفة ، وتارة يشهق شهيقا عاليا ، والناس من حوله ينتظرون ان يسكن نسيسه (٣) في كل لحظة •

لم يشرب فرتر الا قدحا من النبيذ • وقد قضى ورواية «امليـــا جالوتي» (٤) منشورة على مكتبه •

---

١ ــ مشفيا : مشرفا على الموت •
٢ ــ كناية عن الموت •
٣ ــ النسيس : بقية الروح •
٤ ــ مأساة شهيرة للكاتب الالماني ليسنغ •

ليعفني القارىء واله الفضل من وصف ما عرا ألبير من الوله والجزع، وما اصاب شرلوت من اليأس والهلع ، فذلك لا يقع في الامكان ، ولا تناله قدرة كاتب . اما الحاكم الشيخ فلم يكد يصك مسمعيه الخبر حتى هرع الى الدار وانحنى على الميت يعانقه ويقبله وهو يبكي أحر بكاء . ثم اقبل على أثره ولداه الكبيران راجلين فسقطا قريبا من المحتضر على حال من الالم والحزن لا توصف ، ثم مالا على يديه وفمه يقبلانهما بحرارة ولهفة . والتصق فم الاكبر بشفتي فرتر ، وقد كان أحب اخوته اليه وآثرهم لديه . ولم ينفصل عنه الا قسرا بعد ان قضى الصديق أجله ولفظ نفسه .

خلجته المنون ظهر اليوم ، وقد كان وجود الحاكم وما اتخذ من تدبير وتصرف سبيلا الى علم الناس فتقاطروا على بابه ، واحتشدوا في منزله . فلما امسى المساء ووافت الساعة الحادية عشرة حمل على نعش فوق أكتاف العملة ، وسار في جنازته الحاكم الشيخ وأولاده المحزونون دون احد من رجال الكهنوت حتى غيب في القبر وأدرج في المكان الذي اختاره وأوصى به .

أما ألبير فقد خذلته قواه ، وخانته رجلاه ، فلم يستطع الى السير سبيلا . وأما شرلوت فوالهف نفسي عليها ! لقد أصابتها غشية ما ظنها احد تفيق منها . وناء بها الخطب فتركها واجمة والهة تكاد ترهق نفسها من الحزن والهلع . فجزع الناس لمصابها ، وخافوا على حياتها ، ودعوا الله ان يوزعها الصبر ويشبع قلبها بالسلوة .

— انتهت —

يجب أن تراها وهي راقصة : انها تقبل بقلبها ونفسها على الرقص ، وتترك جسمها يموج ويميد في انسجام وانتظام ، وترى حركاتها حرة طليقة ، ولفتاتها سريعة رشيقة ، فلا شك في أن الرقص خلق لها فلا تفكر الا فيه ولا تشعر الا به وان كل شيء في هذه اللحظة قد فني في خاطرها و ناظرها ، دعوتها للرقصة الثانية فأبت الا الثالثة ، وصارحتني بكلمات هن اندى على الا فئدة من زلال الماء وقالت « أني أحب الرقصة الالمانية وقد جرت عادة قومنا الا ترقصها السيدة الا مع مراقصها وقد علمت ان مراقصي لا يحسنها وسيشكر صنيعي اذا أعفيته منها . كذلك حال مراقصتك لا تجيدها ولا تريدها ، اما انت فقد راقبتك حين رقصت الانجليزية فوجدتك رشيق الحركة ماهر اللفتة ،فاذهب ان رأيت الى مراقصي فاطلب اذنه وسأذهب الى مراقصتك فاستنزلها عنك » . .

● بهذا الحوار البديع يروي لنا «جيته» الالماني حياة وآلام فارتر مما لا شك فيه فأن أحمد حسن الزيات هو الوحيد الذي كان أميناً على نقلها للعربية . . .

الثمن : ١٠ ل. ل.